

المجلد الأول

الباب الأول

التاريخ بصفته تجارب عملية

” يقول الحمقى من الناس انهم يتعلمون بالتجارب . أما أنا فأفضل أن أتعلم من تجارب غيري “ . هذا القول المشهور المعزو الى ”بسمارك“ وان لم يكن هو مبتكره ، له أثر خاص في المسائل الحربية . فلقد قيل وأعيد القول أن الجندى ، بخلاف أرباب المهن الأخرى ، ليس لديه من الفرص التي تمكنه من ممارسة مهنته الا ما ندر . بل وقد يزداد على ذلك قولهم ان مهنة الجندى ، اذا روعى المعنى المفهوم من كلمة مهنة ، ليست مهنة مطلقا بل هي مجرد ”استخدام عرضي“ . ومن الألفاظ أنها بطلت أن تكون مهنة في الوقت الذي حل فيه ”الجندى المحترف“ محل الجندى المغامر -- حينما استعاض عن الجنود الذين كانوا يستخدمون بأجر مدة الحرب ، بجيوش مستديمة تتقاضى رواتبها حتى في غير أيام الحرب .

وهذا الجدل المنطقي وان كان فيه شيء من التطرف ، يعيد الى الذاكرة العذر الذي كانوا يحتاجون به مرارا في الأيام السالفة في اعطاء الضباط مرتبات لا تنفي بمحاجاتهم . كما كان يحتاج به بعض الضباط في تأدية عملهم اليومي ناقصا عن المعتاد -- بحجة أن مرتب الضباط ليس أجرا لعمل انما هو أجر ”ارتباط“ حتى ينتفع بخدمته في حالة الحرب .

واذا كان الزعم -- بأن ”مهنة الجندية“ لا وجود لها بالمعنى الصحيح -- لا يحد ما يؤيده في أيامنا هذه من وجهة الأعمال الا أنه من وجهة الممارسة يجد تأييدا قويا لا مفر منه ، في ندورة الحروب . وعلى ذلك فهل نستنتج منه أن الجيوش صائرة تدريجيا الى أن تصبح جيوش ”هواة“ بالمعنى الدارج البغيض لهذه الكلمة التي أسئ استعمالها ؟ لأن المشاهد ان تدريب زمن السلم حتى أحسنه لا يخرج عن كونه ”نظريا“ أكثر منه ممارسة ”عملية“ .

على أن القول الحكيم الذي قاله ”بسمارك“ يلقي على هذه المسألة ضوءا مغايرا لذلك فيه تشجيع . اذ يساعدنا على ادراك أن هناك صورتين للممارسة العملية احدهما مباشرة والأخرى غير مباشرة . وأن الممارسة العملية غير المباشرة قد تكون أعظم قيمة من الأخرى لاتساع نطاقها اتساعا لا حد له . لأن في الحياة العملية حتى أكثرها نشاطا ، وعلى الخصوص حياة

الهندي، تكون دائرة الممارسة المباشرة وما يتخللها من الاحتمالات محدودة الى درجة متناهية . وعلى تقيض مهنة الهندية مهنة الطب فان هذه لديها من الممارسة ما لا ينقطع سبله ، ومع ذلك فان جلائل الأعمال كان الفضل في ظهورها يرجع عادة الى من يعملون في البحث والاستقصاء لا الى الأطباء الممارسين الذين يتعاطون مهنتهم بوجه عام .

ثم ان الممارسة المباشرة محدودة بطبيعتها الى درجة يتعذر معها تكوين أساس ثابت تبني عليه النظريات أو يقوم عليه تطبيقها . فهي في أحسن حالاتها توجد جوا صالحا له قيمته في ترسيخ بناء أفكارنا وتقويته . أما قيمة الممارسة غير المباشرة ، التي هي أعظم من تلك ، فهي فيما تناوله من التغير واتساع النطاق اذ هما في هذه أعظم مما في تلك . ” والتاريخ هو تجارب عامة “ — أى تجارب الغير الكثيرين في ظروف متنوعة ، لا مجارب فرد واحد .

وهنا نجد مبررا معقولا للتاريخ الحربي من حيث قيمته التي لا تعادلها قيمة أخرى في تدريب الهندي وتوسيع مداركه . على أن الاستفادة تتوقف ، كما في كل أنواع التجارب ، على درجة اتساعها ، وقربها من التعريف المار بيانه ، وعلى طريقة الدراسة .

ثم ان رجال الهندية يسمون بالاجماع بما في القول المأثور عن نابليون من الحقيقة وهو أن في الحروب ” نسبة القوة المعنوية الى القوة المادية كنسبة ثلاثة الى واحد “ . فالنسبة الحسابية قد تكون عديمة القيمة لان القوة المعنوية عرضة للتدهور اذا كانت الأسلحة ليست على ما يرام . كما أن قوة الارادة مهما سمت لا تجدى نفعا وهي في جثة هامة . غير أنه ولو أن العاملين الأدبي والمادى متلازمان لا ينفصلان فان هذا القول المأثور تبقى له قيمته الأبدية لأنه يعبر عن فكرة تفوق العوامل الأدبية في كل القرارات الحربية . لأن العوامل الأدبية هي المحور الذي تدور عليه نتيجة الحرب بأجمعها ونتيجة المعركة . والعوامل الأدبية في التاريخ هي العوامل الثابتة دون غيرها ، ولا تتغير الا في درجتها . في حين أن العوامل المادية تختلف اختلافا أساسيا في كل حرب وفي كل موقف بوجه التقريب .

وإدراك ذلك يؤثر على المسألة بأجمعها الخاصة بدراسة التاريخ الحربي للانتفاع به عمليا . وقد كانت طريقة الدراسة في بضع الأجيال الماضية تنطوي على اختيار حملة حربية أو حلقين ودراستهما دراسة متعمقة كوسيلة لترقية مداركنا والتوسع في نظرية الحرب . على أن التغير المستمر الذي طرأ على وسائل الحروب من حرب الى أخرى فيه خطر جسيم بل محقق يفضي الى تضيق دائرة آمالنا ويجعل ما نتلقاه من الدروس قائما على قياس باطل . فالعامل الوحيد الثابت في دائرة المساديات هو أن الوسائل والظروف لا ثبات لها بل تتغير دائما .

وعلى العكس من ذلك فان الطبيعة البشرية لا تتغير الا شيئا يسيرا من وقع الأخطار عليها . فقد يكون بعض الناس أقل احساسا من غيرهم بطبيعة أجناسهم ، أو بفعل المحيط الذي يعيشون فيه ، أو بما يتلقونه من التعليم والتدريب . على أن الفرق بينهم ان هو الا في الدرجة

وليس فرقا أساسيا . وكلما انحصرت دائرة الموقف ودائرة دراستنا زادت حيرة العقل وأصبحت درجة الفرق لا تقاس . وقد تحول دون حساب مقدار المقاومة التي تبديها الجنود في أى موقف . ولكنها لا تؤثر على الحكم بأنهم يبدون مقاومة في حالة مفاجأتهم أقل من المقاومة التي يبدونها وهم متيقظون — ويقاومون وهم متعبون وجياع أقل مما يقاومون وهم مستريحون ولا ينقصهم الغذاء الجيد . فكما اتسعت دائرة دراسة علم النفس حسن أساس الاستنتاج .

وتفوق النفسية على الطبيعة الجثمانية وكون الأولى أكثر ثباتا من الثانية يؤديان الى استنتاج ان أساس أية نظرية عن الحرب يستلزم أن يكون متسعا ما أمكن . فدراسة حملة حربية واحدة دراسة عميقة ، ما لم تكن مؤسسة على علم واسع بكل تاريخ الحرب ، قد تؤدي بنا الى مواطن الزلل ، كما أنها قد تؤدي الى ذروة المغامرات الحربية . ولكن اذا شوهد أن نتيجة بعينها تتبع سببا بعينه في عشرينات من الحالات في أزمنة مختلفة في ظروف شتى ، اذن لكان هناك مبرر يبرر اعتبار أن ذلك السبب هو جزء متمم لأية نظرية في الحرب .

فهذا الكتاب ، كالموضوع الذى يبحث فيه ، عبارة عن محصول ذلك التقيب ” الواسع “ ويصح تسميته النتيجة المركبة لأسباب معينة — وهذه الأسباب لها صلة بعمل كحرجى فى ” دائرة المعارف البريطانية “ . فمع أنى قد بحثت وتقتب فيما مضى فى مختلف عصور التاريخ ، وكثيرا ما كان ذلك رغم ميولى . ثم ان المساح الذى يسمح للأراضى ويشرف عليها ، بل والسائح الذى يحوب البلاد يكون بطبيعة الحال ملما بصورتها المنظورة أكثر من غيره وفى استطاعته أن يعرف أوضاعها العامة على أقل تقدير فى حين أن مهندس المناجم لا يعرف الا الطبقة الأرضية التى يبحث عنها .

ففى أثناء هذا الاطلاع العام تكونت فكرة أخذت تزداد ثبوتا على مدى البحث — تلك هى أنه فى كل العصور لم يتوصل الى النتائج الحاسمة فى الحروب الا متى كان الاقتراب الاستراتيجى اقترابا غير مباشر . وبعبارة أخرى انه فيما يختص بالاستراتيجية كلما كان الطريق طويلا ملتويا كان الوصول الى الغرض أقرب .

وقد أثبت الواقع المرة بعد المرة أن الاقتراب المباشر سواء أكان من غرض عقلى يقصده الانسان بتفكيره ، أم من غرض مادى بأن يحصل الاقتراب على طول ” خط الانتظار الطبيعى “ من وجهة نظر الخصم (أى الخط الذى يتوقع الخصم أن يتبعه المقرب) . كان من شأنه أن يؤدي ، بل وقد أدى فعلا ، الى نتائج سلبية . والسبب فى ذلك قد عبر عنه نابليون بصورة واضحة فى قوله المأثور ” ان نسبة القوة المعنوية الى القوة المادية كنسبة ثلاثة الى واحد “ . وقد يعبر عنه بطريقة علمية بأن يقال بينما ان قوة أى بلاد معادية تتحصر مظاهرها

في عدد سكان هذه البلاد وفي مواردها الا أن عدد السكان والموارد يتوقفان بصفة أساسية على درجة استقرار أى "توازن" السيطرة ، والقوة الأدبية ، وكفاية المؤن واللوازم . فسكان البلاد ، والموارد ليست الا بمثابة اللحم الذى يكسو الهيكل العظمى والأعصاب .

فإن التحرك على طول الخط المنتظر بطبيعة الحال ، أى على طول خط الانتظار الطبيعى معناه توطيد توازن الحصم ، واعطاء هذا التوازن صلابة معناه زيادة قوة مقاومته . ففي الحرب ، كما فى المصارعة ، محاولة المرء القاء خصمه على الأرض قبل زحزحة مواطئ قدميه واخلال توازنه لا تؤدي الا الى انهك قوة المرء بنسبة عكسية لما يحدثه على الحصم من التأثير . واحراز النصر بمثل هذه الطريقة لا يتيسر الا اذا كان المرء متفوقا فى القوة بدرجة كبيرة جدا فى أى صورة من صورها (أى القوة) . وحتى حينذاك يبقى النصر عرضة لثلاثا يكون حاسما . وعلى العكس من ذلك فإن مراجعة التاريخ الحربى ، لا فى فترة واحدة من فتراته بل مراجعته بأجمعه تدل على أن الواقع هو أن فى كل حملة من الحملات الحربية الحاسمة كانت زحزحة توازن العدو من الوجهتين النفسية والمادية هى المقدمة الحيوية للمحاولة الناجحة فى التغلب عليه . وأن هذه الزحزحة قد حصلت كنتيجة لاقتراب استراتيجى غير مباشر ، مقصودا كان أو عرضيا . وهى قد تكون على أشكال متنوعة كما يظهر من تحليلاتنا . لأن استراتيجية الاقتراب غير المباشر تشمل — ولكنها أوسع من " المناورة على المؤخرة " *Manoeuvre sur les derriére* التى دلت الأبحاث المستفيضة التى قام بها الجنرال " كامون " على أنها كانت مطمئح أنظار نابليون دائما ومفتاح طريقته فى ادارة العمليات . ففى حين أن أبحاث " كامون " قامت على مبادئ التحركات اللوجستية (نسبة الى طريقة حسابية خاصة تسمى طريقة القياس الستينى) — عواملها الزمان ، والمسافة ، والمواصلات — فإن تحليلاتنا ترمى الى التعمق فى البحث وراء الأسس التى يقوم عليها علم النفس . وهى بذلك تجد علاقة أساسية بين كثير من العمليات الاستراتيجية التى لا تشبه فى ظواهرها " المناورة على المؤخرة " فى شىء . ولكننا بالرغم من ذلك أمثلة حيوية قطعية " لاستراتيجية الاقتراب غير المباشر " .

واستقصاء هذه العلاقة وتحديد نوع العمليات لا يستلزم ، بل ولا يدخل فى موضوعه وضع جداول تبين القوى العددية ، وتفصيلات التموين باللوازم ووسائل النقل . فإن كل ما يهمنا انما هو بيان النتائج التاريخية فى سلسلة شاملة من الحالات . ومعها التحركات التى أدت اليها سواء منها القائم على الحساب (القياس اللوجستى) أو على دراسة علم النفس .

فاذا تبين أن النتائج المتشابهة تأتى على أثر التحركات المتشابهة فى ظروف وأحوال تختلف اختلافا كبيرا فى نوعها ونطاقها وتاريخها . فمن الجلى اذ ذاك أن هناك اتصالا أساسيا بينها نستطيع منه بحكم المنطق أن نستدج سببا مشتركا بينها . وكلما زادت الظروف اختلافا كلما تأكد الاستنتاج .

على أن قيمة الغرض المقصود من سعة الاطلاع على شؤون الحرب لا تنتهى عند البحث عن عقيدة حقيقية جديدة . واذا كانت سعة الاطلاع أساسا جوهريا لكل نظرية تتعلق بالحرب ، فهي ضرورية أيضا للطالب الحربى العادى الذى يبحث عن توسيع دائرة آماله ومقدرته على الحكم فى الأمور . وبخلاف ذلك فان معرفته تكون أشبه بهرم منعكس قائم على قمته الدقيقة فيبقى متزعزع التوازن . فالطالب فى جامعة لا يصل الى أبحاث الطالب المتخرج الا بعد أن يلم الماسما عاما بعلم التاريخ بصفته طالبا فى مدرسة ابتدائية ، وبعد ذلك يتوسع فى معلوماته بصفته طالبا تحت التخرج بدراسة المظاهر الدستورية والاقتصادية ، ثم دراسة تواريخ أزمان خاصة . ومع ذلك فان الطالب الحربى الذى يأتى عادة الى موضوع دراسته متأخرا بعد أن يصبح عقله أقل مرونة مما كان فى عهد الشباب ينتظر منه أن يبدأ الدراسة فى نقطة تعادل أبحاث خريج الجامعة . فهذا الموقف الغريب ونتائجه فى بعض الأحيان مما يعيدان الى الذاكرة تلك الأسطر الشعرية الواردة فى قصة ” أليس فى أرض العجائب “.

وهاك تعرييها على وجه التقريب :

” صاحب الشاب قائلا : أيها الأب ” ولم “ لقد صرت شيخا وشعرك قد أضاءه المشيب
فصار ناصع البياض ومع ذلك فانك تقف دائما على رأسك فهل تظن أنك مصيب فى ذلك
وأنت فى هذه السن ؟ “ .

الباب الثانى

حروب الاغريق

ايبامينونداس ، وفيليب ، والاسكندر

النقطة التى تصلح أكثر من غيرها بطبيعة الحال لبدء البحث والتنقيب هى أول "حرب عظمى" فى التاريخ الأوروبى ، وهى "الحرب الفارسية العظمى" . وليس لنا أن نتوقع كثيرا من الارشاد فى عصر كانت فيه الاستراتيجية فى طفولتها ولكن اسم "ماراثون" قد نقش على أذهان ومخيلات قراء التاريخ نقشا عميقا لا يتسنى معه اغفال هذا الاسم . وكان نقشه على مخيلة الاغريق أعمق ومن ثم تغالوا فى أهميتها . وعنهم أخذ الأوربيون وتداولوها فى الأعصر اللاحقة . ومع ذلك فإن انقاص أهميتها الى درجة أقرب الى الانصاف يزيد من قيمتها الاستراتيجية . فان غزو الفرس فى سنة ٤٩٠ ق.م كان عبارة عن تجريدة صغيرة نسبيا وكان القصد منها لقاء درس على كل من "ايرتريا" و "أثينا" ، وهما ولايتان صغيرتان فى نظر "داريوس" (دارا ملك الفرس) وفى الحقيقة . وهذا الدرس هو ألا يتدخل فى لا يعنهما وأن يكفيا عن تشجيع العصيان بين رعية الفرس من اغريق آسيا الصغرى .

فدمرت "ايرتريا" على الوجه المرغوب وأبعد سكانها للتوطن على الخليج الفارسى . وبعد ذلك جاء دور "أثينا" حيث كان معلوما أن الحزب الديمقراطى المتطرف يترث لیساعد تدخل الفرس ضد حزب المحافظين ثم ان الفرس بدلا من أن يزحفوا رأسا على "أثينا" أنزلوا جنودهم الى البر فى "ماراثون" التى تقع على مسافة ٢٤ ميلا شمالى شرق "أثينا" . ومن ثم كان فى استطاعتهم أن يعولوا على استدراج الجيش الأثينى نحوهم وبذا يسهلون لأتباعهم القبض على مراكز القوة فى "أثينا" . فى حين أن الهجوم المباشر على المدينة كان لا بد أن يعيق هذه الثورة . بل وربما كان يتسبب عنه انضمام الثائرين الى أعدائهم فيواجهون مشقة اقامة الحصار علاوة على مشقة القتال على أية حال .

وقد نفعت هذه الحيلة ونجح الجيش الأثينى قاصدا "ماراثون" لملاقاة الكتلة الرئيسية من قوات عدوهم المسلحة . وهذا يطابق العقيدة الحربية الحديثة تمام المطابقة . على أنه لسوء حظ الفرس كان شعور بعض أتباعهم الديمقراطيين الموجودين فى "أثينا" قد تغير . ولكنهم بالرغم من ذلك شرعوا فى تنفيذ الخطوة التالية من خطتهم الاستراتيجية . فأعادوا اركاب بقية جيشهم السفن تحت حماية قوة سائرة ، ليحولوه الى "فاليريوم" وهناك ينزلونه الى البر ثم يثبون على أثينا وهى مجردة من الحراسة .

على أن "الأثينيين" بفضل ما بذله "مليادس" من الهمّة رأوا أن يتنهبوا الفرصة الوحيدة التي أمامهم بمهاجمة القوة الساترة في الحال . فنشبت المعركة بين الفريقين وكان لتفوق أسلحة الاغريق ودروعهم — وكانوا يمتازون بهما دائماً على الفرس — مع تكتيكاتهم الحديثة الفضل في انالتهن النصر . ولو أن القتال كان أشد مما ترويه أساطيرهم الوطنية . وأن معظم القوة الساترة قد رجعت بسلام الى السفن . ثم ان "الأثينيين" أظهروا همة فوق تلك الهمّة وأسرعوا بسير مضاد لسير الفرس راجعين الى المدينة . وكان الفضل في نجاحهم راجعاً الى هذه السرعة وتباطؤ الحزب المنشق عليهم . لأن الفرس بقوا وقتاً طويلاً أكثر مما يلزم متظرين ظهور اشارة الترس المتفق عليها . ولكن لما عاد الجيش الاثيني الى "أثينا" ورأى الفرس أن لا بد من محاصرتها أفلعوا بسفنهم عائدين الى قارة آسيا لأن الغرض التأديبي المحض لا يستحق الشراء بثمن باهظ .

وانقضت بعد ذلك عشر سنين قبل أن يحاول الفرس محاولة جديدة لالقاء هذا الدرس مرة أخرى والتشدد فيه . غير أن الاغريق تباطأوا في الاعتاض بهذا النذير ولم تشرع "أثينا" في توسيع أسطولها البحري الا في سنة ٤٨٧ ق.م. ذلك الأسطول الذي كان مقدراً له أن يكون القوة الحاسمة في الحملة المقبلة . وعلى ذلك فيمكن القول بحق أن كلا من بلاد اليونان وأوروبا قد نجتا بسبب وقوع العصيان في مصر فانه شغل بال الفرس من سنة ٤٨٦ الى سنة ٤٨٤ ق.م. ووفاة "داريوس" الذي كان فذاً في قدرته بين ملوك الفرس .

ولما ازداد التهديد وتطور في سنة ٤٨١ وكان هذه المرة في نطاق واسع وكانت جسامته سبباً لا في ائتلاف الأحزاب والولايات الاغريقية وتألبها على الفرس لحسب ، ولكنه اضطر الملك "أكروسيس" لأن يقترب من غرضه اقتراباً مباشراً . لأن عظم جيشه حال دون نقله بطريق البحر ولذلك اضطر لسلوك طريق البر ، كما كانت كثرتة تحول دون تموينه نفسه فاستخدم الأسطول لتموينه . فكان الجيش ملازماً للسواحل بحكم الضرورة وكان الأسطول ملازماً للجيش — أي ان كلا الجيش والبحرية كانت مقيدة . وعلى ذلك أمكن الاغريق أن يتأكدوا من الخط المنتظر أن يسلكه العدو في اقترابه . وكان الفرس لا يستطيعون التحول عنه . وأوجدت طبيعة البلاد للاغريق سلسلة من النقاط يستطيعون بها سد خط الاقتراب الطبيعي سدا محكماً . وكما قال "جراندى" لولا تشعب مصالحهم وتناقضها وتشتت آرائهم (لكان من المحتمل أن الغزاة يعجزون عجزاً تاماً عن تجاوز "ثرموبيله" جنوباً) . فالذى حصل هو أن التاريخ اكتسب قصة صارت أبدية . وألقيت على عاتق الأسطول الاغريق مهمة زحزحة الغزو زحزحة لا عودة له بعدها بأن هزمت أسطول الفرس في معركة "سلاميس" — بينما كانت "أكروسيس" وجيش الفرس يشاهدان تدمير الأسطول الذي فضلاً عن كونه أسطولهم فانه كان عليه المعول في تموينهم . ومما يستحق التنويه أن الفرصة التي أمكنت من

شوب هذه المعركة البحرية أوجدتها صورة أخرى من الاقتراب غير المباشر . هي رسالة "ثيمستوكل" الى "أكزرسيس" بأن الأسطول الاغريقى على استعداد للحيانة والتسليم . وهذه الخدعة التى استدرجت الأسطول الفارسى الى دخول البوغاز الضيق الذى جعل كثرة العددية لا صبرة لها ولا نفع ، نفعت بسبب السوابق التى تقدمتها بجعلتها تقبل التصديق . وفضلا عن ذلك فان الذى أوقف الفرس عن التدخل فى شئون بلاد اليونان فيما بعد طول مدة السبعين سنة التى أعقبت هذه المعركة انما هى قوة الاقتراب غير المباشر من مواصلات الفرس أنفسهم التى تمكنت "أثينا" منها واستخدمتها فعلا ، وهذا الاستنتاج أثبته اثباتا لا شك فيه ، عودة ذلك التدخل فى الحال على أثر تدمير الأسطول "الأثينى" فى معركة "سرقسطه" (سيركوزا) .

وما هو جدير بالملاحظة من الوجهة التاريخية أن استخدام خفة الحركة الاستراتيجية للاقتراب غير المباشر قد برز الى حيز الوجود وانتفع به فى الحروب البحرية قبل الانتفاع به فى الحروب البرية بزمان طويل . والسبب الطبيعى فى ذلك هو أن الجيوش لم تعول على "خطوط المواصلات" لتموينها الا بعد أن تدرجت فى عدة مراحل من التطور والرقى .

أما الأساطيل فكانت تستخدم ضد المواصلات البحرية ، أى وسائل تموين البلاد المحاربة . ولما ثبتت هذه الفكرة صار من الطبيعى تطبيقها كوسيلة لغاية بحرية . أى وسيلة لغاية "حربية" فوق ظهر البحر .

وبعد زوال تهديد الفرس كانت عاقبة معركة "سلاميس" ارتفاع "أثينا" الى المقام الأول فى الشئون الاغريقية . وهذا المركز السامى انتهى وانقضى بحرب "البلوبونيز" (فى سنة ٤٣١ - ٤٠٤ ق . م) على أن استمرار هذه الحروب الطاحنة مدة سبع وعشرين سنة ، وفضاعة ما تكبدته البلاد من الخسائر لا بلاد المتحاربين الرئيسيين فقط ، بل البلاد السينة الحظ ، التى كانت فى حكم المحايدة أيضا كان السبب فيه استراتيجية التردد والاضطراب التى لا طائل تحتها التى كان كلا الفريقين يتدهورانها حيناً بعد حين .

ففى الطور الأول حاولت "سبارتا" وحلفاؤها غزو "أثينا" غزوا مباشرا . على أن سياسة "بيركلى" الحربية قد خيبتها . وهى السياسة المنطوية على اجتناب المعارك البرية واستخدام الجيش "الأثينى" المتفوق فى انهاء ارادة العدو واضعافها بغارات السطو والتخريب . وقد استعملنا هذا الاسم الاصطلاحي "السياسة الحربية" قصدا وان كانت عبارة "الاستراتيجية البيركالية" أصبحت فيما بعد مشهورة كمشهرة "الاستراتيجية الفابية" لأن الأسماء الفنية الواضحة التحديد جوهرية للفكرة الواضحة . واسم "الاستراتيجية" الاصطلاحي مقصور على مدلوله الحرفى الذى هو "التميادة" — أى ادارة القوات الحربية ادارة فعلية تميزها له عن السياسة التى

يتقيد بها استخدام هذه القوات وتشارك معها أسلحة أخرى - اقتصادية ، وسياسية ، وبسيكولوجية (أى خاصة بعلم النفس) . وهذه السياسة قد ابتكرها اسم اصطلاحى هو "الاستراتيجية العظمى" على أن هذا الاسم وإن كان ملائماً فإن مدلوله ليس سهل الفهم ومن ثم فأنى بالرغم من استصوابى اسم "الاستراتيجية العظمى" الذى استعملته فى كل مكان آخر ، سأستعمل هنا اسم "السياسة الحربية" بما أن التحليل والترتيب هما الغرضان الرئيسيان من هذا البحث التاريخى . فالخطة "البيروكلية" كانت مجرد سياسة حربية ترمى تدريجيا الى استنفاد صبر العدو وجلده حتى يدخل فى روعه ويقنع أنه يستحيل عليه الحصول على البت والحسم ، بدلا عن أن تكون استراتيجيته اقتراب غير مباشر ترمى الى زحزحة موازنة العدو لكى تحدث حسما . ولسوء الحظ دخل وباء من الخارج شالت معه كفة "أثينا" فى هذه الحملة الأدبية والاقتصادية التى كانت ترمى الى انهك العدو . ولذلك ففى سنة ٤٢٦ ق.م . زالت الاستراتيجية البيروكلية وحلت محلها الاستراتيجية التعرضية المباشرة التى اتبعها كل من "كليون" و "ديموستين" . وهذه الاستراتيجية كانت أكثر كلفة من سابقتها ولم تكن أكثر منها نجاحا بالرغم من بعض أعمال تكتيكية باهرة كلت بالنجاح .

وفى أوائل شتاء سنة ٤٢٤ ق.م . جاء "براسيداس" وهو أقدر جندى عرفته "سپارتا" ومحا كل ما كانت "أثينا" قد أحرزته من المزايا بشق الأنفس . وذلك بحركة استراتيجية وجهت الى جذر قوة العدو بدلا من جزعها . فتمز "بأثينا" نفسها دون أن يسمها بسوء وسار مسرعا نحو الشمال مجتازا بلاد اليونان طولا وأعرضا ضربته بمستعمرة "أثينا" فى "خالسيدس" التى كانت تسمى بحق "نقطة الضعف فى الأباطورية الأثينية" وبأشراكه القوة العسكرية مع وعد أعطاه لكل المدن التى كانت نائرة على "أثينا" بمنحها حريتها وحمايتها زعزع قوة "أثينا" فيها حتى استدراج اليها القوات الأثينية الرئيسية . فترلت بها كارثة فى "أمفيبولس" ومات "كليون" ولكن "براسيداس" نفسه سقط قتيلًا فى لحظة الانتصار . ومع كل ذلك رضيت "أثينا" عن طيبة خاطر أن تعقد صلحا سلبيا مع "سپارتا" - كانت فيه أقل حزما من قائدها العظمى .

وفى سنين الصلح الاسمى التى أعقبت ذلك قامت أثينا بعدة تجريدات لاسترداد مركزها فى "خالسيدس" ولكنها أخفقت فيها كلها . فعمدت الى تجريدة أرسلتها ضد "سرقسطه" كآخر أمل تعرضى لديها "وسرقسطه" هى مفتاح "سيسيليا" التى هى مورد تموين "سپارتا" و"البلوبونيز" بوجه عام عن طريق البحر . وهذه الحركة بصفتها سياسة حربية لا اقتراب غير مباشر كانت خاطئة فى انزال الضربة ، لا بشركاء المدو الحقيقين ، بل بعملائه التجاريين فنشأ عن ذلك أنها بدلا من تشتيت قوات العدو ، ألبت على نفسها قوات جديدة .

على أنه بالرغم من ذلك كان من الممكن أن نتائج النجاح الأدبية والاقتصادية قد تغير كل توازن الحرب لو لم تقع سلسلة من الأخطاء في تنفيذ هذه السياسة ، يكاد لا يكون لها مثيل أولها أن "السيادس" واضع الخطة استدعى من قيادته المشتركة بسبب دسائس أعدائه السياسيين . فبدلاً من رجوعه الى "أئينا" ليحاكم على تهمة اهانة المقدسات ، ويحكم عليه حكماً محققاً بالاعدام ، فزالي "سبارتا" ونصح العدو بالكيفية التي بها يحبط الخطة التي كان هو واضعها . ثم ان "نيسياس" الذي كان معارضا لهذه الخطة أشد معارضة بقى متوليا القيادة لينفذها . فبدلاً من تنفيذها سار بها الى مواطن التلف بعناده الأثرق .

ولما فقدت "أئينا" جيشها في "سرقسطه" انتقت الهزيمة في بلادها باستخدام أسطولها فاستمرت الحروب البحرية على أثر ذلك مدة تسع سنين أوشكت فيها "أئينا" أن تصل لا الى عقد صلح فيه ميزات لها فحسب ، بل الى استرجاع إمبراطوريتها .

على أن الأميرال "ليساندر" الأسبارتي خيب آمالها في سنة ٤٠٥ ق.م . بما يشبه التمثيل المسرحي . وقد ورد عنه في كتاب "التاريخ العتيق لكيمبردج" أن "خطته في هذه الحملة كانت تجنب القتال مع انهاء الأئينيين الى آخر درجة بمهاجمة إمبراطوريتهم في أضعف نقطتها" فالعبارة الأولى من هذه الحملة لا تنطبق على الحقيقة تماماً . لأن خطته لم تكن الاندفاع الى المعركة بقدر ما هي اقتراب منها اقتراباً غير مباشر حتى تبقى لديه الفرصة لأن تكون الميزة في جانبه فلا يدخل المعركة حتى تتوافر لديه هذه الميزة . فأخذ يغير خط سيره تغييراً يشف عن مهارة ودهاء حتى وصل الى مدخل الدردنيل وهناك بقى مترصداً ينتظر قدوم سفن الغلال الآتية من آسيا الصغرى في طريقها الى "أئينا" . "ولما كان تموين "أئينا" بالغلال مسألة حياة" فان القواد الأئينيين "أسرعوا بكامل أسطولهم المؤلف من ١٨٠ سفينة لحراسة سفن الغلال" وبقوا أربعة أيام متوالية يحاولون استدراج "ليساندر" الى معركة فلم يفلحوا في حين كان هو يشجعهم بكل الوسائل على الظن أنهم قد سدوا في وجهه الطريق . أما هم فبدلاً من رجوعهم الى ميناء "سستوس" الآمنة ليجددوا مؤتهم فيها فانهم بقوا في البوغاز المكشوف في "إجوسپوتاموى" أمامه . وفي اليوم الخامس حينما نزل السواد الأعظم من رجال السفن الى البر لجمع الطعام ، خرج "ليساندر" على حين بقاء واستولى على كل الأسطول بوجه التقريب دون أن يضرب ضربة واحدة . وبذا "أنهى أطول الحروب في ساعة واحدة من الزمن" .

ومجمل القول هو أنه في هذا النضال الذي دام سبعة وعشرين سنة كان الفشل نصيب الاقتراب المباشر في عشرينات من المرات وكان ينتهى عادة بأضرار تلحق الذين قاموا به . وأن كفة "براسيداس" في هذا النضال رجحت كفة "أئينا" نهائياً بحركته التي وجهها الى "خالسيدس" التي هي "جذر" "أئينا" وأن أقوى ما كان من الأمل في استرجاع "أئينا"

مكاتها كان فيما قام به "آسبيادس" من الاقتراب غير المباشر — في مستوى الاستراتيجية العظمى — من جذر "سپارتا" الاقتصادية في "سپاسيا" ثم ان الخبرة القاضية التي جاءت بعد أن استطل أمد الحرب عشرين سنين أخرى ، كانت باقتراب غير مباشر في البحر هو في ذاته نتيجة اقتراب جديد غير مباشر في الاستراتيجية العظمى . لأن مما يجب ذكره هو أن هذه الفرصة أوجدها تهديد خطوط مواصلات الأثينيين "القومية" — فان "ليساندر" باتخاذ غرضاً اقتصادياً جاز له أن يأمل أن يستنفد قوتهم على أقل تقدير . ولما يهيج هائجهم ويستولى عليهم الخوف يبق في مقدوره أن يهيئ ظروفًا تسهل فيها المفاجأة ، كما حصل فعلاً ، وبهذه الوسيلة يحرز حسمًا عسكرياً سريعاً .

أما الطور التالي في التاريخ الاغريق فكان حلوله مع سقوط الأبراطورية الأثينية وقيام "سپارتا" على رأس بلاد اليونان . وبناء على ذلك فليسؤال الثاني هو عن العامل الحاسم في القضاء على زعامة "سپارتا" والجواب هو : رجل وما أداه لعلم وفن الحرب . ولكن في السنين التي سبقت قيام "إيپامينونداس" مباشرة كانت "طيبة" قد تخلصت من حكم "سپارتا" بالطريقة التي عرفت فيما بعد باسم "الفابيه" (نسبة الى موجدتها فاييوس) وهي تجنب المعارك — وهي سياسة حربية تنطوي على الاقتراب غير المباشر ولكنها استراتيجية تهرب — بينما كانت جيوش "سپارتا" تنتقل في بلاد "بويوتيا" ولا يعترضها أحد . فهذه الطريقة أكسبتهم وقتاً أوجدوا فيه قوة محترفة من نخبة الجنود اشتهرت باسم الجوقة المقدسة صارت فيما بعد في مقدمة كل جنودهم . ولكن الوقت الذي تواجد كان فرصة لانتشار الشقاق بينهم ، "ولأثينا" بعد أن استراحت من الضغط عليها برا أن توجه فيها كل مجهودها ومواردها من الرجال الى اعادة احياء أسطولها . ففي سنة ٣٧٤ رأى الاتحاد الأثيني الذي كانت طيبة داخله فيه أن "سپارتا" راضية عن منحه صلحاً ذا مزايا . ومع أن هذا الصالح لم يدم طويلاً بسبب قيام "أثينا" بمغامرة بحرية فان مؤتمراً جديداً للصلح عقد بعد ذلك بثلاث سنين وكان الأثينيون اذ ذاك قد ملوا الحروب . وفي هذا المؤتمر استردت "سپارتا" كثيراً مما أضاعته في ميادين الحرب ونجحت في فصل طيبة عن حلفائها . وعلى أثر ذلك قامت "سپارتا" على طيبة لتسحقها . ومع أن جيشها كان متفوقاً على جيش طيبة بحكم التقاليد تفوقاً في الكم والنوع (كان الأول يتألف من ١٠٠٠٠ والثاني من ٦٠٠٠) فان الجيش الاسبارتي لما زحف الى داخل "بويوتيا" لاقاه جيش طيبة الجديد، الذي يعد مثالا للجيش ، في "ايوكترا" وهزمه هزيمة حاسمة . وكان جيش طيبة تحت قيادة "إيپامينونداس" الذي قد تصحح تسميته أعرق عبقرى في التاريخ الحربي . فهو لم يشذ عن الطرائق التكتيكية التي قامت على تجارب الأجيال ويخرج عنها خروجاً بعيداً فحسب ، بل انه وضع أسس التكتيك ، والاستراتيجية ، والاستراتيجية العظمى كلها ، التي بنى عليها أساتذة الفن الذين أتوا بعده . حتى ان أشكاله

الانشائية ما زالت باقية الى الان أو انها تجددت واستعيدت . فان ” الترتيب المائل “ في التكتيك الذى حاز شهرته على يد ” فردريك “ ان هو الا تعديل بسيط لطريقة ” ايامينونداس “ وهى قد نشأت فى معركة ” ليوكترا “ حينما عكس ” ايامينونداس “ العادة المتبعة ولم يضع على جناحه الأيسر أحسن جنوده فحسب بل وضع أكثرهم . ثم أخر قلبه وميخته الضعيفين وأخذ يوجد تفوقا ساحقا على أحد جناحي العدو — وهو الجناح الموجود به قائده الذى يجعله مفتاح ارادة الخصم .

وبعد معركة ” ليوكترا “ بسنة واحدة قاد ” ايامينونداس “ قوات الاتحاد ” الاركادى “ وسار بها الى ” سبارتا “ بالذات التى لم تطأها قدم عدو قبل ذلك الحين . وهذا السير الذى نفذ الى قلب شبه جزيرة ” الوبونيز “ التى هى ملك ” لاسبارتا “ لا ينازعها فيه منازع كان ممتازا بكونه اقترابا غير مباشر من عدة أوجه . فقد حصل فى فصل الشتاء ، وبثلاثة قولات كل منها منفصل عن الآخرين لتتلاقى كلها فيما بعد . وبذا ” تنشئت “ أفكار القوات المقومة ويرتبك اتجاهها .

وهذا وحده يكاد يكون فريدا فى بابهِ فى حروب الأزمنة الغابرة بل وفى الحروب التى سبقت الحروب النابليونية . على أن ” ايامينونداس “ كان بعيد مرمى النظر الاستراتيجى الى درجة أكبر من ذلك . اذ بعد أن تجمعت قوته فى ” كارييه “ التى هى قبل ” سبارتا “ بمسافة ٢٠ ميلا تسلسل بها دائرا حول العاصمة ثم زحف عليها من الخلف . فهذه الحركة كانت تنطوى على ميزة أخرى مدبرة هى تمكين الغزاة من تعزيز قوتهم بأفواج كبيرة من أرقاء الفلاحين وغيرهم من العناصر المنشقة فيضمونها اليهم . على أن الاسبارتيين بالرغم من ذلك وقفوا الى وقف هذه الحركة الداخلية الخطرة بأن وعدوا هذه العناصر بمنحها حريتها مدفوعين الى ذلك بحكم الضرورة الماسة . ثم ان ورود امدادات قوية الى ” سبارتا “ من حلفائها ” الوبونيزيين “ خيب الأمل فى سقوط المدينة من غير محاصرتها . فتبين ” لايامينونداس “ فى الحال ان استدراج الاسبارتيين الى الأرض الفضاء أمر متعذر ، وأن الحصار اذا طال أمره يكون سببا فى تدهور عدد جنوده الذين لم يكونوا متجانسين . وبناء على ذلك ضرب صفحا عن السلاح الاستراتيجى الذى أصبح كليلا واستعاض عنه بسلاح أحد منه وأكثر دهاء — هو سياسة حربية باقتراب غير مباشر ، أى استراتيجية عظمى حقا . فما كان منه الا أن أسس مدينة فى جبل ” ايثوم “ الذى هو قلعة طبيعية فى ” مسينا “ وجعلها عاصمة لدولة ” مسينا الجديدة “ ووطن فيها كل العناصر الثائرة التى كانت انضمت اليه ثم وهبها الغنائم التى كان غنمها أثناء غزوه . فأصبحت هذه الدولة الحديثة حاجزا أمام ” سبارتا “ وقوة توازنها فى جنوب بلاد اليونان . ولما توطدت وثبتت فقدت ” سبارتا “ نصف أراضيها وأكثر من نصف أرقاء فلاحها . ولما أسس ” ميغالوبولس “ بعد ذلك فى ” أركاديا “ وجعلها حاجزا آخر أصبحت

”سپارتا“ محصورة سياسيا من جهة، وداخل سلسلة من القلاع من الجهة الأخرى فانفصلت عنها جذورها الاقتصادية التي كانت تغذى تفوقها الحربي . ولما بارح ”ايامينونداس“ بلاد البلوونيز بعد الحملة الحربية التي دامت بضعة أشهر لاغير كان لم يكتسب نصرا عسكريا . ولكن كانت سياسته الحربية قد زعزعت أسس قوة ”سپارتا“ تماما .

غير أن رجال طيبة السياسيين كانوا يريدون نجاحا عسكريا مدمرا وقد أغضبهم عدم الحصول على ما أرادوا . وأعقب ذلك عزل ”ايامينونداس“ ولو الى حين . فكان عزله مجلبة لضياح المزاي التي كسبها لها . وذلك بقصر نظر السياسة التي اتبعتها ديموقراطية طيبة وما وقعت فيه من الأخطاء . وبذا أصبح في مقدور حلفاء طيبة الاركاڊيين أن ينازعوها الزعامة بعد أن دفعهم الغرور والطمع الى نكران الجمل . وفي سنة ٣٦٢ أرغمت طيبة على الخيار بين أحد أمرين : اما تأييد سلطتها بالقوة . واما تضحية نفوذها . فلما تحركت ضد ”أركاڊيا“ انقسمت دول اليونان من جديد الى كتلتين مؤتلفتين . ولحسن حظ طيبة كان ”ايامينونداس“ حاضرا لخدمتها وليس ذلك فحسب . بل كانت هناك ثمار استراتيجية العظمى — فان ”مسينا“ و”ميغالوبولس“ اللتين أوجدهما من العدم ساهمتا لاخراجه فقط . بل كانتا قوة في جانب طيبة . فسار ”ايامينونداس“ الى داخل البلوونيز والتقى بحلفائه البلوونيزيين في ”تيجيه“ فأصبح بين ”سپارتا“ والقوات الرئيسية للحلفاء المعادين لطيبة التي كانت قد احتشدت في ”مانتينيه“ . أما الاسبارتيون فانهم ساروا على طريق ملتف ليأحقوا بحلفائهم . فسا كان من ”ايامينونداس“ إلا أن وثب على ”سپارتا“ نفسها ليلا يقول طيار على حين بقاء . ولم يحل بينه وبين غرضه إلا أن أحد الفارين أذّن الاسبارتيين في وقت كاف فأسرعوا راجعين الى مدينتهم . وعند ذلك صمم على أن يشترك في معركة ينال فيها الحسم . وزحف من ”تيجيه“ على ”مانتينيه“ التي تبعد نحو ١٢ ميلا على طول واد يشبه زجاجة الساعة في شكله . وكان العدو متخذا موقعا قويا في »الوسط« الذي كان اتساعه ميلا واحدا .

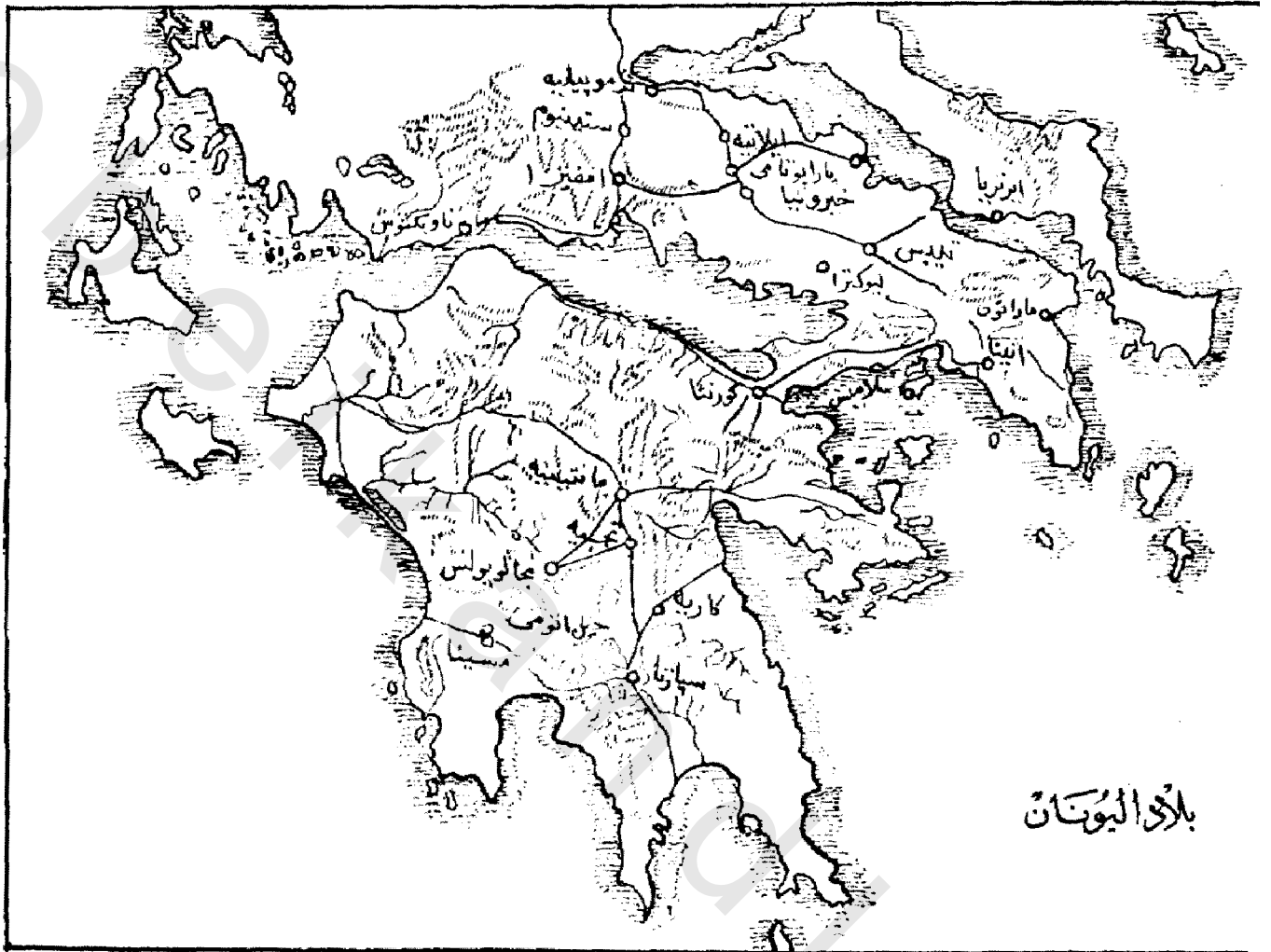
وحينما زحف صرنا على الخط أي الحد الفاصل بين الاستراتيجية والتكتيك . على أن الفصل بين الاستراتيجية والتكتيك في هذه الحالة فصلا تحكما يعد خطأ ، خصوصا وأن الأسباب المباشرة لانتصاره كانت في اقترابه من العدو حتى يتصل به فعلا ، اقترابا غير مباشر . ففى بادئ الأمر سار ”ايامينونداس“ نحو معسكر العدو مباشرة ، فاضطره الى الاصطفاف للقتال متجها نحو خط اقترابه — وهو خط الانتظار الطبيعي . ولكن بعد أن تقدم عدة أميال غير اتجاهه بقاء الى اليسار ثم دار الى الداخل تحت هضبة بارزة . فهذه المناورة الفجائية هددت ميمنة العدو بضرب جانبي . ولكي يزيد زحزحة أوضاع قتال العدو ، وقف وأمر جنوده بالقاء السلاح على الأرض كما لو كانوا يتأهبون لنصب المعسكر . وقد نجحت هذه الخدعة . فان العدو أغرى على التراخي في مصف قتاله وأتاح للجنود ترك الصفوف ونزع الأبلجة من الخيول .

وفي نفس الوقت كان "ايامينونداس" يكمل أوضاع قتاله فعلا — وكانت تشبه أوضاع معركة "ليوكترا" ولكنها أرقى منها — وراء ستار من الجنود الخفيفة . وبعد ذلك أعطيت إشارة الى الجيش الطبي فالتقط أسلحته واندفع نحو العدو — الى نصر سبق ضمائه بزحمة موازنة العدو . ولكن لسوء الحظ سقط "ايامينونداس" نفسه قتيلا في لحظة الانتصار . وقد كان موته درسا للأجيال اللاحقة ليس هو أقل الدروس التي تلقتها عنه . اذ أثبت اثباتا مسرحيا مقنعا أن أسرع ما يكون سقوط الجيش أو الدولة إنما هو بشلل يصيب المخ .

وجاءت الحملة الحاسمة التالية بعد ذلك بما ينوف على عشرين سنة . وهي الحملة التي مكنت "مقدونيا" من الزعامة اليونانية . ومما يزيد أهمية هذه الحملة ما انتهت اليه من النتائج الخطيرة . فهي مثال يبين كيف تستطيع السياسة والاستراتيجية مساعدة احدهما الأخرى . ثم كيف تستطيع الاستراتيجية قلب الموانع الطبوغرافية وتحويلها من عيوب تعترضها الى مزايا تنتفع بها . والمتحدى في هذه الحملة وان كان هو نفسه إغريقيا الا أنه كان «أجنيا» في حين أن "طيبة" و"أثينا" اتحدتا لتوجدا حلفا للجامعة اليونانية لمقاومة قوة "فيليب" المقدوني الآخذة في الازدياد بموازرة أجنبي هو أحد ملوك الفرس — وفي ذلك من الغرابة ما فيه من وجهة التاريخ العتيق والطبيعة البشرية . وهنا أيضا نجد أن المتحدى هو الذي أدرك قيمة الاقتراب غير المباشر . حتى ان العلة التي تعمل بها في مساعده لنيل الزعامة كانت هي أيضا غير مباشرة . فان المجلس الانفكتيوني (مجلس ملي يوناني) استدعاه ليساعد في معاقبة "امفيزا"، في "بويوتيا الغربية" على جناية اهانة المقدسات . ومن المحتمل أن فيليب نفسه هو الذي أوعز بهذه الدعوة التي تآلب عليه من جرائها كل من "طيبة" و"أثينا" . ولكنه كان متأكدا من الترام الدول الأخرى الحياد المقرون بالعطف على أقل تقدير .

فبعد أن سار "فيليب" متجها نحو الجنوب تحول فجأة في "سيتينيوم" عن الطريق المؤدية الى "امفيزا" — أى خط الانتظار الطبيعي واحتل "ايلاتيه" ثم حصنها . وهو تغيير مبدئي دل على ما يرمى اليه من التوسع في الأغراض السياسية ولكنه يشف أيضا عن غرض استراتيجي تؤيده هذه الحادثة . أما الطيبون والبويوتيون فانهم سدوا الممرين المؤديين الى "بويوتيا" . الطريق الغربي الموصل من "سيتينيوم" الى "امفيزا" والممر الشرقي وهو ممر "باراپوتامي" الموصل من "ايلاتيه" الى "خارونيه" . أما الطريق الأول فيصح تشبيهه بالشرطة العليا من حرف I والطريق من "سيتينيوم" الى "ايلاتيه" يشبه الشرطة السفلى . والامتداد القاطع للممر الى "خارونيه" يشبه الشرطة الصغيرة التي ينتهي بها الحرف من الشرطة السفلى .

ثم ان "فيليب" قبل أن يبدأ بحركة عسكرية أخرى اتخذ التدابير ليزيد معارضيه ضعفا ، من الوجهة السياسية بأن عضد اعادة الجاليات الفوشية ، التي كان الطيبون قد شتوها ، الى أماكنها . ومن الوجهة الأدبية بأن حرص على المناداة به نصيرا لاله "دلفي" .



وبعد ذلك وثب وثبة بخائية في ربيع سنة ٣٣٨ ق. م . بعد أن مهد طريقه بخدعة . ذلك أن باحتلاله "إيلاتيه" كان قد حوّل التفات العدو من الواجهة الاستراتيجية نحو الطريق الشرقى — الذى هو الآن خط الانتظار الطبيعى — ثم انه حوّل التفات القوة التى سدت الطريق الغربى، من الواجهة التكتيكية، بأن دبر كتابا تكلم فيه عن عودته سريعا الى "طراقية" وجعله يقع فى يد هذه القوة . وبعد ذلك تحرك من "سيتينيوم" بسرعة واجتاز الممر ليليا ثم خرج فى قلب "بويوتيا" الغربية فى "امفيزا". وتمادى فى السير حتى وصل الى "ناوپكتوس" وفيها فتح مواصلاته عن طريق البحر . فأصبح والحالة هذه وراء المدافعين عن الممر الشرقى وإن كان بعيدا عنهم . أما هم فلما رأوا ذلك رجعوا متقهقرين من "پاراپوتامى" . لاجوفا من قطع خط رجعتهم اذا هم بقوا فى مكانهم فحسب ، ولكن أيضا لأن بقاءهم فيه ليس له قيمة ظاهرة . على أن فيليب تحوّل مرة أخرى عن خط الانتظار وقام باقترب آخر غير مباشر . فانه بدلا من أن يتماذى فى الضغط نحو الشرق من "امفيزا" مجتازا البلاد الجبلية التى تساعد على المقاومة، حوّل جيشه ورجع به مجتازا "سيتينيوم" و"إيلاتيه" ثم دار نحو الجنوب مجتازا ممر "پاراپوتامى" الذى أصبح الآن بغير حراسة وانقض على جيش العدو فى "خارونيه" . فكان انتصاره التكتيكي نتيجة طبيعية وتأسست الزعامة المقدونية فى بلاد اليونان .

على أن الأجل وافاه قبل أن يصل بهذه الزعامة الى آسيا وكان من نصيب ابنه اسكندر أن يخرج الحملة التى نواها والده من حيز الفكر الى حيز الوجود . ولم يقتصر ماورثه الاسكندر عن والده على خطة وآلة تعد نموذجا — هو الجيش الذى رقاد فيليب — فحسب . بل ورث أيضا فكرة الاستراتيجية العظمى . وهناك ميراث آخر له قيمة مادية لا تتركز هو امتلاك رؤوس جصور (كبارى) الدردنيل التى حصل الاستيلاء عليها بارشاد فيليب فى سنة ٣٣٦ ق. م . ولو أننا درسنا خريطة تبين زحف الاسكندر لوجدناها عبارة عن سلسلة من خطوط منكسرة حادة الزوايا . ودراسة تاريخ هذه التعاريج تبين أن لها أسبابا أبعد غورا من الحساب اللوجستى (الخاص بحركات الجيوش وتموينها) . نعم ان الاستراتيجية اللوجستية هى استراتيجية مباشرة لاداء فيها . والسبب فى ذلك على ما يظهر هو أولا أن الاسكندر فى شبابه وبحكم تربيته فى أبهة الملك كان نموذجا للبطل الهوميرى (نسبة الى هومير الشاعر المشهور) أكثر من غيره من كبار قادة التاريخ . وربما زاد على ذلك أنه كان يثق من تفوق آله (أى جيشه) ، ويحق له ذلك، ومن مقدرته على خوض غمار المعارك به الى درجة أنه لم يجد نفسه فى حاجة الى البدء بزحمة موازنة خصمه الاستراتيجية . أما ماتركه للأجيال اللاحقة من الدروس فينحصر فى شيئين هما السياسة الحربية والتكتيك .

فقد ابتدأ من الشاطئ الشرقى لبوغاز الدردنيل بالتحرك جنوبا وهزم الجنود الفارسية الساترة التي كانت على نهر "الجرانسيكوس" حيث كان العدو يقدر حق التقدير أنه اذا تمكن من الاحتشاد أمام الاسكندر الذى تجاوز حد الجراءة وقتله فانه يشل حركة الغزو فى منشأها . ولكنه أخفق فى ذلك بشئ يسير .

وبعد ذلك تحرك جنوبا قاصدا "سارديس" بصفتها مفتاح "ليديا" السياسى والاقتصادى . ومن ثم تحرك غربا الى "ايفيسوس" وأعاد الى تلك المدائن الاغريقية حكوماتها وحقوقها الديموقراطية كوسيلة يؤمن بها خط رجعتة بأفضل الطرق الاقتصادية .

وكان الآن قد عاد الى شاطئ البحر الايغى "شرق البحر الأبيض المتوسط" فاتخذ سبيله الى الجنوب أولا ثم اتجه شرقا على طول الشاطئ مارا "بكاريا" ، "وليسيا" ، "يوبامفيليا" . وهو فى اقترابه جعل غرضه زحزة حاكية الفرس عن البحر بحرمان الأسطول الفارسى من حرية الحركة فيه وذلك بحرمانه من قواعده البحرية . وفى نفس الوقت فانه بتحريره هذه الموانى يحرم أسطول العدو من كثير من موارد رجاله الذين كانوا يجندون منها .

أما فيما وراء "يوبامفيليا" فكان باقى خط سواحل آسيا الصغرى مجردا فعلا من الموانى . ولذلك فانه اتجه الآن الى الشمال ثانيا حتى "فريجيا" وشرقا حتى "انقسيرا" (أقرا الحديثة) مواطدا مراكزه ومؤمنا خط رجعتة فى وسط آسيا الصغرى . وبعد ذلك اتجه نحو الجنوب مجتازا "بوابات" "سليسيا" على الطريق المؤدى الى "سوريا" . مباشرة حيث كان "داريوس" (دارا) يحشد جنوده لمقاومته . وهناك نظرا لعجز خدمة الاستعلامات (المخابرات) عنده ، وافترضه أن الفرس ينتظرونه فى السهول ، تفوق الفرس على الاسكندر فى المناورات الاستراتيجية . فبينما قام الاسكندر باقتراب مباشر قام "داريوس" باقتراب غير مباشر وبعد أن تحركوا على أعلى نهر الفرات اجتازوا البوابات "الأمانيكية" وانقضوا على مؤخرة الاسكندر . فوجد الاسكندر نفسه منقطعا عن سلسلة قواعده مع أنه كان حريصا على سلامتها . على أنه عاد فرجع وخلص نفسه فى معركة "ايسوس" بتفوقه التكتيكى وآلته التكتيكية . واستخدم الاقتراب غير المباشر فى تكتيكاته أكثر من أى قائد من كبار القادة . وبعد ذلك عاد واتخذ طريقا غير مباشر منحدرًا على ساحل سوريا بدلا من تماديهِ فى السير الى بابل التى هى قلب الدولة الفارسية . وكان ذلك طبقا لأصول الاستراتيجية العظمى لأنه وإن كان قد زحزح حاكية الفرس على البحر إلا أنه لم يكن قد أبادها بعد . وما دامت باقية فلا يبعد أن تكون وسيلة للاقتراب من خط رجعتة اقترابا غير مباشر . وهنا صارت بلاد اليونان وخصوصا "أثينا" فى قلق شديد . ثم ان زحفه فى قلب "فينيقيا" شتت الأسطول الفارسى وما تبقى منه كان أغلبه فينيقيا . فقد أتى له القسم الأعظم منه مستسلما . أما القسم الصورى فقد أخذ فى سقوط مدينة "صور" . وحتى فى ذلك الحين عاد فتحرك نحو الجنوب ودخل مصر . وهى حركة صعبة التفسير لأسباب بحرية ، الا اذا كان الباعث عليها زيادة الحيلة . على أنها

مفهومة في ضوء أغراضه السياسية التي هي احتلال الإمبراطورية الفارسية وتوطيد إمبراطوريته مكانها . فمن هذه الوجهة كان في احتلال مصر ميزة اقتصادية عظيمة . وأخيرا عاد فساد نحو الشمال مرة أخرى الى حلب ومنها اتجه شرقا واقترب اقترابا مباشرا من الجيش الحديث الذي جمعه داربوس بالقرب من الموصل . وهنا برهن الاسكندر وجيشه مرة أخرى في "جوجاميل" على تفوقهم تماما على جيش هو في اعتبار أقل العوائق التي تعترض الاسكندر في طريقه الى غايته التي يرمى اليها في "استراتيجيته العظمى" . وأعقب ذلك احتلال "بابل" . أما حملات الاسكندر التالية التي كللت بالنجاح الى أن وصل الى حدود الهند فكانت من الوجهة العسكرية بمثابة "تشطيب" الإمبراطورية الفارسية . وان كانت من الوجهة السياسية توطيدا لإمبراطوريته . على أنه اجتاز غصبا المضيق "الأوكسياني" وبوابات بلاد الفرس باقتراب غير مباشر ولما لاقاه "بوراس" (أمير وعاهل هندي) على نهر "الهداسبس" أظهر من الخدعة متبهاها ، جاءت برهانا ساطعا على مبلغ ما كان له من المقدرة الاستراتيجية . وهي أنه خزن غلالا في أماكن متفرقة على طول الشاطئ الغربي لهذا النهر ووزع عليها جيشه فغافل خصمه حتى غم عليه ما يتوهمه الاسكندر . ثم أخذت فرسان الاسكندر تسير ذهابا وجيئة بجلبة وضوضاء حتى ارتاع لها "بوراس" في بادئ الأمر . ولكنها لما استمرت على ذلك مرارا وتكرارا تضائل أمرها في فكره بحكم الاعتياد وسكن اليها واستنام لها . وبعد أن استقر "بوراس" على هذه الحالة ترك الاسكندر السواد الأعظم من جيشه أمامه (بوراس) ثم عبر النهر هو بنفسه على مسافة ١٨ ميلا صعودا على مجراه . وبمفاجأته بهذا الاقتراب غير المباشر أخل توازنه العقلي والأدبي ، وتوازن جيشه الأدبي والجسماني . وهذه الوسيلة تمكن الاسكندر بجزء من جيشه أن يهزم كل أعدائه بوجه التقريب ، في المعركة التي نشبت على أثر هذه الحركة . فلولا هذه القافلة التي حصلت على المنوال السالف الذكر ، لما كان هناك مبرر يبرر تعريض الاسكندر لجزء صغير من جيشه للهزيمة وهو منفصل عن بقية الجيش ، سواء من الوجهة النظرية أو من الوجهة العملية .

وفي الحروب الطويلة التي شنها "خلفاء" الاسكندر بعد موته ، وهي الحروب التي مزقت إمبراطوريته أمثلة عديدة للاقتراب غير المباشر لأن قواده كانوا أكفأ من مارشالية نابليون . ثم ان ما اكتسبوه من المراس أدى بهم الى ادراك المعنى الحقيقي للاقتصاد في القوة . ولكن مراعاة للانصاف قد اقتصر هذا التحليل على الحملات الحربية الحاسمة التي وقعت في التاريخ العتيق . فهذه الحروب ليس فيها ما يصح تسميته حاسما بصورة قطعية الا الحرب الأخيرة منها التي كانت في سنة ٢٠١ ق . م . فان حاسمتها لا نزاع فيها . لأنها بحسب ما جاء عنها في كتاب "التاريخ العتيق لكيمبردج" من القول الموزون كانت "خاتمة النضال بين القوة المركزية والعائلات الحاكمة" فأصبح "نقسيم العالم الأغريق — المقدوني أمرا لا مفر منه" .

فما حلت سنة ٣٠٢ ق . م . حتى أوشك "أنتيجونوس" المطالب بالحلول محل الاسكندر . أن يبلغ غايته في نهاية الامر التي هي ضمان الامبراطورية لنفسه . فانه بتوسعه في ضم البلاد ابتداء من ولايته الأصلية "فريجيا" أصبحت له السيطرة على "آسيا" من البحر الايحي الى نهر الفرات . وكان "سليوكس" في مقاومته له يجد صعوبة في محافظته على "بابل" . أما "بتولومي" (بطليموس) فانه خرج من الغنيمة بمصر لا غير . وأما "إليسيا كوس" فقد كان مركزه في "طراقية" أكثر توطيدا . ولكن "كاساندر" الذي هو أقوى القواد المنافسين "لأنتيجونوس" وعماد المقاومة لحلمه الذي كاد أن يتحقق كان قد طرده من بلاد اليونان "ديمتريوس" ابن "أنتيجولوس" الذي كان ثانيا لاسكندر في كثير من خصاله . وإذا كان "كاساندر" بصفته مؤسس "سلانيك" لا يلقي احتراما من الجنود البريطانيين فان استراتيجيته تدعو الى الإعجاب وان كان ذوقه على العكس لا يستحق إعجابا . فانه لما طلب منه التسليم بغير قيد ولا شرط رد على هذا الطلب بضربة استراتيجية عبقرية . وضعت خطتها في مؤتمر عقد مع "إليسيا كوس" وطلب العون فيها من "بتولومي" . بينما هو بدوره اتصل "بسليوكس" بأن كان يرأسه بواسطة رسل يسافرون فوق ظهور الابل عبر صحراء العرب .

فلم يبق "كاساندر" معه الا ٣١,٠٠٠ جندي ليلاقى بها غزو "ديمتريوس" "لثاليا" بجند بلغ عدده ٥٧,٠٠٠ — ثم أعار بقية جيشه "إليسيا كوس" . فقام هذا الأخير وعبر بوغاز "الدردنيل" بينما تحرك "سليوكس" غربا نحو آسيا الصغرى بجيش معه ٥٠٠ فيل من فيلة الحرب أتنه من الهند . ثم تحرك "بتولومي" شمالا الى "سوريا" ولكن لما بلغه خبر كاذب بأن "إليسيا كوس" قد انهزم عاد الى مصر . ومع ذلك فان الزحف الاق من الجانبين الى قلب امبراطورية "أنتيجونوس" ألجأه لأن يستدعى "ديمتريوس" من "ثاليا" على جناح السرعة حيث كان "كاساندر" قد نجح في إعاقة تقدمه وأوقفه أمامه الى أن كانت الحركة غير المباشرة الموجهة الى رجعته الاستراتيجية في آسيا الصغرى فاضطرته الى الرجوع — كما حصل في حركة "سبيو" فيما بعد التي كانت على مثل هذا الأساس فاضطرت "هانبال" للعودة الى أفريقيا . وفي معركة "أبوسوس" في ولاية "فريجيا" انتهت استراتيجية "كاساندر" بنصر تكتيكي حاسم كانت خاتمته موت "أنتيجونوس" وفرار "ديمتريوس" . ومما هو جدير بالذكر أن في هذه المعركة كانت أفيال الحرب هي الوسيلة الحاسمة . وبمناسبة ذلك كانت تكتيكات المتصر غير مباشرة في جوهرها . ففي بدء الحملة كانت كفة "أنتيجيوس" راجحة رجحانا تاما . ومن النادر انقلاب طالع الحرب من جانب الى آخر بهذه الكيفية . وسبب ذلك الذي لا شك فيه هو أن اقتراب "كاساندر" غير المباشر قد قلب موازنة "أنتيجونوس" رأسا على عقب . وذلك زعزع توازن "أنتيجيوس" العقلي وتوازن جنوده ورعاياه الأدبي ، وتوازن أوضاعه الحربية المادي .

الباب الثالث

حروب الرومان

هانيبال ، سيبيو ، وسيزار

والنضال التالى الذى كان حاسما فى نتاجه وفى أثره فى التاريخ الأوروبى هو النضال الذى قام بين روما وقرطاجنة . والفترة الحاسمة فيه كانت فترة الحرب الهانيبالية أى الحرب القارطاجية الثانية . وهى تنقسم الى عدة أطوار ، أى حملات حربية ، كل منها كان حاسما فى تحويل سير الحرب الى مجرى جديد . والأخير منها كان حاسما ليس للحرب بأجمعها فقط . بل فى تحويل كل مجرى التاريخ الأوروبى . فالطور الأول يبدأ بزحف هانيبال من أسبانيا متجها نحو جبال الألب وإيطاليا ، ويظهر أن خاتمته الطبيعية كانت النصر الساحق المبيد الذى تم فى "ترازيين" وترك روما ولا وقاية لها سوى أسوارها وحاميتها وهما معرضين لاقتراب هانيبال منهما مباشرة لو أنه اختار ذلك .

والسبب الذى يعزوه الجميع لاختيار هانيبال من بادئ الأمر لهذا الطريق البرى الملتف الشاق ، مفضلا إياه على الطريق البحرى المستقيم هو على ما يقال "سيادة البحر" المزعومة لروما . على أن من السخف تطبيق التفسير الحديث لهذه العبارة على عصر كانت فيه السفن فى حالتها الأولية وكانت مقدرتها على معارضة العدو فى عرض البحر والتصدى له أمرا مشكوكا فيه . بل حتى فى أيامنا هذه ما زالت مثل هذه "السيادة" مقيدة بحدود ظاهرة . وفوق ذلك فإن هناك دليلا ذا قيمة هو فقرة فى كتاب "بوليبوس" تلقى شيئا من الضوء على نفس ذلك العصر الذى وقعت فيه معركة "ترازيين" . اذ يقول مشيرا الى قلق مجلس السناتو الرومانى لئلا يتمكن القرطاجيون "من احراز سيادة على البحر أتم من سيادتهم الحالية" . وحتى فى المرحلة الختامية من الحرب بعد أن أحرز الرومانيون النصر عدة مرات فى البحر وحرموا الأسطول القرطاجى من كل قواعده الأساسية ، ثم استقروا فى أفريقيا كانوا عاجزين عن منع "ماجو" من انزال تجريدة حربية الى البر فى "رفيرة جنوا" ، أو الحيلولة دون افلاخ هانيبال فى سكون غاندا الى أفريقيا .

وأغلب الاحتمال على ما يظهر هو أن اتخذ هانيبال طريقا بريا لغزوه ، غير مباشر وملتزم ، كان بقصد تأليب أقوام "السلت" القاطنين بإيطاليا الشمالية على روما . ثم لابد لنا من ملاحظة عدم المباشرة ، أى صفة المداورة المتوفرة حتى فى هذا السير البرى من الوجهة الجغرافية

والمزايا الناشئة عنها. فان الرومان كانوا قد ارسلوا القنصل "بوليوس سبيو" والد "افريقانوس" الى "مرسيليا" قصد سد الطريق في وجه هانبال على نهر "الرون". مع أن هانبال لم يقتصر على عبور هذا النهر الهائل في مكان بعيد صعدا على مجراه ، على غير انتظار ، بل انه اتجه بعد ذلك متوغلا نحو الشمال أكثر مما كان يسلك الطريق المتطرف الشاق الكائن بوادي "الايذير" بدلا من الطرق الأخرى الكائنة "بالفييرا" التي هي أكثر استقامة ولكنها سهلة الايصاد. ولما وصل "سبيو" الى معبر النهر بعد ذلك بثلاثة أيام "اندشش لما علم أن العدو قد غادره لأنه كان مقتنعا أنه (أى العدو) يستحيل عليه أن يحازف بسلوك هذا الطريق الى داخل ايطاليا. فاتخذ قرارا عاجلا وأسرع بالحركة بعد أن ترك قسما من جيشه هناك ، وعاد الى ايطاليا بطريق البحر في الميعاد الذى يلتقى فيه بهانبال في سهول "لومبارديا" على أن هذه السهول كانت بها ميزة لهانبال للملائمة أراضيها لحركات فرسانه الذين كانوا متفوقين على عدوهم. وعلى أثر ذلك جاء النصر في معركتي نهري "التسينوس" و"التربيا" وكان لهما تأثير أدبي أدى الى امداد هانبال بالمجندين والمؤن "بكثرة عظيمة". ولما أصبح هانبال سيدا على ايطاليا الشمالية قضى فيها فصل الشتاء . وفي الربيع التالى سار القنصلان الجديدان بجيشيهما أحدهما الى "ارينوم" (رميني) على بحر الأدرياتيك ، والآخر الى "آريتيوم" (ارتزو) في "اتروريا" ليسبقا هانبال في زحفه المتمادى — وبذا تحكم أولهما في الطريق الشرقى والثانى في الطريق الغربى ، وهما الطريقتان اللذان يستطيع هانبال أن يسلكهما في زحفه نحو روما . وقرقرار هانبال على سلوك طريق "اتروريا" ولكنه بدلا من سلوك أحد الطرق المعتادة أخذ يستقصى استقصاء تاما "وتحقق من أن الطرق الأخرى المؤدية الى "اتروريا" طويلة ومعروفة جيدا لدى العدو. ولكن هناك واحدا منها قصيرا يخترق المستنقعات وهو يؤدي الى الاقضاءض على "فلامنيوس" بقاءة. وهذا هو الذى يوافق عبقريته الفذة فصمم على سلوك هذا الطريق. ولكن لما انتشر الخبر في جيشه أن القائد سيجتاز به المستنقعات داخل كل جنوده الفرع فاجنود العاديون يفضلون المعلوم على المجهول. أما هانبال فكان قائدا فوق المعتاد ومن ثم فانه حذا حذو كبار القادة واختار مواجهة أشد الظروف خطرا بدلا من الأمر المؤكد وهو ملاقات العدو في وضع يكون هو قد اختاره لنفسه .

فسار جيش هانبال أربعة أيام وثلاث ليال "في طريق ينمره الماء" متكبدا مشاقا مضنية من التعب وعدم النوم ، وخسائر كبيرة في الرجال وأكثر منها في الخيل . على أنه لما برز الى اليبس وجد الجيش الرومانى معسكرا في "آريتيوم" في حالة استسلام. أما هانبال فانه لم يحاول أن يهجم هجوما مباشرا بل انه كما قال "بوليبيوس" "قدر أنه اذا مر على المعسكر وهبط الى الجهة الواقعة وراءه فان "فلامنيوس" خشية من لوم الرأى العام من جهة ، وبدافع حنقه الشخصى من جهة أخرى لا يستطيع الصبر على رؤية الخراب يحل بالبلاد وهو لا يبدى حراكا فيقتفى أثره صائما مختارا" وهنا نجد تطبيقا عقليا للذاكرة على مؤخرة العدو. وهو تطبيق قائم على فحص دقيق

عما يتصف به العدو من الأخلاق . وقد اعتقه تنفيذ مادی . لان هانبال بعد أن أمعن في السير على طريق روما نصب ونفذ أعظم كمين عرفه التاريخ . ففى دغش فجر اليوم التالى بينما كان الجيش الرومانى مجدا في تعقبه على طول أطراف بحيرة "ترازيمين" المحفوفة بالتلال وقع في شرك نصب له من الأمام والخلف وأبید عن آخره . وقراء التاريخ كلهم يذكرون هذا الانتصار ولكنهم عرضة لأن يغفلوا الطعنة أو الضربة العقلية التي صيرته من الممكنات .

على أن "بوليبوس" وإن كانت تنقصه تجاربنا التي مارسناها أكثر من ألفى سنة واستفدنا منها فانه استخرج العبرة الصحيحة حيث قال : "لأن السفينة اذا جردتها من مديردفتها تسقط في يد العدو بكل نوتيتها . وكذلك الجيش في الحرب اذا تفوقت على فائده في الدهاء أو في المناورة فانه يسقط بأجمعه في يديك" .

والآن نقبل على الطور الثاني من الحرب . أما السبب في عدم سير هانبال الى روما عقب معركة "ترازيمين" فهو من خفايا التاريخ . وكل حل لهذا اللغز لا يخرج عن كونه مجرد تخمين . وكل ما هو معلوم بالتأكيد أن هانبال قضى السنين التي أعقبت هذه المعركة في محاولة قطع الصلات التي تربط ساطرة روما بحلفائها الايطاليين وادماجهم في ائتلاف يقوم ضدها . أما الانتصارات فكانت مجرد حافز أدبي يرمى الى هذه الغاية . فالمزايا التكتيكية مؤكدة له دائما متى أمكنه استدراج عدوه الى معركة في ظروف ملائمة لفرسانه المتفوقين .

وهذا الطور يتدئ بصورة رومانية ، للاقترب غير المباشر ، ومن الغريب أنها غير رومانية . وهي صورة أورثت التاريخ ، وما أعقبها من التقايد الذي كان الكثير منه رديئا ، عنوانا لضرب من الاستراتيجية يسمى "الاستراتيجية الغابية" . وإن كانت في الواقع سياسة حربية ، لا استراتيجية . فسياسة "فابيوس" الحربية لم تقتصر على تجنب المعارك لكسب الوقت ، ولكنها كانت تقاس بتأثيرها على قوة العدو الأدبية ، وبدرجة أكثر من ذلك على حلفائه المحتملين . فقد كانت اقترابا عسكريا غير مباشر يرمى الى غاية سياسية بدلا من غاية حربية . فإن "فابيوس" قد أدرك تفوق هانبال من الوجهة الحربية بدرجة لا يحازف معها بالاحتكام الى المعارك للفصل والبت . وهو في الحين الذي كان فيه يتحاشى ذلك كان يرمى الى انهاك صبر العدو وجلده بطريقة ونزاعا عسكريا ، وفي نفس الوقت يمنعه من تجديد قوته بالتجنيد من المدن الايطالية أو من قاعدته القرطاجية .

والحالة التي كانت تعتبر مفتاحا للاستراتيجية المنفذة لهذه السياسة الحربية هي أن الرومان ياترمون دائما التلال فيضيعون على هانبال ميزة تفوق فرسانه الذي لا شك فيه ويطلقون عملها . وعلى ذلك أصبح هذا الطرز عبارة عن مشادة بين هانبال وصور الاقتراب الغابي غير المباشر . ففي ذات مرة أفلح هانبال في استدراج أعدائه الى معركة في السهل أمام "كانه" وجاءت

نتيجتها مشبعة لشهية مجلس السناتو والقواد الذين هم أكثر ميلا للمعارك من "فابيوس" الى حد التضمة . أما فيما عدا هذه المعركة فان عزيمة روما التي لم تتحول عن استراتيجية التفادى من المعارك مهما كانت التضحية ، وظروف ذلك العصر ، وضعف هانبال نسبيا وموقفه بصفته غازيا — لبلاد كان تنظيمها ما يزال في حالة أولية — كل ذلك قد خيب آماله ومراميه . ولما قام "سيو" فيما بعد بمقابلة أعمال هانبال بالمثل وغزى قرطاجة غزوا مضادا، وجد في رقي النظام الاقتصادي القرطاجي وما بلغه من التطور عونا لمقاصده .

ويتهى الطور الثانى بطراز آخر من الاقتراب الاستراتيجى غير المباشر. وذلك حينما خدع القنصل "نيرو" هانبال الذى هو أستاذ الخداع وتسلى من أمامه وأسرع فى السير ، سيرا جبريا ، ثم حشد جنوده أمام "هزدروبال" "الشريك الحديد" الذى كان قد وصل فى ذلك الحين الى ايطاليا الشمالية بجيشه . وبعد أن أباده على نهر "المتاوورس" ، وأباد معه آمال هانبال فى النصر الأخير ، عاد بالثانى الى معسكره أمام هانبال قبل أن يدرك هانبال أن المعسكر كان خاليا . وبعد ذلك أصبح مركز هانبال فى ايطاليا فى منتهى الحرجة وسدت فى وجهه كل السبل (مثل الشاه فى لعبة الشطرنج فى حالة "مات ") — وهذا هو الطور الثالث . فبقى طوال خمس سنين فى ايطاليا الجنوبية لا يستطيع أن يتقدم من مكانه . وأخذ قواد الرومان يتبادلون قتاله على التوالى ويرتد الواحد منهم بعد الآخر وهو يضمد جراحه التى أصابته من جراء اقترابه من عرين الأسد اقترابا مباشرا .

غير أنه فى نفس ذلك الوقت كان "بوليوس سيو" الأصغر قد أرسل الى اسبانيا فى مغامرة شاقة ليأخذ ثأر الكارثة التى نزلت بوالده وعمه بعد موتها ويحافظ على مابقى لروما من مركز ضعيف فى القسم الشمالى — الشرقى من اسبانيا ازاء القوات القرطاجية المنتصرة المتفوقة تفوقا كبيرا فى تلك الجهة اذا أمكن ذلك . فاستطاع بسرعة حركاته ، وتفوق تكتيكاته ، ومهارة سياسته أن يحول غرضه الدفاعى الى حركات تعرضيه تنطوى على زحف غير مباشر على قرطاجة وهانبال . لان اسبانيا كانت قاعدة هانبال الاستراتيجية الحقيقية . ففىها كان يدرب جيوشه ومنها كان ينتظر المدد . فتمكن "سيو" بمهارته بالجمع بين المفاجأة والتوقيت من حرمان الجيوش القرطاجية من قرطاجة فى بادئ الأمر وهى قاعدتهم الرئيسية فى اسبانيا تمهيدا لحرمانهم من حلفائهم والتغلب على جيوشهم . ثم قفل راجعا الى ايطاليا وانتخب قنصلا فأصبح على استعداد للقيام للمرة الثانية بالاقتراب غير المباشر الحاسم الذى كان هياه فى عقله منذ زمن طويل ضد "مؤخرة" هانبال الاستراتيجية . وكان "فابيوس" قد تقدم فى السن وبلغ منه العقل منتهى القوة فنطق بالرأى الصائب حيث قال ان واجب "سيو" يقضى بمهاجمة هانبال فى ايطاليا وخاطبه قائلا : "لم لا تجعل هذه مهمتك وتصل بالحرب الى حيث يوجد هانبال بصورة شريفة لا عوج فيها بدلا من اللف والمداورة منتظرا أنك حينما تجتاز البحر الى أفريقيا يتبعك هانبال اليها . " أما سيو فانه نال من مجلس السناتو مجرد الاذن

بالعبور الى أفريقيا ولم يسمح له بتجنيد الجنود . بناء على ذلك شرع في تجريدته ومعه من الجند مالا يزيد عن ٧,٠٠٠ متطوع وفرقتان (ليجيونان) جردتا من الشرف وعوقبتا بالبقاء في خدمة الحامية بسيسليا لاشتراكهما في هزيمة ” كانه “ . وبنزوله الى البر الأفريقي لم يقابله سوى قوة الفرسان الوحيدة التي كانت لدى قرطاجنة وقتئذ . فتقهقر أمامها تدريجيا واستدرجها الى شرك نصبه لها فأبادها . وبذا لم يكتسب وقتا يوطد فيه مركزه فحسب ، بل أوجد تأثيرا أدبيا حض حكومته على تعصيده بسوء أكثر مما كان ، وأضعف سلطة قرطاجنة على حلفائها الأفريقيين من جهة أخرى ، ما عدا ” سيفاكس “ الذي كان في منتهى القوة .

وبعد ذلك التقي بقوة جندها العدو حديثا وكانت متفوقة عليه عددا بدرجة كبيرة ولكنها كانت مؤلفة من جنود ” هزدروبال “ الحديثة وجنود ” سيفاكس “ غير النظامية . فتقهقر ” سبيو “ الى شبه جزيرة صغيرة واستحكم في موقع حصنه ، هو النموذج الأصلي العتيق لخطوط ” طورس فدراس “ . وهناك تحايل على قائد الجيش الذي أحاطه وأدخل في روعهما الاطمئنان من ناحيته . ثم انه تظاهر بالاستعداد لركوب البحر قصد الزحف على ” يوتيكا “ ، وأخيرا قام بمناورة ليلا وهجم على معسكرى العدو . فكان لهذه المفاجأة من التأثير مازعزع قوة العدو المعنوية وأخل نظامه . وضاعف هذا التأثير ما دبره ” سبيو “ من الحيلة بتوجيه الهجوم الأولى الى معسكر ” سيفاكس “ الذي كان أقل نظاما من المعسكر الآخر . اذ كانت أكواخ معسكر ” سيفاكس “ منتشرة حتى طغت على حدود الموقع المحصن وكانت مصنوعة من القصب والحصر سريعة الالتهاب . ولما أضرمت النار في هذه الأكواخ ساد الاضطراب وعمت الفوضى فتمكن المهاجمون من دخول المعسكر الرئيسى في حين أن الالهب المتأجج دفع جنود هزوروبال القرطاجنيين لأن يفتحوا أبوابهم ويخرجوا منها كالسيل الجارف لانقاذ اخوانهم ظنا منهم أن الحريق حصل قضاء وقدرًا — لأن الرومانيين عند حلول الظلام التزموا الصمت والسكون فكان معسكرهم الذى يمتد الى مسافة سبعة أميال فى سكون تام . ولم يوجه ” سبيو “ هجومه الثانى الى معسكر القرطاجنيين الا بعد أن فتحوا أبوابهم بهذه الحيلة فتمكن من دخوله من غير كلفة شق ثغرة فيه .

واذا كنا فى هذا المقام قد تجاوزنا حدود الاستراتيجية الى التكتيك فى الظاهر ، فذلك لأن هذا النصر الساحق هو فى الحقيقة أعظم مثال فى التاريخ ، الا اذا استثنينا ” إيلردا “ (اسبانيا) حيث لم تقتصر الاستراتيجية على التمهيد للنصر فى معركة بل انها نفذته — اذ كان النصر فى الواقع عبارة عن آخر فصل فى الاقتراب الاستراتيجى . لأن المجزرة اتى لا مقاومة فيها ليست معركة .

أما "سيو" فانه لم يتحرك في الحال الى قرطاجة بعد أن انتصر من غير سفك دم . فما هو السبب ؟ اذا كان التاريخ لا يجيب على ذلك جوابا صريحا فانه يبين أسبابا للاستنتاج أكثر وضوحا من مسألة اهمال هانبال لروما بعد معركة "ترازيين" وبعد معركة "كانه" . فما لم تتواجد فرصة وأسباب ملائمة يبنى عليها الأمل باقتحام سريع فان الحصار أبعد كل العمليات الحربية عن الاقتصاد . والتاريخ يؤيد ذلك حتى الى سنة ١٩١٤-١٩١٨ وإذا كان العدو ما زال يملك جيشا بالميدان يستطيع التصدي بالحصار أيضا أشد خطرا لأن المهاجم تقل قوته فيه تدريجيا بالنسبة لعدوه الى أن يكلل الحصار بالنجاح .

أما "سيو" فكان عليه أن لا يحسب حساب أسوار قرطاجة فقط ، بل كان عليه أن يحسب حساب رجوع هانبال أيضا — فكان في الواقع يحسب حساب هذا الطارئ ويجعله نصيب عينيه . فإذا أمكنه أن يضطر قرطاجة الى التسليم قبل عودة هانبال كانت له من تسليحها ميزة كبرى . على أن ذلك لا بد أن يكون بزعة مقاومتها بوسائل أدبية لا تكلفه ثمنا غاليا . لا بوسائل مادية تكلفه بذل قوة قد يرى نفسه بعد بذلها أنه لا يزال أمام أسوار لا ثغرة فيها حينما يهبط هانبال على مؤخرته .

فبدلا من زحفه على قرطاجة أخذ ينقص في أطرافها التي كانت مورد مؤنها وحلفائها نقصا منظما . وفوق كل شيء كان فصل قسم من قوته لتعقب "سيفاكس" تعقبا لارحمة فيه والتغلب عليه عملا بررته الحوادث كل مبرر . لأنه بعد أن أعاد حليفه "ماسينيسا" الى عرش "نوميديا" ضمن لنفسه موردا للفرسان لمقابلة أحد سلاح لدى هانبال .

ولكن يشجع هذا التحريض الأدبي بهذه الأساليب زحف على تونس . على مرأى من قرطاجة ، "كوسيلة لها منتهى التأثير في القاء الرعب والفرع في قلوب القرطاجنيين" . فبإضافة هذه الوسيلة الى ما تقدمها من أشكال الضغط غير المباشر كانت كافية لزحزة قوة ارادة القرطاجنيين في المقاومة فتقدموا لطلب الصلح . على أنهم بينما كانوا في انتظار ارام الصلح في روما اذ أخل القرطاجنيون بالصلح الوقتي عند ما وصلت الأخبار الى قرطاجة بأن هانبال قد عاد وأنه نزل الى البر في "لبتس" . وبذا أصبح "سيو" في مركز حرج مخوف بالأخطار لأنه وان كان لم يضعف قوته باقتحام قرطاجة الا أنه كان سمح "لماسينيسا" بالرجوع الى "نوميديا" ليوطد مملكته الجديدة — بعد أن قبلت قرطاجة شروط الصلح التي وضعها "سيو" . ففي ظروف كهذه كان أمام أي قائد أصولي أن يتبع إحدى طريقتين : اما أن ينتهج خطة التعرض لمنع هانبال من الوصول الى قرطاجة . وإما أن ينتهج خطة الدفاع وينتظر المدد . على أن "سيو" بدلا من اتباعه إحدى هاتين الطريقتين سلك سبيلا لو نظر اليه من الوجهة الجغرافية لرؤى عجيبا . ذلك أنه اذا كان الطريق المستقيم الذي يسلكه هانبال من "لبتس" الى "قرطاجة" يرسم الجزء الأيمن من هذه العلامة (^) فان "سيو" بعد

أن ترك قسما من جنده بالقرب من قرطاجة ليحافظ على معسكره ، سار مبتعدا عنها سالكا سبيل الجزء الأيسر من هذه العلامة (٨) من أعلاه الى أسفله . وهو في الواقع أقصى أنواع الاقتراب غير المباشر . على أن هذا الطريق الذي هو طريق وادي " البجراداس " ، أوصله الى قلب الجهة التي هي المورد الرئيسي لتموين قرطاجة من داخلية بلادها . وقربه أيضا في كل خطوة كان يخطوها ، من الامدادات التوميدية التي كانت " ماسينيسا " آتيا له بها اجابة لالحاحه في طلبها منه . وهذه الحركة أدركت غرضها الاستراتيجي . فان مجلس السناتوبقرطاجة داخله الفرع لما علم بأخبار أعمال التخريب المتتالية في هذا الاقليم الحيوى فأرسل رسله لتلح على هانبال بأن يتصدى " لسيو " في الحال ويشتبك معه في معركة . ومع أن هانبال أجابهم بأن " يتركه وشأنه في هذا الأمر " إلا أن الظروف — التي أوجدها " سيو " — أبلغته الى التحرك غربا بسير جبرى للملاقاة " سيو " بدلا من التحرك شمالا الى قرطاجة . وبهذه الوسيلة استدرجه " سيو " الى ساحة اختارها ، حيث كان يتفحص هانبال المدد المادى من نقطة ثابتة يتخذها محورا لحركاته ، وملجا يلجا اليه في حالة الانكسار ، وهما ما كانا يتوافران لو ان المعركة نشبت بالقرب من قرطاجة . ومع ذلك فلم يكتف " سيو " بهذا التدبير . فانه قد اضطر خصمه لأن يسعى لدخول معركة بحكم الضرورة ، وأراد أن يستغل هذه الميزة الأدبية الى أقصى درجة . ولما اتصل به " ماسينيسا " ، وكان اتصالها في الوقت الذي وصل فيه هانبال بوجه القريب ، تفهقر " سيو " بدلا من أن يتقدم بخذب هانبال الى مكان يعسكر فيه كان خاليا من الماء فتكبد القرطاجينيون من قلة المياه ما تكبدوا . ثم استدرجه الى ميدان للمعركة في سهل صالح لأعمال الفرسان الذين انضموا حديثا الى سيو حيث يسع أمامهم المجال لاستغلال ميزتهم الى أبعد حد . فهو قد احتال بالخدعتين الأوليين ، ففى ميدان المعركة " زاما " (والأصح " نارا جارا ") تمكن من الغلبة بفضل تفوقه تكتيكيا بحيلة فرسانه على حيلة " فرسان " هانبال التي اشتهروا بها من قبل . ثم لما لحقت بهانبال الهزيمة التكتيكية لأول مرة تغلبت عليه أيضا نتائج هزيمته الاستراتيجية الابتدائية . فلم توجد قلعة قريبة منه يلجأ اليها الجيش المهزوم ويتجمع بها قبل أن تتيده المطاردة . وأعقب ذلك تسليم قرطاجة من غير سفك دماء .

خملة " زاما " قد صيرت روما الدولة التي لها السيادة على عالم البحر الأبيض المتوسط ثم ان اتساع هذه السيادة فيما بعد وتحولها الى حاكمية استمر دون أن يلقى عائقا ذا بال وان كان لا يخلو من تهديد كان يلقاه أحيانا . ولذلك فان سنة ٢٠٢ ق . م . تعتبر النهاية الطبيعية لبيان الانقلابات التي حصلت في التاريخ العتيق وأسبابها العسكرية . وأخيرا أخذ مد التوسع الرومان يتحول الى جزر . ثم قدر للامبراطورية العامة أن يعثرها التجزؤ بعضها تحت ضغط الأقوام البربرية . وأكثر منه بسبب الانحلال الداخلى .

وفي عصر "الانحطاط والسقوط" أثناء القرون التي كانت فيها أوروبا تبذل بشرتها ذات اللون الواحد وتستبدل بها بشرة جديدة ذات ألوان كثيرة توجد فائدة تكتسب من دراسة القيادة العسكرية . ففي بعض الأحيان تكتسب فوائد كثيرة . كما في حالة "بليزار يوس" وقادة الامبراطورية البيزنطية الذين أتوا بعده . ولكن بوجه العموم توجد صعوبات تحول دون بيان الحسم وايضاحه . كما أن غموض الانقلابات ، وعدم التأكد من الاستراتيجية المثمرة التي ترمى الى أغراض ، وعدم الاعتماد على الموارد المستقاة منها المعلومات ، كل هذه تحول دون إيجاد أساس للاستنتاجات العامة . على أن هناك حربا داخلية تستدعي لخصا ، قبل ختام مبحث الاستراتيجية العتية . وذلك بسبب أنها كانت مسرحا لأحد كبار قادة التاريخ من غير نزاع ولا جدال ، من جهة . ولأنها كانت ذات تأثير حيوى على مجرى التاريخ من جهة أخرى . لأنه كما أن الحرب القرطاجية الثانية أعطت الدنيا لروما . كذلك أعطت الحرب الأهلية التي وقعت في سنة ٥٠ الى سنة ٤٥ ق.م . العالم الرومانى "لسيزار" — وحكم القياصرة . فلما عبر "سيزار" نهر "الروبيكون" في ديسمبر سنة ٥٠ ق . م . كانت قوته تستند على بلاد "الجول" (الغلو) و"إيليريكام" . وكانت "ليومبي" السيطرة على ايطاليا وبقية الممتلكات الرومانية . وكان "لسيزار" تسعة (ليجيونات) فرق ولكن لم يكن معه منها في "رافنا" سوى واحدة . وكان "ليومبي" عشرة ليجيونات في ايطاليا . وسبعة في أسبانيا وأقسام كثيرة في بقية أنحاء الامبراطورية . على أن الفرق التي كانت في ايطاليا لم تزد عن مرتب الموجود مع (النسر) (أى الديارق أى تحت السلاح) — والفرقة الجاهزة كانت تعادل أكثر من فرقتين غير معبأتين (أى يمرتب أيام الحرب) . وقد وجه الانتقاد "لسيزار" لتهوره اذ تحرك نحو الجنوب بجزء ضئيل من جيشه . غير أن العنصرين الحيويين في الحرب أكثر من غيرهما هما الزمن والمفاجأة . وكان "سيزار" يقدرهما حق التقدير أما فيما عداهما فكانت استراتيجيته تسترشد في جوهرها بدرجة فهمه لعقاية "يومبي" .

فمن "رافنا" الى "روما" يوجد طريقان اختار "سيزار" أطولهما وأقلهما استفامة — هابطا على الساحل الادرياتيكي — ولكنه أسرع في حركته . وبمروره من هذه الجهة الآهلة بالسكان انضم اليه كثير من أفواج المجندين الذين كانوا يتجمعون "ليومبي" — كما حصل لنابليون في سنة ١٨١٥ . ولما تزلزلت القوة المعنوية في حزب "يومبي" هجر روما تاركا الخزينة العامة وتهقر الى "كابوا" في حين أن "سيزار" دخل بين قوات العدو الأمامية الموجودة في "كورفينيوم" وقوته الرئيسية الموجودة مع "يومبي" حول "لوسيريا" فنقل قوة أخرى الى جانبه من غير سفك دماء . وبعد ذلك استمر في زحفه جنوبا نحو "لوسيريا" واستمرت سرعته كما كانت . على أن زحفه صار الآن مباشرا ففرع العدو وتهقر الى ميناء "برونديزيوم" (برنديزى) المحصن في أسفل ايطاليا . فكان من النشاط الذى تعقبه به ان قر قرار "يومبي" على عجل لأن يجنز الادرياتيكي الى بلاد اليونان . وهكذا كان من نتائج تمادى "سيزار" في الاقتراب

المباشر وقلة الدهاء في الطور الثاني ، حرمانه من الفرصة التي كانت لديه لانتهاء الحرب بحملة واحدة والحكم على نفسه بقضاء أربع سنين أخرى في حروب طاحنة حول حوض البحر الأبيض المتوسط .

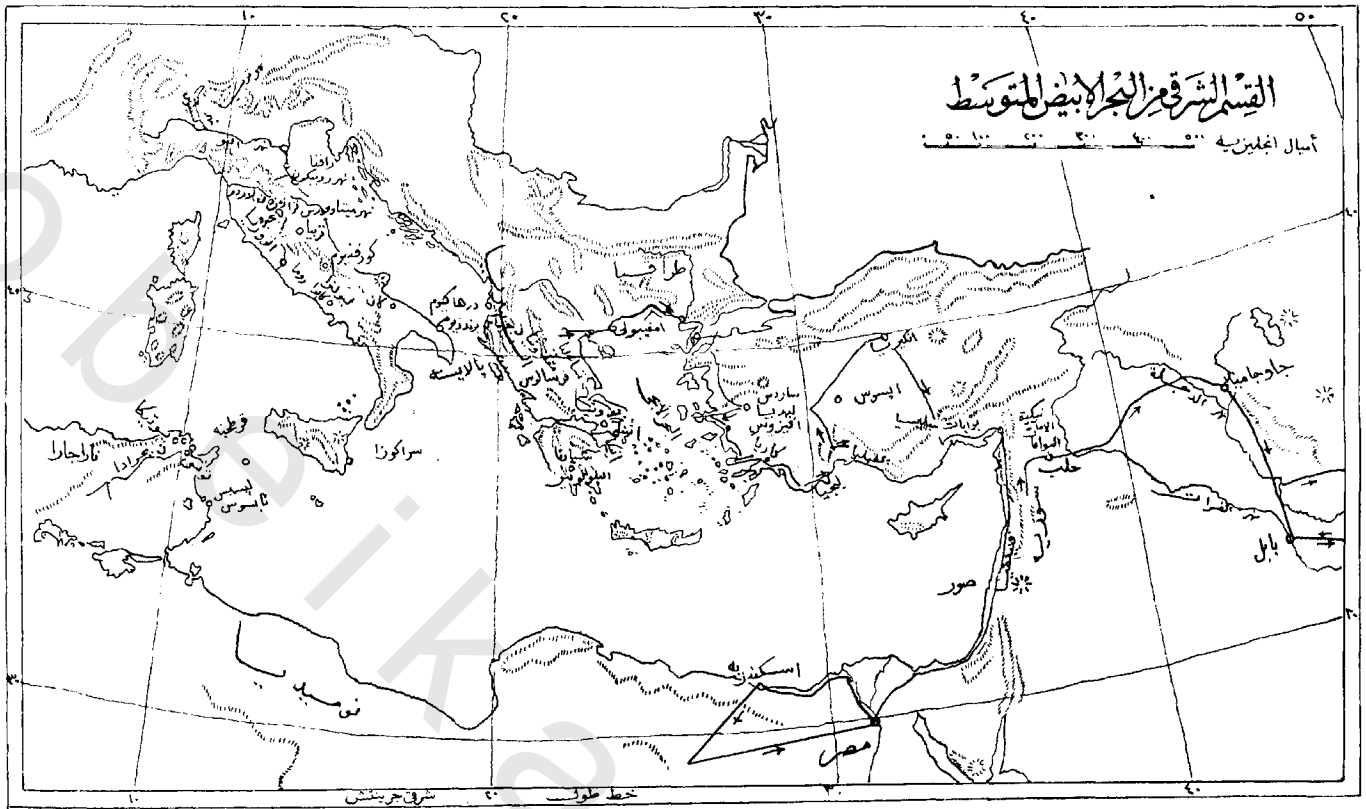
ثم افتتحت الحملة الثانية . وبدلاً من أن يقتفى "سيزار" أثر "يومبي" على خط مستقيم حول فكره وجنوده الى أسبانيا . وقد لاقى انتقاداً كثيراً لحشد قوته ازاء "الشريك الأصفر" بهذا الأسلوب على أن تقديره لدرجة جمود يومبي قد بررته هذه الحادثة . وفي هذه المرة تغالى "سيزار" في عدم التحفظ وزحف زحفاً مباشراً على قوات العدو الرئيسية في "إليردا" عبر جبال "البرينيس" فتمكن من اجتباب المعركة ، وخاب الاقتحام . ونجا سيزار من نزول كارثة به بتدخله شخصياً . على أن قوة جنوده المعنوية أخذت في النقص واستمرت تتناقص حتى عاد "سيزار" في الوقت الملائم وغير طريقة اقترابه . وبدلاً من ابداء أى محاولة أخرى كالتشدد في الحصار وجه كل مساعيه ومجهوداته لانشاء مخاضة صناعية مكنته من الحكم على كلا شاطئ نهر "سيكوريس" القائمة عليه "إليردا" فكان من شأن هذا التهديد الموجه الى تضيق الخناق على الموارد التي تستمد منها قادة "يومبي" مؤنهم أن حضهم على التفهق قبل فوات الأوان فتركهم "سيزار" يتسللون من غير أن يضغط عليهم ولكنه عوضاً عن ذلك بعث فرسانه من الجول ليقوا على مؤخرتهم فيؤخروا سيرهم . ثم انه بدلاً من أن يقتحم الجسر (الكوبرى) المحتل بحرس العدو الخلفى جازف بقيادة فرقة مجتازا بها المخاضة العميقة التي كانت معتبرة غير قابلة للغوص الا بالفرسان ثم سار على دورة واسعة أثناء الليل واعترض خط رجعة العدو . ولم يحاول دخول المعركة حتى في ذلك الحين بل اكتفى بأن يحول بين العدو واتخاذ خط رجعة جديد بأن استخدم فرسانه في مضايقته بينما كانت فرقه تتوغل في المسير . ثم كبح شوق رجاله للقتال وفي نفس الوقت شجعهم على التأخر مع رجال الفريق الآخر الذين أخذ منهم التعب والجوع ، وشبوط الهمم ، كل ماخذ . وأخيراً ، لما أرجعهم بحيلته في اتجاه "إليردا" واضطروهم الى اتخاذ موقع لا ماء فيه ، سلموا أنفسهم . فكان هذا نصراً استراتيجياً لم يسفك فيه دم غالب ولا مغلوب — وكلما قل عدد قتلى العدو ازداد عدد أتباع "سيزار" بينهم ومجنديه . وعلى الرغم من استبداله المناورات بالافتحام المباشر فان الحملة لم تكلفه من الوقت أكثر من سنة أسابيع ، ولكنه في الحملة التالية غير استراتيجيته فاستمرت ثمانية أشهر قبل أن يكال النصر لجنوده وحتى حينذاك لم يكن نصراً تاماً .

ثم ان "سيزار" بدلاً من أن يزحف الى داخلية بلاد اليونان بالطريق البرى غير المباشر بأن يجتاز "إيليريكوم" فقراره على سلوك الطريق المستقيم الذى هو طريق البحر . وبذلك اكتسب وقتاً في بادئ الأمر ولكنه خسره أخيراً . فان "يومبي" كان يملك من الأصل أسطولاً كبيراً ، أما "سيزار" فلم يكن له أسطول . ومع أنه أمر ببناء أسطول أو جمع سفن

في نطاق واسع فلم يتوافر لديه الا قسم من السفن . وبدلا من أن ينتظر ألقع بسفنه من ميناء برنديزي بقوة تكاد لا تبلغ نصف القوة التي جمعها . ولما نزل الى البر في "بالايست" تقدم صاعدا على الشاطئ قاصدا ميناء "ديراكيوم" الشهيرة ، ولكن "بومبي" سبقه اليها بزمن يسير ومن حسن حظ "سيزار" ان كان "بومبي" متباطئا كعادته فأضاع فرصة استخدام قوته المتفوقة قبل أن يتمكن "أنطونيو" ومعه النصف الآخر من جيش "سيزار" من الانضمام اليه بعد أن غافل أسطول العدو وأفلت منه . حتى بعد أن نزل "أنطونيو" الى البر في الجانب الآخر من "ديراكيوم" عجز "بومبي" عن منعه من الاتصال "بسيزار" في "تيرانا" مع أنه كان بينهما فتقهر "بومبي" وتبعه عدوه وعرض عليه دخول معركة من غير طائل . وبعد ذلك صمد الجيشان يواجه أحدهما الآخر على الشاطئ الجنوبي لنهر "الجنوسوس" الواقع جنوبي "ديراكيوم" فقام "سيزار" بسير دائر شاق لمسافة نحو ٤٥ ميلا مجتازا التلال حتى صار بين "ديراكيوم" و "بومبي" قبل أن يتقبط "بومبي" لهذه الحركة فعاد الى "ديراكيوم" مع أن المسافة بينه وبينها كانت لا تزيد عن ٢٥ ميلا على خط مستقيم . أما "سيزار" فانه لم يستغل الميزة التي كانت لديه . ولما كان "بومبي" يتمون من طريق البحر فلم يوجد محرض يحرض رجلا من معدنه لأن يهاجم "سيزار" وبعد ذلك اتخذ "سيزار" الطريقة الأصلية المجردة من الفائدة وهي طريقة انشاء خطوط طويلة يحاصر بها جيشا لا يفوق جيشه قوة فحسب ، بل في استطاعته تموين نفسه بسهولة . أو الرحيل بطريق البحر متى أراد .

حتى "بومبي" مع ما هو عليه من الجلود لم يستطع أن يترك الفرصة التي منحت له دون أن ينتهزها لا تزال ضرباته بالنقط الضعيفة الموجودة في مثل هذا الخط الرقيق . فنجح نجاحا أدى "بسيزار" لأن يقابله بمحشد جنوده والقيام بهجمة مضادة انتهت بأخفاق وكارثة . ولم يحل دون ابادة جنود "سيزار" الذين تزعزعت قوتهم المعنوية سوى عدم نشاط "بومبي" .

وأراد جنود "سيزار" أن يقودهم قائدهم مرة أخرى للقاء العدو ولكن "سيزار" كان قد تعلم درسا . وبعد أن رجع بسلام عاد الى استراتيجية الاقتراب غير المباشر . وسنحت الفرصة أيضا "لبومبي" ليستخدمها بأن يعبر الادرياتييك مرة أخرى ويستعيد سيطرته على ايطاليا اذ يكون الطريق ممهدا أمامه بفضل التأثير الأدبي الذي أحدثته هزيمة سيزار . وأدرك "سيزار" ما لهذه الحركة الغريبة من القيمة ، وما ينشأ عنها من الخطر . فأسرع بالحركة شرقا للملاقاة "سبوناسيكا" من قواد "بومبي" الموجود في مقدونيا . فأثرت حركته هذه على عقل "بومبي" فنبع "سيزار" واتخذ طريقا غير الذي سلكه "سيزار" فنجد "سبيو" . وقد وصل "سيزار" أولا ولكنه بدلا من أن يدفع جنوده الى الاستحكامات أتاح "لبومبي" أن يصل . فضياع هذه الفرصة بحسب الظواهر طبقا لقوانين الحرب قد يكون سببه ماعلق بذهن "سيزار" من أنه بعد الذي حصل في "ديراكيوم" لابد من محرض "قوى" يحرض "بومبي"



على قبول التزال في معركة في العراء . فاذا كان الأمر كذلك فقد أصاب لأن قواد "يومبي" وجدوا صعوبة في حظه على قبول المعركة مع أنه كان متفوقا عددا بنسبة واحد الى اثنين . وما كاد "سيزار" يهيئ سلسلة من المناورات ليوحد الفرصة حتى تقدم "يومبي" وهياها له في "فارسالوس" (فرسالة) فمن وجهة مصلحة "سيزار" كانت المعركة سابقة لأوانها من غير شك وذلك بنسبة قرب حصول النتيجة النهائية . لأن اقتراب "سيزار" اقترابا غير مباشر كان بنية استرجاع الموازنة الاستراتيجية فكان عليه أن يقترب اقترابا آخر لقلب موازنة "يومبي" رأسا على عقب . وهذا الاقتراب هو الذي قام به يومبي .

وبعد انتصار "سيزار" في "فارسالوس" طارد "يومبي" عبر بوغاز الدردنيل (أى الى الجانب الآخر منه) ومن خلال آسيا الصغرى . ومنها عبر البحر الأبيض المتوسط الى الاسكندرية حيث قتله "بطولومي" (بطليموس) غيلة وأراح منه "سيزار" . على أن "سيزار" أضعاف الفائدة بتدخله في النزاع القائم بين بطليموس وأخته كليوباترا من جراء عرش مصر فأضعاف بذلك ثمانية أشهر قضائها في حرب لا ضرورة لها مطلقا . والذي يلوح هو أن عيب "سيزار" المتأصل فيه الذي كان يعاوده كثيرا هو توجيه كل التفاته نحو الغرض الذي أمام عينه مباشرة واغفال الغرض الأبعد منه .

وهذه الفترة مكنت القوات اليومية من التجمع والشروع في حياة جديدة في أفريقيا وأسبانيا . أما في أفريقيا فقد ازدادت مصاعب "سيزار" بسبب "العمل المباشر" الذي كان نائبه "كورنيو" ألفه من قبل . فان (كورنيو) بعد أن نزل الى البر وفاز بالنصر الأول مكن الملك "جوبا" حليف حزب "يومبي" من استدراجه الى شرك نصبه له فأباده . وأما "سيزار" فانه افتتح حملته الأفريقية بنفس استقامة الاتجاه ، والاندفاع ، وعدم كفاية الجنود التي كان عليها في حملته الاغريقية . فكان يقع في الشرك كمعادته ويخلص نفسه بما اعتاده من حسن الحظ والمهارة التكتيكية معا . وبعد ذلك استقر في معسكر محصن بالقرب من "روسينا" في انتظار وصول فرقه (لجيوناته) الأخرى رافضا كل اغراء على دخول المعارك . وتملكته خلة حقن الدماء بالتمسك المناورات الى درجة أنه حتى بعد وصول المدد اليه كان يتبع استراتيجية تتطوى على اقتراب غير مباشر لدرجة متطرفة ضيقة الحدود . فكان يقوم بالمناورة عدة مرات لكي يوقع بخصمه ونحرا كونه الإبر ظهرت نتائجها في قوة العدو المعنوية بعدد الفارين من جيشه الذين كانوا يتدفقون تدفق السيل . وفي آخر الأمر اقترب من قاعدة العدو الكائنة في "نابسوس" اقترابا أكثر بعدا عن الاستقامة المباشرة فأوجد فرصة ملائمة للمعركة . فما كان من جنوده الا أن جمحوا فاندفعوا للهجوم وربحوا المعركة من تلقاء أنفسهم . أما في حملته الأسبانية التي جاءت بعد ذلك وكانت ختام الحرب فانه اجتهد من أول الأمر أن يتجنب ائتلاف الأنفس وكان لا ينقطع عن المناورات في حدود ضيقة حتى يجعل عدوه في وضع

يضمن له طالع المعركة . وقد فاز بذلك في "موندنا" ففاز بالنصر على أن ضيق مجال النضال وفداحة الحساب في الأنفس التي تكبدها في هذه المعركة بسببه تبين الفرق بين الاقتصاد في القوة ومجرد الحرص على القوة . فاقتراب "سيزار" غير المباشر يظهر عليه ضيق الحدود ، ونقص المفاجأة . ففي كل حملة من حملاته كان يتعب قوة العدو المعنوية ولكنه لا يزرعها . ويظهر أن السبب في ذلك هو أنه كان يوجه التفاته الى عقلية جنود العدو أكثر من توجيهه الى عقلية قائدهم . ولكن اذا كان من شأن حملاته أن تؤدي الى التمييز بين إحدى صفتي الاقتراب غير المباشر والأخرى — أى الاقتراب من جنود العدو ومن قائدهم — فانها تين أيضا بصورة بارزة الفرق بين الاقتراب المباشر ، والاقتراب غير المباشر . لأن "سيزار" كان يؤوب بالفشل في كل مرة يعتمد فيها على الاقتراب المباشر كما كان يصاح خطأه ويعوض الفشل في كل مرة يرجع فيها الى الاقتراب غير المباشر .

الباب الرابع

حروب القرون الوسطى

هذا الباب هو عبارة عن مجرد حلقة اتصال بين دورات التاريخ العتيق والتاريخ الحديث لأنه بالرغم مما في عدة من حملات الأعصر الوسطى الحربية من الاغراء والترغيب فإن المصادر التي نستمد منها معلوماتنا عنها أضعف بكثير من مصادر العصور التي تقدمتها والتي أعقبتها وأقل منها ثقة . والطريق الأمين لاستنتاج العلل ونتائجها في الحقائق العلمية هو أن تؤسس تحليلنا للتاريخ على حقائق ثابتة وتتجاوز عن بعض أزمنة حتى ولونضحى في هذا التجاوز بأدلة مؤيدة ذات قيمة ، متى قضت الضرورة بالاختيار بين أوجه النقد المتضاربة فيما يخص المصادر التاريخية أو المنصوص عنها في الكتب . نعم ان الجدل قد احتدمت سورتة في تفصيلات التاريخ الحربى للقرون الوسطى من الوجهة التكتيكية لا من الوجهة الاستراتيجية ، ولكن تضارب الآراء في هذا الموضوع وما أحدثه من الغموض قد يخفى كلا الوجهتين عن نظر الطالب الحربى العادى ويجعله في شك من الاستنتاجات المستخرجة عن ذلك العصر . غير أننا نشير إشارة طفيفة الى بعض الحوادث التي وقعت فيه كوسيلة لعرض ما قد تنطوى عليه من الفائدة ومما يستدعى الاهتمام . دون أن ندخلها في تحليلاتنا الدقيقة .

ففى الغرب فى إبان الأعصر الوسطى كانت الروح العسكرية فى عهد الاقطاعات "الفروسية" معادية للفن . على ان غباءها المطلق من الوجهة الحربية كان يتخلله شىء من الضوء الباهر . ربما كان لا يقل عن نسبة ما يتخلل أى عصر من عصور التاريخ .

فالنورمانيون سكان نورمانديا بدأوا بارسال أول اشعاع من بصيص النور ثم أخذ نسلهم يضئ سبيل حروب الأعصر الوسطى وسيروها بدلا من سفك دماهم . وعلى كل حال فان ما أعطوه لهذه الحروب من القيمة أدى بهم الى بذل عصارة أذهانهم بدلا من بذل دماهم وقد عاد عليهم ذلك بفائدة تذكر .

فالتاريخ الذى يعرفه كل ولد من أولاد المدارس ، ان لم يعرف غيره ، ألا وهو سنة ١٠٦٦ قد سطع فيه نورضرين من الاستراتيجية والتكتيك ، فيهما من المهارة بقدر ما كانت نتيجهما حاسمة لا بالنسبة لغرضها الخاص فقط ، بل كانت ذات أثر على كل مجرى التاريخ . فان غزو "وليم" لبلاد الانجليز قد استفاد من تحويل استراتيجى (أى ارباك العدو وإيقاعه فى حيرة) . وبهذا التحويل اكتسب فضيلة الاقتراب غير المباشر من بادئ الأمر . هذا التحويل كان عبارة عن نزول "توستيج" الذى كان نائرا على أخيه الملك "هارولد" الى البر على شاطئ

”يوركشير“ومعه حليفه، ”هارولد هاردرادا“، ملك ”النرويج“ ومع ان هذا الخطر كان يظهر أنه أقل قربا من خطر غزوة ”وليم“ فانه كان أسرع منها في تطوره ونموه . ولذلك زاد الخطط التي وضعها ”وليم“ قوة وان كان ”توستيج“ قد لاقى الهزيمة في أوأانها . وبعد ابادة غزاة قبائل الشمال (الاسكندينايف) على جسر (كوبري) ”ستامفورد“ بيومين ، نزل ”وليم“ الى البر على شاطئ ”ساسكس“ . وهنا بدت أول بوادر ”وليم“ العبقرية . فانه بدلا من أن يزحف نحو الشمال استدرج ”هارولد“ الى الاندفاع نحو الجنوب لا يلوى على شيء وليس معه الا جزء من قوته . وذلك بأن أعمل السلب والتخريب في مقاطعتي ”كنت“ و”ساسكس“ . فكلما ابتعد ”هارولد“ نحو الجنوب وكلما بادر بالتزلا في معركة كلما اتسع المدى بينه وبين مدده سواء في المسافة وفي الزمن . وهذا الحساب قد بررته الحوادث واشتبك ”هارولد“ في معركة ، لما اضطره اليها ”وليم“ ، على مرأى من شاطئ القنال (الانجليزى) وحسم ”وليم“ النتيجة التكتيكية باقتراب غير مباشر — بأن أمر قسما من جنوده بأن يتصنعوا الفرار فكان ذلك سببا في زحمة أوضاع خصمه . وفي الطور النهائي للمعركة ابتكر ”وليم“ حيلة رمى النبال بزوايا مرتفعة تسبب عنها موت ”هارولد“ . وهذه يصح تسميتها اقتراب برى غير مباشر .

ثم ان استراتيجية ”وليم“ بعد هذا الانتصار كانت مما يستحق التنويه بدرجة لا تقل عن سابقتها . ذلك أنه بدلا من السير الى ”لندن“ مباشرة أمن ”دوفر“ في بادئ الأمر ومواصلاته البحرية . وعند وصوله الى ضواحي لندن تحاشى أى اقتحام مباشر ، بل انه استعاض عنه برسم دائرة حولها من جهة الغرب ثم من جهة الشمال . وهى دائرة مملأها بالتخريب والاتلاف حتى سلمت العاصمة بعد أن تهدتها المجاعة حينما وصل ”وليم“ الى ”بركهامبيستد“ .

وشاهد القرن التالى أدلة أخرى على عبقرية النورمانيين في الحروب كما شاهد حملة حربية من أشد حملات التاريخ إثارة للدهشة . تلك هى غزو القسم الأعظم من ايرلندا ، وقيام ايرل ”سترونجبو“ وبضع مئات من فرسان مستنقعات بلاد ”الويلز“ بصد غزو نورمانى قوى . وهو عمل مجيد جدير بالذكر لا بسبب الضالة المتناهية فى الوسائل ومنتهى الصعوبات فى البلاد ذات الغابات والمستنقعات فقط ، بل أيضا بسبب الخدق فى التخل عن طرائق الحرب التى كانت على عهد الاقطاعات واتباع عكسها . فقد أظهروا براعة وحسن حساب فى طريقة استدراج عدوهم الى المعارك فى العراء مرارا وتكرارا ، حيث كانت هجماتهم فوق ظهور الخيل تمر الى أكمل حد . وذلك بطريقة استغلال الرجعات المصطنعة ، والتحويل (تشتيت أفكار العدو) ، والهجمات الخلفية للتغلب على مقاومته . ثم بالمفاجآت الاستراتيجية ، والهجمات الليلية ، ورمى النبال للتغلب على المقاومة حينما يتعذر عليهم استدراج العدو الى الخروج من مكانه فى الدفاعات المحصنة .

على أن القرن الثالث عشر كان أكثر إثمًا من الوجهة الاستراتيجية. وأول ثمرة ظهرت في سنة ١٢١٦ حينما أنقذ الملك "جون" مملكته بعد أن كاد يفقدها . وذلك بحملة حربية كانت فيها الاستراتيجية الخالصة غير مختلطة بالمعارك . وكانت وسائله اذ ذاك سرعة الحركة وخفتها ، وقوة المقاومة المتوفرة في القلاع في ذلك الوقت ، ونفسية أهالي المدن الموروثة عن كراهيتهم للبارونات وحليفهم الأجنبي "لويز" ملك فرنسا . ولما احتل "لويز" لندن ووثشتير بعد أن نزل الى البر في "كنت" الشرقية كان "جون" ضعيفا لدرجة أنه لم يستطع مقاومته في معركة . فكان البارونات متسلطين على القسم الأعظم من البلاد . على أن "جون" مازال محافظا على قلاع "وندسور" و"ردنج" و"والنجفورد" و"اكسفورد" التي كانت حاكمة على خط "التميز" وفاصلة لقوات البارونات الموجودة شمالها وجنوبها ، بينما كان معقل "دوفر" الذي هو المفتاح باقيا على مؤخرة "لويز" ولم يستول عليه . وكان "جون" قد رجع الى "دورست" ولكن لما زاد الموقف وضوحا سار الى جهة الشمال في يوليو حتى "ورسستر" واستولى على خط نهر "السفرن" وبذا أقام حاجزا يمنع طغيان الثورة وامتدادها غربا والى الجنوب الغربي . ومن هناك تحرك نحو الشرق على طول خط التميز المكتسب من قبل كآته يقصد خلاص "وندسور" .

ولكى يثبت هذا الاعتقاد عند المحاصرين أرسل قسما من رماة القسي "الوالين" (ولش) ليطلقوا سهامهم في معسكرهم ليلا ، بينما تحوّل هو نحو الشمال الشرق فربح السباق الى "كيمبردج" بفضل مبادرته . وأصبح الآن قادرا على اقامة حاجز آخر يعترض الطريق الموصل الى الشمال بينما كانت جنود الفرنسيين الرئيسية مقيدة بحصار "دوفر" . ثم ان احاطته بساحة المقاومة والعصيان وتضييق حدودها كان معناها فشل العصاة وحلفائهم برغم أن "جون" نفسه توفي في شهر أكتوبر . واذا كان موته بتخمة من أكل السمك فقد كان موتهم بتخمة الاثارة من الحصون .

أما الثورة التالية الناجحة التي ثارها البارونات فقد أئتمنها الأمير "إدوارد" الذي صار فيما بعد "إدوارد الأول" ، في سنة ١٢٦٣ ، بفضل مهارته الاستراتيجية . ثم كانت نتيجة هزيمة الملك "هنري" الثالث في "لويز" استقرار سلطة حزب البارونات في معظم أنحاء إنجلترا الا في مستنقعات بلاد "الويلز" . فسار اليها "سيمون دو مونتفورت" ، وعبر "السفرن" ثم توغل في طريقه ظافرا حتى وصل الى "نيوبورت" . بجاء البرنس "إدوارد" الذي فر من جيش البارونات وانضم الى أتباعه الموجودين ببلاد الحدود وزرع الخطط التي وضعها "دومونتفورت" باستيلائه على جسور (كباري) "السفرن" الكائنة وراء "دومونتفورت" ثم تحرك هابطا على مؤخرته . ودفعه "إدوارد" فردة لا الى ما وراء نهر "الأوسك" فحسب ، بل انه أغار على سفنه ، بثلاث سفن من ذوات المجاديف ، فأفسد خطته الجديدة للرجوع بجيشه الى إنجلترا

بطريق البحر . فاضطر "دومونتفورت" لأن يسير سيرا ملتفا شاقا الى جهة الشمال مجتازا مقاطعات بلاد "الويلز" القحلاء بينما رجع "ادوارد" الى "ورسستر" ليرابط على نهر "السفرن" وينتظر وصوله . ولما سار ابن "دومونتفورت" لنجدة أبيه بجيش أتى به من شرق انجلترا انتفع "ادوارد" بموقعه المتوسط بينهما لسحق كل منهما على حدة وهو منفصل عن الآخر ولا يعلم عنه شيئا . وذلك بالسير ذهابا وحيثا الذى استغل فيه سرعة الحركة وقام بمفاجأتين ساحقتين .

وقد أتيج "لادوارد" وهو ملك أن يخدم العلم العسكرى خدمات أجل من تلك فى حروبه ببلاد "الويلز" لا بالتوسع فى استعمال القوس والجمع بين هجمات الفرسان والرمي بالنبال فحسب ، بل انه زاد على ذلك كثيرا بطرائقه الاستراتيجية فى الفتوحات . فكانت المسألة التى تواجهه مسألة اخضاع عنصر جبلى وحشى شديد البأس يستطيع تجنب المعارك بالركون الى التلال ويعود الى احتلال الأودية عند ما يوقف الغازى عملياته فى فصل الشتاء . وإذا كانت وسائل "ادوارد" محدودة نسبيا فقد كانت لديه ميزة أخرى أيضا هى أن البلاد كانت محدودة كذلك . والحل الذى رآه هو الجمع بين خفة الحركة والنقط الاستراتيجية . فبنى قصورا حصينة فى تلك النقط ووصلها بطرق ، ثم أوجد عدوه فى حركة دائمة فلم يستطع تجديد قوته الجثمانية والنفسية أو أن يستريح من الوجهة الجغرافية فى فصل الشتاء فشنت قوته شذر مذر وأنهاك قوة ، مقاومته . وكما كانت طريقته صورة من طريقة الرومان فقد كانت نموذجا سابقا لطريقتنا فى الحدود الشمالية الغربية من الهند .

على أن مواهب "ادوارد" الاستراتيجية لم تعش بعده ، وفى حرب المائة عام لا يوجد شيء يستحق التعلم الا تعلمنا سلبيا من استراتيجية حفيده أو ابن حفيده . فان المظاهرات التى لا طائل تحتها التى قاما بها فى فرنسا كانت لا أثر لها عادة . أما القليل منها الذى كانت له نتائج أعظم فكان وليد حماقتهم المتريدة . فان كلا من "ادوارد" الثالث والأمير الأسود (بلاك برنس) أوقع نفسه فى مأزق حرج ، الأول فى حملة "كريسي" ، والثانى فى حملة "بواتير" . وكلا الحملتين كان غير مباشر بدرجة متناهية جاءت عن غير قصد فان المركز السيئ الذى كان فيه الانجليز حرض خصماءهم البسطاء العقول لأن يندفعوا الى المعركة غير لادين على شيء فى ظروف لم تكن فى صالحهم بل كانت ضدهم تماما فأتاحوا للانجليز أن يخلصوا أنفسهم من الورطة التى كانوا فيها . فان المعركة كانت دفاعية وفى أرض اختارها الانجليز لأنفسهم فكان من شأن قسيم الطويلة وتكتيكات الفرنسيين ، فى عهد الفروسية والبطولة ، التى لا ثمرة فيها أن أكدنا تفوق الانجليز تكتيكيا .

على أن فداحة هذه الهزائم التي أصابت الفرنسيين في المعارك عادت عليهم بفائدة . فانهم في المرحلة التالية من مراحل الحرب أصرروا على الترام السياسية "القابية" التي اتبعها الكونستابل "دوجوسلين" . والاستراتيجية التي نفذ بها هذه السياسة كانت عبارة عن تجنب المعارك مع الجيش الانجليزي الرئيسى بينما كان لا يتقطع عن مضايقة حركات عدوه وانقاص أراضيه . فان استراتيجيته كانت بعيدة كل البعد عن الطرائق السلبية بتجنب المعارك ، بل كانت عبارة عن استغلال خفة الحركة والمفاجأة لدرجة لم يصل اليها الا القليل من القادة ، فكان يتصدى لقوافل النقل ويستولى عليها أو يبيدها ، ويبيد الأقسام المنفصلة ، ويأسر الحاميات المتطرفة . وكان يسلك دائما الخط الذى هو أبعد ما يتوقعه العدو لقدمه . وكانت طرائقه السريعة الحديثة المنطوية على هجمات الاقتحام ، واختيار أغراضه بتقديرها من الوجهة النفسية حيث تكون الحاميات مبرمة متدمرة أو الأهالى على وشك الحياة ، كل هذه كانت تساعد على هجمات المفاجأة على مثل تلك الحاميات وكثيرا ما كانت تقع ليلا . وبهذه الطرائق كان يزد طيب الاضطرابات المحلية ضراما كوسيلة مباشرة لتشتيت أفكار العدو وانقاص أراضيه نهائيا .

ففى ظرف أقل من خمس سنين أنقص الممتلكات الانجليزية الواسعة التي كانت فى فرنسا الى شقة ضيقة من الأراضى بين "بوردو" و"بايون" . كل ذلك دون أن يقاتل فى معركة . وفى الواقع فانه لم يضغط بالمهجوم مطلقا حتى ولا على قوة انجليزية صغيرة تكون قد اكتسبت وقتا لاتخاذ أوضاع دفاعية . فقد حافظ القواد الآخرون هم ومقرضو النقود على المبدأ القائل : « لا تقديم أو (زحف) من غير تأمين » . أما مبدأ "دوجوسلين" فكان « لا هجوم من غير مفاجأة » .

والمحاولة الجدية التي قام بها الانجليز لغزو بلاد أجنبية للمرة التالية كانت على أقل تقدير قائمة على طرائق منتظمة وعلى تقدير الغاية والوسائل — بعد أن ابتدأت بالتهور . لأن أشهر حملات "هنرى" الخامس كانت أكثرها طيشا . ففى الموكب « الادواردى » الذى انتهى فى "آجنكور" كان الفرنسيون ما عليهم الا أن يسدوا الطريق أمام "هنرى" ليضمحوا سقوطه بالمجاعة . ولكن قادتهم نسوا الدروس التي تلقوها فى "كريسى" وتعليم "دوجوسلين" . فقد ظنوا أنهم مع تفوقهم عددا بنسبة أربعة الى واحد يكون من العار عليهم أن يستخدموا هذا التفوق بشيء غير الهجوم المباشر . وبذا هياؤا أنفسهم لعار أكبر بتكرير ما حصل فى "كريسى" و"بوانير" . وبعد نجاة "هنرى" بهذه الكيفية استخدم ما قد يسمى استراتيجية « نظام الكتلة » . فكان يرمى الى فتح مستديم بالتوسع فى امتلاك الأراضى بطريقة منتظمة كانت تتناوى على استرضاء السكان كوسيلة لتأمين تملكه . أما أهمية حملات هنرى التي أعقبت ذلك وما لها من القيمة فهي فى الاستراتيجية العظمى التي اتبعها فيها لا فى استراتيجيتها .

ففى موضوع الاستراتيجية يصح أن نختم ملاحظتنا عن الأعصر الوسطى بعهد "ادوارد" الرابع الذى اكتسب عرشه فى سنة ١٤٦١ ثم استرجعه مرة أخرى فى سنة ١٤٧١ باستخدامه حفة الحركة بصفة خصوصية بعد أن كان منفيا .

ففى الحملة الأولى كانت النتيجة ناشئة بصفة رئيسية عن سرعة الحكم فى الأمور وسرعة الحركة . فقد كان ادوارد مشتبكا مع اللانكستريين المحليين فى بلاد "الويلز" عند ما بلغه خبر هبوط جيش اللانكستريين الرئيسى على لندن . فلما رجع وصل "جلوستر" فى ٢٠ فبراير وبها سمع بانتصار اللانكستريين فى ١٧ فبراير على قوة اليوركين التى كانت تحت إمرة "واريك" فى "سانت الباز" والمسافة بين "سانت الباز" و"لندن" هى ٢٠ ميلا ، ومن "جلوستر" الى لندن أكثر من ١٠٠ ميل فكان لدى اللانكستريين مهلة ثلاثة أيام . ولكن فى ٢٢ فبراير لما كان فى "بوفورد" انضم اليه "واريك" ثم بلغه أن مجلس بلدية لندن ما زال يجادل فى شروط التسليم وأبوابها مقفلة . فبارح "بوفورد" فى اليوم التالى ودخل لندن فى ٢٦ فبراير ونودى به ، اذ ذاك ، ملكا بينما رجع اللانكستريون الى جهة الشمال يحرقون أذبال الخبية . ولما اقتفى أثرهم كان مجازفا مجازفة كبرى بمهاجمته عدوا يفوقه عددا مستقرا فى موقع اختاره لنفسه فى "طاوون" . على أن مرؤوسه "فوكو نبرج" استغل هبوب عاصفة ثلجية فاسترد له الميزة بأن أخذ يرمى المدافعين الذين أعمتهم الثلوج بالنبال فضايقهم الى أن أرادوا الخلاص منه بهجمة لا نظام فيها .

أما فى سنة ١٤٧١ فكانت استراتيجية "ادوارد" تنطوى على كثير من الدهاء وخفة الحركة . فانه كان أضاع عرشه ولكن صهره أقرضه خمسين ألفا (من النقود) . ومع ذلك فلم يتجاوز رأس ماله علاوة على ذلك ١٢٠٠ من الأتباع وبضع رسائل من معصديه السابقين فى إنجلترا يعدونه فيها بالمساعدة . ولما أقبل من ميناء "فلشنج" كانت شواطئ إنجلترا تقوم عليها الحراس لمنعه . ولكنه اتبع الخط الذى هو أقل الخطوط انتظارا (أى آخر ما يظن العدو أنه يسلكه) حتى رسا الى البر فى نهر "الهمبار" حاسبا بمهارته أن هذه الجهة نظرا لعطف أهلها على اللانكستريين ومشايعتهم لم لا يقوم عليها حراس . فتحرك بسرعة قبل أن ينتشر خبر نزوله الى البر ويجمع أعداؤه ، فوصل الى "يورك" . ومنها سار هابطا على طريق لندن ثم تفادى ببراعته من قوة كانت تسده فى "ناد كاستر" بأن تحول عن طريقه حتى مر بها . فسبق هذه القوة التى قفلت راجعة لتعقبه الى أن هدد قوة أخرى كانت تنتظره فى "نيوارك" فارتدت شرقا . وعندها اتجه "ادوارد" نحو الجنوب الغربى الى "ليستر" وهناك ازداد أتباعه . ثم انه سار بعد ذلك الى "كوفنترى" حيث كان "واريك" اشد مقاوميه يجمع جنوده . وبعد أن استدرج القوتين المتعقبين له الى ذلك المكان أيضا وأخذت قوته تزداد

على حساب العدو ، اتجه نحو الجنوب الشرقى وسار الى لندن مباشرة ففتحت له ابوابها .
والآن وقد شعر بقوته لدرجة يتقبل معها الاشتباك فى معركة خرج لملاقاة متعقبيه ، الذين
خدعهم كل هذه المدة عند وصولهم الى "بارنت" واشتبك فى معركة سادها الضباب والفوضى
انتهت فى صالحه .

وفى نفس اليوم نزلت "مارجاريت أنجو" ، ملكة لانكستر الى البر فى "ويموث" ومعها
بعض مأجورى الفرنسيين . وبعد أن جمعت أتباعها فى الغرب سارت لتنضم الى الجيش الذى
كان إيرل "مبوك" قد جمعه فى بلاد "الويلز" . فاستعان "ادوارد" بالسرعة مرة أخرى
ووصل الى حافة تلال "كوتسولدس" بينما كانت جيشها سائرا نحو الشمال على جانب طريق
"برستول" و "جلوستر" فى الوادى أسفل منه . وأخذ الجيشان يتسابقان طول اليوم .
أحدهما فى بطن الوادى ، والآخر فوق المرتفعات المشرفة عليه . فلحق هو بجيشها مساء
فى "تويكربرى" ، بعد أن منعه من عبور نهر "السفرن" فى "جلوستر" بأن أرسل أمرا قبل
ذلك الى الكونتسابل ليقفل الأبواب . وقد قطع فى ذلك اليوم نحو أربعين ميلا منذ الفجر
الى أن حل الليل . وفى تلك الليلة عسكر قريبا من اللانكستريين بحيث لا يستطيعون الفرار .
وكان موقعهم قويا من الواجهة الدفاعية . على أن "ادوارد" استخدم القذائف الثقيلة والنبال
لمضايقتهم حتى يخرجوا للهجوم . وبهذه الوسيلة اكتسب ميزة كانت حاسمة فى المعركة التى
نشبت فى الصباح .

فاستراتيجية "ادوارد" كانت تمتاز بخفة الحركة بصفة خصوصية ، ولكنها من حيث
نقص الخيلة والدهاء كانت على مثال طراز ذلك العصر . لأن استراتيجية الأعصر الوسطى كان
من عاداتها أن تجعل غايتها الوصول الى معركة بالطرق البسيطة المباشرة . فان لم تكن النتيجة
غير حاسمة ، فانها فى العادة تكون حاسمة ضد من يسعى لها الا اذا أمكنه أن يستدرج المدافع
لأن يكون هو المعتدى تكتيكيا .

وأحسن أمثلة الاستراتيجية فى الأعصر الوسطى هو ما جاء من الشرق لا ما جاء من الغرب
لأن القرن الثالث عشر ، الذى كان ممتازا فى الغرب ، أصبح بارزا بين العصور بسبب
الدروس المدهشة التى لقيتها استراتيجية المغول لعهد الفروسية الأوروبية . فان حملاتهم تنافس
ان لم تفق كل الحملات التى عرفها التاريخ ، سواء فى نطاقها ، وفى صفاتها ، وفى المفاجأة ،
وخفة الحركة ، وفى الاقتراب الاستراتيجى والتكتيكى غير المباشر . فاننا نستطيع أن نتبع
استخدام "جنغيزخان" و "تايونج - فو" طعنا لسلسلة من الحبال التى نصبها فى فمحه بلاد
الصين ، كما استخدم "بونابارت" بعده قلعة "مانتاو" . ثم انه بحركاته المتزامنة النطاق واشراكه
ثلاثة جيوش معا تمكن فى آخر الأمر من تحطيم وحدة الإمبراطورية الصينية من الوجهتين

الأدبية والحربية . ولما غزى أمباطورية "الخوارزم" في سنة ١٢٢٠ التي كان مركز قوتها في "تركستان" الحديثة أرسل قوة تستجلب نظر العدو وتحول فكره نحو الاقتراب من "قشغر" جنوبا . ثم ظهرت القوة الرئيسية في الشمال . أما هو فقد استر وراء عمليات هذه القوة ودار دورة شاسعه يحيشه الاحتياطي واختفى في صحراء "قزيريل - قوم" وخرج منها بخاة في "بخارا" وراء خطوط العدو الدفاعية ووراء جيوشه .

وفي سنة ١٢٤١ خرج "صابوتاي" ، أحد قواد "جنغيزخان" ليلقي دروسا على أوروبا . فسار جيش من جيوشه مخترقا "غاليسيا" بصفته حرسا جانبيا استراتيجيا فاستلفت أنظار أعدائه البولنديين والألمان والبوهيميين واجتذبتها اليه علاوة على انزال هنرائم بهم كانت موفقة . في حين أن الجيش الرئيسي سار في ثلاث قولات كل منها منفصل عن الآخرين بمسافة واسعة واكتسح بلاد المجر (الهناجار) حتى وصل الى نهر "الدنوب" . فكانت القولان الخارجيان بمثابة وقاية وستر للقول الثالث الوسطى في بادئ الأمر الى أن اتسع المجال للقول الثالث فيما بعد وسهلت حركته . وبعد ذلك تجمع الجيش كله والتقى على نهر "الدنوب" بالقرب من "جران" ، ولم يعقه عن مواصلة الزحف الا تجمع الجيش المجري على الشاطئ الآخر . فتقهقر المغول تدريجيا بمهارة فائقة مستدرجين عدوهم من ملجئه على النهر فأبعدوه عنه وعن وصول المدد اليه .

وأخيرا قام "صابوتاي" بمناورة ليلية سريعة وفاجأ الجيش المجري على نهر "السوهر" فزحزحه من مكانه وأباده . فأصبح سيدا على سهول أوروبا الوسطى الى أن تنازل من تلقاء نفسه بعد ذلك بسنة عما فتحه من البلاد . وكان لانسحابه دهشة وارتياح في أوروبا التي عجزت عن اخراجه بالقوة (*) .

(*) قد عالج المؤلف في كتابة المسمى "كشف السنا عن كبار القادة" استراتيجية المغول وكتبكاتهم بتفصيل واف ،

الباب الخامس

القرن السابع عشر - جوستافوس ، كرومول ، تورين

لقد جئنا الى أول "حرب عظمى" في التاريخ الحديث . فقد حصل عرضا أن الذين يستعملون هذا العنوان للحرب التي وقعت في سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ جاؤا متأخرين في هذه التسمية التاريخية بعض التأخير . فان هذا الاسم حتى قبل ثلاثة قرون كان قد خلقت جدته من كثرة الاستعمال .

وحرب الثلاثين سنة لا تكشف عن حمله حربية يصح تسميتها حاسمة . وأقرب حملة فيها الى هذه التسمية هي المباراة التي حصلت في نهاية الأسريين "جوستافوس" و"النشتاين" وهي التي بسبب موت "جوستافوس" في المعركة النهائية التي وقعت في "لوتسن" كانت حاسمة من وجهة أنها حالت دون امكان ، بل ودون احتمال قيام اتحاد بروتستانتي عظيم تحت زعامة سويدية . ولولا تدخل الفرنسيين واغتيال "والتشتاين" لكان من المحتمل أن تكون حاسمة في تأسيس اتحاد ألماني قبل حصوله بما يتوف على ثلاثة قرون . فهذه النتائج والاحتمالات التي كان بعضها حاسما ، لاشك في أنها اكتسبت بطرق غير مباشرة . لأن المعركة النهائية وهي المعركة الحقيقية الوحيدة التي دارت رحاها ، انتهت بهزيمة الذين رجحت كفهم في الحرب بسببها ، وان كانت المعركة في حد ذاتها ما زالت غير حاسمة . ومع ذلك فان هذه الهزيمة وان كانت ناشئة عن ضعف آلة "والتشتاين" الحربية بالنسبة لآلة السويديين من جهة ، فقد كانت من جهة أخرى بسبب عجز "والتشتاين" عن الانتفاع تكتيكيا بالفرصة الاستراتيجية التي كانت لديه . اذ لاشك أنه كان قد حصل على ميزة حقيقية جدا قبل المعركة . ومما هو جدير بالذكر أن ما تم كان نتيجة لا لاقترب واحد غير مباشر فقط ، بل كان نتيجة لثلاثة اقترابات متوالية غير مباشرة - كانت في الواقع سببا لتغير مجرى الحرب بأجمعه . فان "والتشتاين" لما استدعاه ثانيا العاهل الذي كان أساء اليه ، ونزل الى أسفل درك في استعطافه ورجائه لأن يتولى قيادة جيش لاجوده ، جمع في ظرف ثلاثة أسابيع نحو ٤٠,٠٠٠ جندي ممن يسلمون مقاليد أمورهم للأقدار ، اجتذبتهم أبهة اسمه . ثم انه بالرغم من التماس "بافاريا" العون منه اذ كان ، اذ ذاك جيش جوستافوس الظافر يكتسح أراضيها ، اتجه نحو الشمال قاصدا "السكسونيين" حلفاء "جوستافوس" الضعفاء . وبعد أن طردهم من "بوهيميا" تحرك نحو سكسونيا نفسها . حتى أرغم أمير "بافاريا" ، على غير رضاه منه لأن يضم جيشه الى جيشه . وبذا كان يظهر أنه ترك "بافاريا" أعجز ما تكون عن الدفاع عن نفسها .

ولكن الحقيقة كانت غير ذلك . وقد بررت الحوادث ما حسبه "والنشتاين" لأن "جوستافوس" لما أصبح مهددا بفقد حايفه الأصغر اضطر لأن يهجر "بافاريا" ويسرع لنجدة حليفه . غير أنه قبل أن يصل كان "والنشتاين" والأمير قد اجتمعا معا . فلما واجههما "جوستافوس" اضطر لأن يتقهقر الى "نورنبورج" ، فتبعه والنشتاين اليها . ولكنه لما رأى السويديين مستحكين في مواقع قوية قال لنفسه : « لقد وقع من المعارك ما فيه الكفاية . فقد آن الأوان لأن نجرب طريقة أخرى » . فبدلا من أن يضع جنوده الجديدة أمام السويديين الذين بقوا زمنا طويلا لم يغلّبوا ، خندق في موقع آمن يستريح فيه جيشه فيزداد ثقة يوما عن يوم بينما تستطيع فرسانه الخفيفة التحكم في الخط التي يتون منه "جوستافوس" . فلأزم هذه الطريقة وهذا الغرض ولم يتحول عنهما .

وكلما طلبه "جوستافوس" الى النزال في معركة أعاره أذنا صماء الى أن لاح شبح المجاعة أمام عين ملك السويد فحاول اقتحام موقع والنشتاين ولكنه أخفق وارتد خائبا . فكان هذا الاخفاق حادثا سيئ الطالع من الوجهة العسكرية لا غير . أما من الوجهة السياسية فان جميع أنحاء أوروبا تجاوزت بأصداؤه . لأنه وان لم يزحزح "جوستافوس" فقد أضر بتفوقه الأدبي الذي ناله بانتصاراته الكثيرة . وكان سببا في أفلات الولايات الألمانية من قبضته . أما "والنشتاين" فكان يجمع بين ادراك حقيقة قلة ما لديه من الوسائل ، وبعد النظر في حساب الغاية « الاستراتيجية العظمى » .

فسار "جوستافوس" من "نورنبورج" نحو الجنوب قاصدا "بافاريا" مرة أخرى — أما والنشتاين فانه اتجه نحو الشمال قاصدا سكسونيا . فكان من شأن هذه الحركة الدالة على المقدرة أن أرجعت "جوستافوس" على عقبيه لفوره كما فعلت سابقتهما . غير أنه جد في سيره بهمة كبيرة فوصل قبل أن يتمكن "والنشتاين" من ارباب السكسونيين وعقد صلح منفصل معهم . فشبت بين الفريقين معركة طاحنة قاتل فيها كل منهما قتال اليأس وانتهت بأن استرد الجيش السويدي هزيمته الاستراتيجية بفوز تكتيكي . على أن ثمن هذا الفوز كان موت قائده وسقوط مشروعه وهو ايجاد اتحاد بروتستانتي تحت ادارة سويدية . واستمرت الحرب بعد ذلك ست عشرة سنة أخرى بلغ فيها الاعياء والمملل منهاهما وتركت ألمانيا صحراء قاحلة . وأسلمت فرنسا زمام قياد أوروبا السياسي .

والتناقض البارز بين الحروب الأهلية التي وقعت في بريطانيا العظمى سنة ١٦٤٢ — ٥٢ وحروب القرن السابع عشر في قارة أوروبا ، الذي اعتاد المؤرخون أن يشيروا اليه ، هو فيما امتازت به الأولى من تلك الروح التي كانت ترغم على البت والحسم . فالروح التي كانت سائدة في بلاد الانجليز مدة دوام هذا النضال العظيم الأخير هي التي عبرت عنها خير تعبير « مذكرات

فارس» (كافالير) حيث جاء فيها — «انتا لم تقم في معسكر ولم تتحصن مطلقا ولم تقبع وراء سياج من الأنهر أو المضائق ، والقول المشهور في مدة تلك الحرب هو — أين العدو ؟ دعنا نسير اليه ونقاتله »

ومع ذلك فإن الحرب الأهلية الأولى استطال أمدھا مدة أربع سنين دون أن تقع فيها معركة حاسمة حقيقية ، الا من الوجهة التكتيكية . ولما آذنت بالانتهاء في سنة ١٦٤٦ غادرت جمر الملوكة خايبا تحت الرماد الى أن وقع الشقاق بين الظافرين فأذكى أوارها وأوقد لهيبها من جديد فثارت مرة ثانية بعد الأولى بسنتين بأشد مما كانت عليه الأولى من العنف .

واذا بحثنا عن سبب انعدام الحسم بالرغم من أن روح الحسم كانت بادية فأننا نلاحظ أن الحملات العسكرية كانت عبارة عن زحف مباشر متكرر يقوم به هذا الفريق أو ذاك على الآخر يتخلله أحيانا ما قد يسعى في عرف الاصطلاح الحديث عمليات ” التشطيب “ التي لم يكن لها سوى أثر زائل — كل ذلك بثمن هو استنزاف القوى .

ففي بادئ الأمر كانت قوات الحزب الملكي متخذة قواعدھا في البلاد الغربية والمتوسطة . أما الحزب البرلماني فكانت قاعدته لندن . وأول زحف على لندن قام به الملوكون انتهى بخيبة ليس بعدها خيبة في ” تورنهام جرين “ وعار ما بعده عار . حتى ان هذه الخاتمة كثيرا ما وسمت باسم ” فالملی “ الحرب الأهلية . وهي نتيجة أدبية لمعركة ” إدجهل “ التي سالت فيها الدماء أنهارا ولم تكن حاسمة ، وهي المعركة التي نشبت بين الجيشين الرئيسيين أثناء الطويق . ومن ذلك الحين أصبحت ” أكسفورد “ وما حوالیها من المدن هي المحور المستحكم الذي تدور حوله جنود الملوکین . وبقى الجيشان المتحاربان على حافة هذه المنطقة مدة طويلة يواجه أحدهما الآخر بلا أثر يذكر ، بينما كان النضال سجالا بين القوات المحلية والأقسام المنفصلة الموجودة غربا وشمالا . وأخيرا اضطر الجيش البرلماني الذي كان تحت إمرة ” إيسكس “ أن يزحف في شهر سبتمبر سنة ١٦٤٣ لخلاص ” جلوستر “ وفك الحصار عنها لما أصابها من الضيق . فدار دورة ضيقة مارا بجناح منطقة ” أكسفورد “ . فتمكن بذلك الملوکيون من سد الطريق أمامه . فعاد الجيشان واصطدما اصطداما مباشرا في ” نيوبری “ لم يسفر عن نتيجة حاسمة . فكان من الطبيعي والحالة هذه أن ينتهي هذا النضال المتعب على أثر ذلك الاصطدام لولا الخطأ السياسي الذي وقع فيه ” شارلس “ بعقده هدنة مع العصاة الايرلنديين كانت في ظاهرها ترمي الى اخضاع انجلترا البروتستانتية لكاثوليك ايرلنده . بلغيات على العكس إذ أتت من الجهة الأخرى بأسكولنده הפרستيرية وألقها في جانب البروتستانت ضد الملوکين . ولما زحف جيش اسكتلندا لقتال الملوکين الموجودين بالشمال ، عاد البرلمان وحشد قواته للزحف على منطقة ” أكسفورد “ مباشرة . فلم يأت هذا الزحف بنتيجة أكثر من احتلال بعض قلاع ، متطرفة . وفي الحقيقة فإن الملك استطاع أن يبعث ” روبرت “ ليحتشد

مع الملوكن الموجدن بالشمال على جناح السرعة لمقاومة الاسكتلنديين . ولكن لسوء حظه جاءت الهزيمة التكتيكية التى حلت بجنوده فى "مارستون مور" فأبطلت تأثير هذه الفرصة الاستراتيجية وزيادة . على أن الظافرين لم يستفيدوا الا قليلا . فان عدم تأثير الحركة الرئيسية التى وجهت الى "أكسفورد" مباشرة أحدث الفزع والفرار بين جنودهم ، حتى انه لولا وجود رجال صادقى العزيمة من أمثال "كرومول" لانتهد بعقد صلح بدافع السامة من الحرب . ولكن من حسن حظ البرلمان كانت قضية الملوكن آخذة فى التدهور والسقوط من الداخل أكثر بكثير مما كانت بسبب الضربات الموجهة اليها من الخارج ، وعلى ذلك فانها أصبحت عدوا ضعيفا أدبيا وماديا من الوجهة العددية . ولم يحفظها من السقوط كل هذه المدة سوى خطأ استراتيجية البرلمان ، الى أن جاء "فيرفاكس" و "كرومول" يمحشهما الحديث الذى كان نموذجا يقتدى به فتغلبا عليها فى "ناسبي" فى سنة ١٦٤٥ وبالرغم من ذلك فان هذا الانتصار التكتيكي الحاسم لم يمنع الحرب من البقاء سنة أخرى .

وعند ما تنتقل الى الحرب الأهلية الثانية نجد صورة غير التى شاهدناها فيما مر ، تمثل فيها العبقريّة المسيطرة فى شخص "كرومول" . فان "كرومول" و "فيرفاكس" بدلا من أن يزحفا على اسكتلندا ، بل وبدلا عن محاولتهما لقاء جيش اسكتلندا الغازى ، أسرعا بالحركة ليقضيا على الثورات الداخلية فى بلاد الانجليز . بينما بقى "لامبرت" أمام الاسكتلنديين ليؤخر زحفهم ويتفهم أمامهم ببطء . والأمر الذى أصدره "كرومول" "بالمعالجة" جدير بالتنويه فى هذا المقام نظرا للقيمة القائلة ، مادام ، وإذا كان ، العدو الرئيسى قد قضى عليه فلا بأس من ترك الأعداء الصغار ليسقطوا من تلقاء أنفسهم . لأن المرء يجد مع الدهشة أنه من الصعب وجود مبرر تاريخى يبرر هذه القاعدة ، المنطقية فى ذاتها ، كما هو من السهل وجود أمثلة لعكسها كللت بالنجاح .

وأخيرا لما سقطت "ممبروك" فى ١١ يولييه سنة ١٦٤٨ صار فى استطاعة "كرومول" أن يتحرك شمالا . على أنه بدلا من أن يزحف لملاقاة الاسكتلنديين مباشرة وهم هابطون بطريق الساحل الغربى ، سار على منحن واسع عن طريق "نوتجهام" و "دونكاستر" ثم اتجه شمالا - بغرب ليلتي "بلامبرت" فى "أوتلى" على جناح الجيش الاسكتلندى - الذى كان منتشرا بين "ويجان" و "برستون" ويسترجع جناحه الأيسر بفيلق مؤلف من ٣,٥٠٠ جندي تحت إمرة "لانجديل" . وكان لدى "كرومول" من الجند ما لا يزيد عن ٨,٦٠٠ بما فيها فرسان "لامبرت" وميليشيه "يوركشير" مقابل ٢٠,٠٠٠ للعدو . ولكن هبوطه على مؤخرة قول الاسكتلنديين فى "برستون" زعزع موازنته واضطره لأن يدور ويقابل "كرومول" جزءا جزءا على التوالى . فانهزم فيلق "لانجديل" فى "برستون مور" . وبعد ذلك ضغط "كرومول" على هذا القول متعقبا اياه بعنف فاكسحه أمامه وطرده من خلال "ويجان" ،

و"اتوكستر" و"اشبورن" . وهناك صادمته من الأمام مليشيا الأراضي الوسطى . فكان لتوقيف المايشياله من الأمام وضغط فرسان "كرومول" من الخلف من الأثر ما أبلّاه إلى التسليم في ١٥ أغسطس . وقد كان هذا النصر حاسما . فانه لم يقتصر على سحق أعداء البرلمان ، بل مكن الجيش من "تطهير" البرلمان ، ومن محاكمة الملك واعداده .

أما غزو اسكتلندا ، بعد ذلك ، فهو في الواقع حرب قائمة بذاتها شنتها السلطة الجديدة التي توطدت الآن ، لإفساد الخطة التي رسمها ابن الملك ، وهو "شارس الثاني" لاسترجاع العرش المفقود بمساعدة اسكتلندا وقتلها في مهدها . فهي لذلك لا تدخل في فئة الحملات التي كان لها أثر حاسم على مجرى التاريخ . وهي في نفس الوقت تستعمل على أدلة تستحق الذكر على عظم درجة تشجيع كرومول باستراتيجية الاقتراب غير المباشر . فانه لما وجد الجيش الاسكتلندي تحت امره "ليزلى" متخذاً موقعا يعترض طريقه إلى "ادنورا" ، اقتنع بأن موقف "ليزلى" كان قويا بمجرد مناوشة قام بها للاتصال به . ومع أنه كان على مرأى من غايته التي يقصدها كان لديه من ضبط النفس ما أدى به إلى التقهقر إلى "مسلورو" . ولما تحرك "ليزلى" متقدما للقائه أبى أن يشتبك معه في معركة . وبدلاً من ذلك صرف لجنوده مؤونة ثلاثة أيام تمهيدا للمناورة واسعة النطاق يمتاز بها التلال إلى "ادنورا" ويأتى على مؤخرة العدو . وعند ما توفى "ليزلى" إلى التحرك وسد الطريق أمامه في تل "كورستوربهين" في ٢١ أغسطس سنة ١٦٥٠ مجتازا البلاد إلى ذلك التل مباشرة ، ما كان من "كرومول" إلا أن بحث عن طريق آخر يقترب منه ، مع أنه كان إذ ذاك بعيداً عن قاعدته فقام بمناورة إلى يمينه فوجد "ليزلى" معترضاً طريقه مرة أخرى في "جوجبار" في ٢٢ أغسطس . فمعظم الرجال كانوا في تلك الحالة يجازفون بالاقدام على معركة مباشرة . ولكن "كرومول" لم يفعل ذلك . بل انه استبعد خسائره — من المرضى بسبب التقلبات الجوية والتعب — ثم رجع إلى "مسلورو" ومنها إلى "دنبار" مجتازاً "ليزلى" وراءه . ومع ذلك فانه أبى أن يركب جيشه السفن كما ألح عليه كثير من ضباطه بل انه انتظر في "دنبار" حتى تحرك أعداؤه في ٢ سبتمبر ليقطعوا عليه خط رجعتهم إلى "برويك" — وبذلك جاء عرضاً أنهم أوجدوا "كرومول" على خط رجعتهم هم . وفي صبيحة اليوم التالي قام باقتراب تكتيكي غير مباشر فاجأ به العدو واكتسحه مع أن قوته كانت ضعف قوة "كرومول" . وبذا اختتم بالنصر حملة أبى فيها كل إغراء على ترك استراتيجيته المنطوية على الاقتراب غير المباشر مجازفاً في ذلك على ما يظهر حتى بطالعه وحظه .

وقد مكنت "دنبار" "كرومول" من السيطرة على جنوب اسكتلندا . وابتداء جيش الكنيسة وإزالة المتعاهدين من حساب الحرب باعتبارهم عاملاً سياسياً . ولم يبق في الحساب

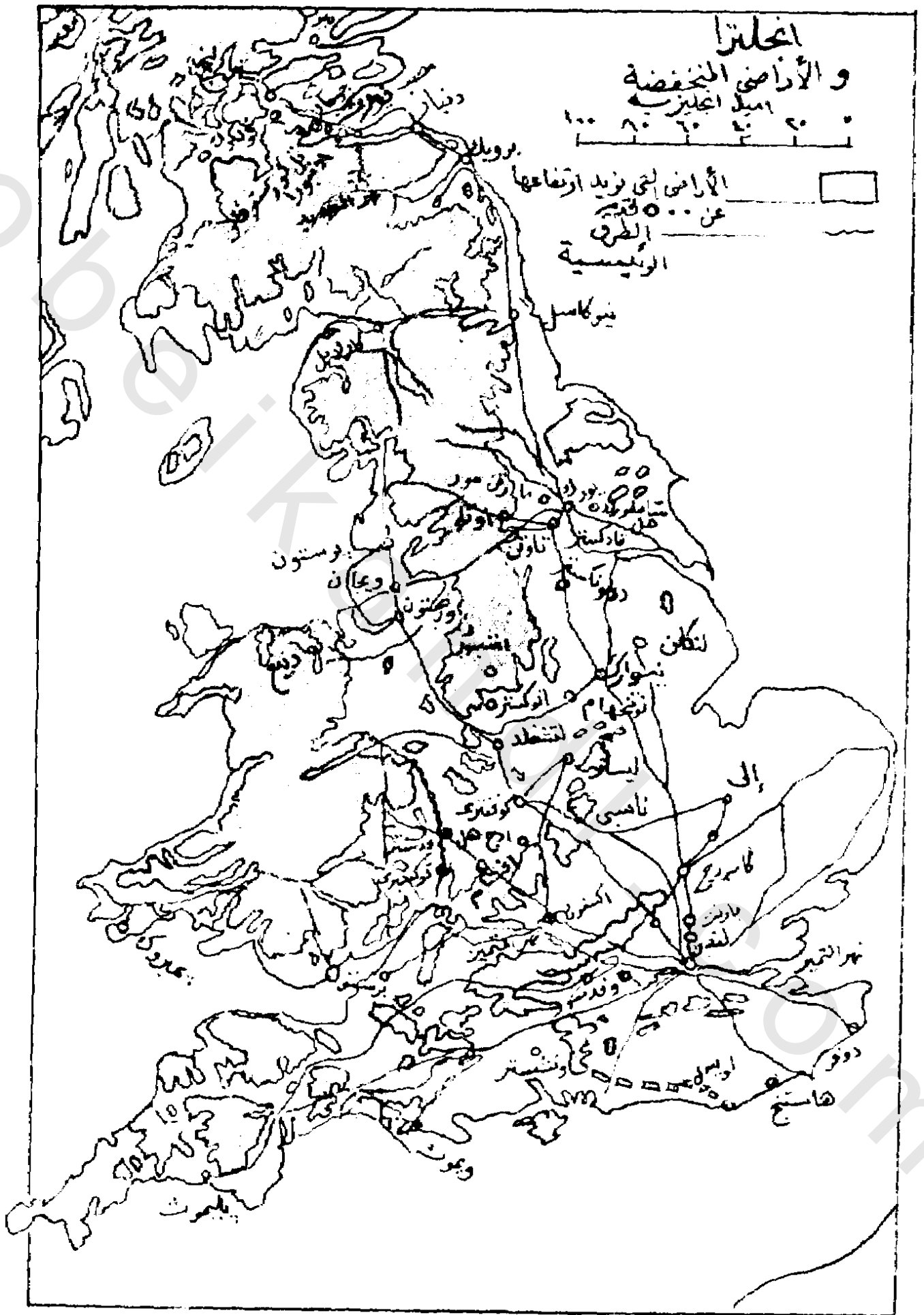
المقابل سوى العنصر المملوكى من "الهالند" (الأراضى المرتفعة) . وقد تأخرت اجراءات التسوية بسبب المرض انفضال الذى أصاب "كرومول" . وفى نفس الوقت توفرت لدى "ليزلى" فرصة استغاق فيها ونظم الجيش المملوكى الحديث ودربه فيما وراء نهر "الفورث" .

وعند ما نقه "كرومول" من مرضه فى أواخر يونيه سنة ١٦٥١ وأصبح يستطيع استئناف العمليات واجهته معضلة . وحله للمسائل التى تتطوى على الدهاء ومهارة التقدير مما يقبل المقارنة مع أى تفصيلات استراتيجية رواها تاريخ الحرب . فهو الآن وان كان التفوق قد أصبح فى جانبه لأول مرة أمامه خصم واسع الحيلة والدهاء مستقر فى جهة كثيرة المستنقعات تتوافر فيها كل المزايا الطبيعية التى تمكن الجانب الأضعف من سد طريق الاقتراب الى "ستيرلنج" . وما لم يتمكن "كرومول" من التغلب على المقاومة فى مدة قصيرة لا بد له من قضاء شتاء صارم آخر فى اسكتلندا فتكبد جنوده من الشقاء ما لا مفر منه ، مع احتمال ازدياد المضاعف فى بلاد الوطن . ثم ان اخراج العدو من مكانه لا يكفى لأن الفوز الذى لا يكون تاما لا ينتج عنه الا تشتت العدو فى النجود المرتفعة فيبقى له بمشابة شوكة فى جنبه . فلنراقب تفصيلات خطة "كرومول" . فهو أولا يهدد "ليزلى" من الأمام ويقتحم "كالندر هاوس" بالقرب من "فولكرك" . ثم ينقل جيشه بأجمعه عبر خاليج "فورث" الى جانبه الآخر مرحلة بعد أخرى ويسير الى "بيرث" . وبذا لا يقتصر على الالتفاف حول الحاجز الدفاعى الذى يعترض طريق الاقتراب المباشر الى "ستيرلنج" ، بل يستولى أيضا على مفتاح الاقليم الذى يستورد "ليزلى" منه مؤنوته . على أنه بهذه المناورة قد ترك الطريق الى لندن مفتوحا . وهنا يظهر ما بلغت خطه "كرومول" من سمو التدبير ومنتهى اتساع الحيلة . فهو الآن على مؤخرة العدو المكشوفة وهذا العدو مهدد بالمجاعة وفرار رجاله — فترك له منفذا واحدا مفتوحا . وقد قال واحد من الأعداء : "لا بد لنا من الموت جوعا ، أو التشتت والتفرق ، أو السير الى انجلترا بحفنة من الرجال . وهذا رأى الأخير أقلها ضررا ومع ذلك يظهر أنه مقطوع الأمل للغاية" . وقد اختاروا هذا رأى الأخير بطبيعة الحال ، ففى ٣١ يوليه شرعوا فى المسير جنوبا قاصدين بلاد الانجليز . أما "كرومول" فكان قد تنبأ بذلك وأعد ما يلزم للقائهم بمساعدة رجال الحكومة فى "وستمنستر" . فاستدعيت الميليشيا فى الحال . ووضع كل المشتبه فى أنهم ملوكيون تحت المراقبة ، وضبطت الأسلحة المخبأة . أما الاسكتلنديين فانهم استأنفوا المسير سالكين طريق الساحل الغربى . فأرسل "كرومول" فرسان "لامبرت" وراءهم بينما تحرك "هاريسون" بالميل من "نيوكاسل" الى "ورنجتون" . ثم تحرك "فليتوود" شمالا بماليشية البلاد الوسطى . فتسلل "لامبرت" من حول جناح العدو ، وبعد أن التقي "هاريسون" فى ١٣ أغسطس شرع كلاهما فى مقاومة العدو الغازى مقاومة مرنة القصد منها تأخير تقدمه . وفى نفس الوقت كان "كرومول" يحدد السير هابطا

اغلظا
و الأراضي المنخفضة

۱۰۰ ۸۰ ۶۰ ۴۰ ۲۰ ۰

الأراضي التي نريد ارتفاعها
عن الطريق
الوهمية



على طريق الساحل الشرقى ويقطع ٢٠ ميلا فى اليوم فى قىظ أغسطس . ثم انه تحول نحو الجنوب الغربى . وبهذه الوسيلة كانت أربع قوات مختلفة تتجمع لتتلاقى مع الغزاة الذين أصبحوا فى شرك . حتى ان تحول "شارلس" عن الطريق الموصل الى "لندن" واتجاهه نحو وادى "السفرن" لم يحدث الا تأخير بضعة أيام فلم يعق انضمام هذه القوات حاصرة بينها العدو كالفكين المنطيقين . وفى يوم ٣ سبتمبر وهو يوم ذكرى "دنبار" السنوية نشبت معركة "ورسستر" وكانت نتيجتها « رحمة كرومول الختامية » .

أما سلسلة الحروب التى وقعت فى الفترة بين ختام حرب الثلاثين سنة وبدء حرب ارتقاء عرش أسبانيا . وهى الحروب التى كانت جيوش "لويس الرابع عشر" تلاقى فيها معظم الجيوش الأوروبية الأخرى ، متجمعة أو بالدور ، فانها تمتاز بعدم حاسميتها . اذ كانت المقاصد فيها محدودة ، وكذلك أغراضها الحربية . على أن هناك سببين قويين من أسباب عدم الحاسمية والفصل فى تلك الحروب هما : أولا أن تطور الاستحكامات وتقدمها فاق تطور الأسلحة وزاد الدفاع قوة مثل القوة التى رجعت له فى القرن العشرين بتطور المدافع الرشاشة ورقمها . وثانيا أن الجيوش لم تكن اذ ذاك قد نظمت وقسمت الى أجزاء كل منها مستقل بذاته من حيث الكفاية . بل كانت تتحرك وتقاتل عادة قطعة واحدة . وتلك حالة تقال مقدرتها على "تشديد" فكر العدو — وخدعه والتضييق على حرية حركاته . ولم تقع فى كل الحروب التى أعقب بعضها بعضا المسماة حرب "الفروند" و "حرب الانتقال" والحرب "المولندية" و "التحالف الكبير" كل هذه لم تقع فيها الا حملة واحدة كانت حاسمة وحسمها قاصر على محيطها . هى الحملة التى قام بها "تورين" فى شتاء ١٦٧٤ — ١٦٧٥ وانتهت بانتصاره فى "توركهايم" . فقد كان الوقت عصيبا فى فرنسا لأن حلفاء "لويس" هجروه وتركوه الواحدة بعد الأخرى وانضم الأسبانيون ، والمولنديون ، والدنماركيون ، والنمساويون ، وأغلب أمراء الألمان ، الى دول الائتلاف المعادية له ، وقد اضطر "تورين" لأن يرجع وراء نهر "الرين" بعد ان ترك بلاد "الهلاتينات" خرابا . وكان أمير "براندنبورج" يتجمع أى يسير للانضمام الى الجيش الامبراطورى تحت قيادة "بورنوفيل" . وبعد أن صد "بورنوفيل" فى إنسهام فى أكتوبر سنة ١٦٧٤ قبل أن ينضم اليه الأمير ، اضطر لأن يرجع الى "دتواينر" فى حين كان الألمان قد انشروا فى بلاد "الألزاس" واستقروا فى المدن الواقعة بين "ستراسبورج" و "بالفور" لقضاء فصل الشتاء فيها . وهنا تهاى المسرح "لتورين" ينثل عليه أبداع أعماله . وأول ما فاجأ به عدوه هو أنه صمم على السير بجملته فى منتصف فصل الشتاء . ثم انه هيا القلاع الموجودة فى منتصف اقليم "الألزاس" للدفاع لكى يخدع عدوه . وبعد ذلك سحب جيش الميدان بأجمعه الى اقليم "اللورين" فى سكون وبغير جلبة . ثم سار مسرعا نحو الجنوب واختفى وراء مرتفعات جبال "الفودج" أخذا معه كل ما كان موجودا

من جنود المدد . وفي آخر مرحلة من مراحل حركته فرق قوته وقسمها أقساما صغيرة ليضلل جواسيس العدو . وبعد سير شاق من خلال التلال وفي عواصف الثلوج أعاد جمع جيشه بالقرب من "بلفور" وأطلق جنوده تنساب متدفقة الى مقاطعة "الألزاس" من الجنوب . بعد أن كان خرج منها من جهة الشمال . وهنا أراد "بورنوفيل" أن يوقفه في "مولها وزن" في ٢٩ ديسمبر مستخدما لايقافه الجنود التي كانت موجودة بالقرب منه ولكن "تورين" اكتسحها أمامه وأزالها عن طريقه . ومن هناك اندفع سيل الفرنسيين صاعدا الى أعلى الحوض الكائن بين جبال الفوزج ونهر "الرين" طاردين أقسام جنود الامبراطورين المتفرقين هنا وهناك . ودافع عنهم شمالا نحو "مستراسبورج" وكل قسم يبدى مقاومة يباد ويتلف . وفي "كولمار" . في منتصف الطريق الى "استراسبورج" كان الأمير الذي صار الآن قائد الألمانيين قد أقام سدا نهائيا تحمي قوة تعادل قوة "تورين" . على أن القوة الدافعة كانت لدى "تورين" من الوجهتين المادية والأدبية وقد حافظ عليها بمهارة بأن اقترب اقترابا تكتيكيا غير مباشر في ميدان "توركهايم" . وكان "تورين" لا يرمى الى ائتلاف الجيش المقاوم وإبادته بقدر ما كان يرمى الى "تصفية" المقاومة المشتدة . وترك النتائج الطبيعية تكمل انحلال العدو . وقد نجح في ذلك الى درجة أنه استطاع أن يقول في تقريره بعد ذلك ببضع أيام انه لم يبق في الألزاس جندي واحد من جنود العدو . وبعد ذلك استراح الفرنسيون في ثكنات الشتاء في "ستراسبورج" وكانوا يستوردون مؤوتهم بكثرة من الشاطئ الألماني لنهر الرين . بل ومن بقية الأراضي حتى نهر "النكار" . أما الأمير فانه رجع الى "برندنبورج" مع من تبقى من جنوده ، واستدعى "مونتى كوكولى" ، منافس "تورين" القديم ، لتولى قيادة المقاومة الامبراطورية . وهذا أيضا استدرج بالمناورات الى موقع على نهر "الساسباخ" لم يكن في صالحه . على أن "تورين" أصابته طلقة مدفع في فاتحة القتال أردته قتيلا . وبسقوطه انقلبت كفة الحرب ثانيا .

فما هو السبب في كون هذه الحملة التي قام بها "تورين" في فصل الشتاء جاءت حاسمة . مخالفة لبقية حملات القرن السابع عشر في قارة أوروبا مخالفة تستوجب الدهشة؟ السبب في ذلك هو أن قادة ذلك العصر ، بالرغم مما كانوا عليه من قصر مرعى النظر ، كانوا على مهارة تامة بالمناورات . ولكنهم كانوا أكفاء في هذا الفن حتى ان الحركات الجانبية التي كان يحتمل أنها تنجح في الأعصر الأخرى ، كانت تُتقَى بحذق نادر فلم يحصل أن ترزح "نظام" الخصم إلا مرة واحدة . وقد اشتهر "تورين" بأنه القائد الكبير الوحيد الذي أخذ يتمشى في الرقي مع العصر . ومما لا شك فيه أن كونه قد توصل في آخر حملاته الى حل مسألة الحصول على الخصم والفصل في حروب القرن السابع عشر ، والكيفية التي توصل بها ، بعد أن تولى القيادة

في حملات أكثر من أى قائد آخر في التاريخ لها مغزى خاص . لأنه توصل الى ذلك دون أن يخرج على القاعدة « الذهبية » في تلك الأيام — وهى أن الجنود المدربين تدريباً عالياً لهم من القيمة ما لا يسمح بالاسراف فيهم .

فمن الواضح والحالة هذه أنه توصل الى ذلك بتجاربته التي دلته على أنه في مثل هذه الظروف لا يمكن الحصول على نتيجة حاسمة إلا بخطة استراتيجية يكون فيها الاقتراب غير مباشر ، من أوله ، بكيفية أكثر مما سبق التفكير فيه . أى بكيفية لم يسبق أن طرأت على فكر أحد . وعلى ذلك فهو في العصر الذي كانت فيه كل المناورات تؤسس على مراكز تتحرك حولها وهى القلاع التي كانت عبارة عن مستودعات محمية للمؤن التي تعيش عليها جيوش الميدان . في ذلك الوقت انفصل هو عن قاعدة عملياته و لجأ الى المفاجأة وخفة الحركة لا للحصول على الحسم فقط ، بل لضمان سلامته أيضاً . ولقد كان حسابه مصيباً ، لا مجازفة . لأن زحزحته للعدو من كل الوجهات العقلية ، والأدبية ومن حيث علم تحركات الجيوش وتموينها ، كل هذه قد كفلت له السلامة المؤكدة في كل عملياته .

الباب السادس

القرن الثامن عشر — مارلبورو وفردريك

ان حرب ارتقاء عرش أسبانيا (سنة ١٧٠١ — ١٧١٣) هي الحرب الأوروبية العامة ، أى ” الحرب العظمى ” الثانية فى التاريخ الحديث . ومن الغريب أن هذه الحروب العظمى كانت تتكرر وبين الواحدة منها والأخرى مدى قرن واحد . فان أوائل القرن السابع عشر شهدت بدء حرب الثلاثين سنة ، وأوائل القرن الثامن عشر شهدت حرب ارتقاء عرش أسبانيا . وفى ختام هذا القرن أضمرت الثورة الفرنسية النار فى أوروبا . على أن الذى أوصل النضال الى حده انما هو تهديد نابليون فى العشرين الأولى من سنى القرن التاسع عشر . وفى العشر السنين الثانية من القرن العشرين جاءت أشد الحروب هولا فى هذه ” الحروب العظمى ” .

فحرب ارتقاء عرش أسبانيا تمتاز بغربتها بأن كانت بين فريقين اثنين . فهى سياسيا كانت حالة متطرفة من حالات ” الحرب المحدودة الغاية ” من جهة . ونضالا حاسما لتأييد سيادة الدولة الفرنسية تحت حكم لويس الرابع عشر أو تحطيمها من جهة أخرى . أما من الوجهة الاستراتيجية فكانت تشتمل بصفة رئيسية على سلسلة من الاقتراب المباشر التى لا طائل تحتها . أو تكاد تكون تحركات غير مباشرة لا تزيد نتائجها عن تلك . ومع ذلك فكانت تتخللها عدة من حالات الاقتراب غير المباشر الباهرة . وهذه كان يقترن أغلبها باسم ” مارلبورو ” الذائع الصيت . والمهم فى هذه الحالات هو أنها كانت تبين مواضع الانقلابات التى كانت تطرأ على الحرب .

والدول التى ائتلفت ضد فرنسا وتألبت عليها كانت تشمل النمسا ، وبريطانيا العظمى ، وعدة من الولايات الألمانية ، وهولندا ، والدانمارك ، والبرتغال ، فى حين ان التعضيد الرئيسى الذى لقيه ” لويس ” الرابع عشر جاء من أسبانيا ، وبافاريا ، ومن سافوى فى بادئ الأمر . وافتتحت الحرب فى إيطاليا الشمالية بينما كانت الجيوش الأخرى تتأهب وتستعد . أما النمساويون فقد تجمعوا تحت قيادة ” أوجين ” فى مقاطعة ” التيرول ” . وقام ” أوجين ” بالاستعدادات لزحف مباشر مع التظاهر والفتخفة ، كانت نتيجة أن قام الجيش المقاوم له الذى كان تحت قيادة ” كاتينات ” باتخاذ وضع يسد به طريق ” أوجين ” فى مضيق ” ريفولى ” . على أن أوجين كان قد استكشف سرا ممرا وعرا بين الجبال لم تسلكه جنود منذ زمن طويل ، وهبط الى السهول بعد ان دار دورة واسعة نحو الشرق . لحافظ على ميزته

واستمر في الضغط بعدة مناورات كان من شأنها ان شتت أفكار خصمه وجولتها عما كان يرمى اليه . وأخيرا استجلبه للهجوم عليه في "يكارى" هجوما كان كارثة على الخصم فوطد مركزه في ايطاليا الشمالية . ونتيجة هذا الاقتراب غير المباشر لم تقتصر على زيادة القوة المعنوية لدى الحلفاء بوجه عام في أوائل نضالهم مع جيوش "الملك العظيم" التي "لا تغلب" فحسب ، بل انها كانت ضربة على قوة فرنسا واسبانيا في ايطاليا لم يستفقا منها . وكانت لها نتيجة من الأهمية بمكان هي أن دوق "سافوى" الذي كان بطبيعته تتبع الجانب الأقوى تحول الى جانب الحلفاء .

وفي سنة ١٧٠٢ ابتدأ النضال الرئيسى . فتجمع أكبر الجيوش الفرنسية في "فلاندرز" حيث كان الفرنسيون قد حصنوا "خطوط برابانت" البالغة ٧٠ ميلا طولا من "انتورب" الى "هوى" بالقرب من "لياج" ليؤمنوا مؤخرة زحفهم الذى نووه . أما الهولنديون فبمجرد ما رأوا أن الغزو يهددهم لم يفكروا فى شيء سوى الإقامة فى قلاعهم فلا يبارحونها . على أن "مارلبورو" كانت له فكرة عن الحرب تحالف هذه . فهو لم يقتصر على استبدال هذه المدافعة السلبية بحركة تعرضية مباشرة ضد الجيش الفرنسى الذى تحت قيادة "بوفلير" الذى كان سائرا اذ ذاك الى نهر الرين . بل انه بدلا من ذلك كشف القلاع وأسرع بالحركة قاصدا "خطوط برابانت" وخط رجعة "بوفلير" . فما كان من "بوفلير" الا أن شعر بجذب هذه "الأشوطة" الأدبية فأسرع بالرجوع . ولما كان الجيش الفرنسى قد أعياه التعب جثاميا وترعزعت قواه المعنوية فانه كان قد أوشك أن يقع فريسة "لمارلبورو" الذى كان على استعداد لأن يتلقاه بين ذراعيه أولا أن نواب الهولنديين داخلهم الفزع واكتفوا بنجاة بلادهم من الغزو ، فتهوا عن الاشتباك فى معركة لإنهاء النضال . وقد أوقع "مارلبورو" "بوفلير" فى شرك مرتين أخريين فى هذه السنة وفى كل مرة منهما كان الهولنديون يخلصون "بوفلير" من الشرك . وفى السنة التالية وضع "مارلبورو" خطة تدل على الدهاء لمناورة يستولى بها على "انتورب" فيحطم ذلك الحاجز المنيع . فانه استدرج الجيش الفرنسى الى شرق "انتورب" ثم تخلص منه وأسرع يتسابق نحو الغرب الى "انتورب" — ولكنه وجد أن القواد الهولنديين قد أهملوا الاحتشاد فى الوقت المقرر — فأفسدوا عليه كل تصميمه . فاشتماز "مارلبورو" واكتفى بحرب الحصارات الصغيرة التى توافق أمرجة الهولنديين . غير أنه فى سنة ١٧٠٤ أبرز أسى اقترابه غير المباشر .

وكانت جيوش العدو هكذا : واحد فى "فلاندرز" تحت قيادة "فيليروى" . وواحد تحت قيادة "تالارد" على نهر "الرين" الأعلى بين "مانهايم" و"ستراسبورج" وبينهما قوات صغيرة للاتصال . وواحد مؤلف من البافاريين والفرنسيين تحت قيادة أمير "بافاريا" "ومارسين" بالقرب من "أولم" ونهر الدنوب . وهذا الجيش الأخير كان مندفعاً الى الأمام من بافاريا يهدد "فيينا" . فرسم "مارلبورو" خطة تنطوى على تحويل القسم الانجليزى من

جيشه عن وجهته من نهر "الموز" الى نهر "الدنوب" ، تاركا الهولنديين وراءه . ثم انزال ضربة حاسمة بالبارافين الذين هم الشريك الأصغر في العدو . فهذه الحركة البعيدة المرمى المتجهة نحو نقطة تبعد عن قاعدته هذه المسافة الشاسعة ، كما تبعد عن المصالح المباشرة التي كان يحافظ عليها جهة الشمال ، كانت حركة جريئة بموجب كل قاعدة . ولكنها كانت أكثر جرأة بموجب الاستراتيجية المبنية على الحذر التي كانت متبعة في ذلك الوقت . أما سلامتها فكانت منحصرة في التأثير الذي أحدثته مفاجاتها للعدو فزحزحته . ولما تحرك نحو الجنوب هابطا نهر "الرين" كان الظاهر أنه يقصد الجنود الفرنسية الموجودة في ذلك الميدان . وقد أيد هذا الايهام الطبيعي بأن قام باستعدادات تدل في ظاهرها على اقامة (أى بناء) جسر (كوبري) على نهر "الرين" في "فيليبسبورج" . ولكن عند وصوله الى "مانهايم" حيث يكون من الواضح أنه يتجه منها نحو الجنوب الغربي ، خالف ذلك الاتجاه واتجه نحو الجنوب الشرقي ثم اختفى في وادي "النكار" صعدا . ومن هناك عبر قاعدة المثلث المكون من نهري "الرين" و"الدنوب" متجها نحو "أولم" . وبعد أن اتصل "بمارجراف" "بادن" و"أوجين" ، تحرك مع قوات الأول منهما بينما عاد الثاني ليعوق تقدم الفرنسيين أو ، على الأقل ، يؤخرهم على نهر "الرين" — حيث كان "فيلدروي" قد اقتفى أثر "مارلبورو" من "فلاندرز" متأخرا .

على أن "مارلبورو" ولو أنه كان قد وضع نفسه على مؤخرة الجيش الفرنسي — البارافى بالنسبة لفرنسا ، فانه كان ما يزال أمام ذلك الجيش بالنسبة "لبارافيا" . فهذا الجوار الجغرافي الذي يكاد يكون تماسا هو وظروف ذلك العهد حالا دون استناره مزايا خطته الاستراتيجية . وأحد هذه الظروف هو صلابه التنظيم التكتيكي للجيش ، التي تجعل اتمام المناورة الاستراتيجية أمرا صعبا . فان القائد في استطاعته أن يجر العدو الى الماء ولكنه لا يستطيع أن يرغمه على الشرب — أى انه لا يمكنه أن يرغمه على قبول المعركة على غير ارادته . وظرف آخر هو أن "مارلبورو" كان عليه أن يتبادل القيادة ، يوما بعد يوم ، مع "مارجراف" "بادن" الشديد الحذر .

وكان العدو مستحكما في موقع قوى في "أولم" على نهر الدنوب . فأراد "مارلبورو" في بادئ الأمر أن يجد مزايا هذا الموقع يكون بغير حراسة لير منه ويأتي من وراء العدو . ولكنه بدلا من أن يجازف بزيادة التأخير بسبب حذر "مارجراف" اختار اليوم الذي يتولى فيه القيادة وقام فيه باقتحام أقسام العدو التي كانت تستر معبر "دوناو ويرث" اقتحاما كلال بالفوز وان كان غالى الثمن . على أن جيش العدو الرئيسي رجع سالما الى "أوجسبورج" . وعندها أخذ "مارلبورو" يخرب البلاد ليكون تحريبه لها دافعا لأمر بارافيا لقبول الشروط التي يفرضها عليه ، أو أن يقبل دخول معركة في ظروف ليست في صالحه . وهذه النية أفسدها ظرف آخر

من ظروف تلك الأزمات — ذلك هو أن الحرب من شؤون الحكام لا من شؤون الاهالى ، ولم يهتم الأمير بالمضايقات التي هي في الدرجة الثانية . وعلى ذلك توافر الوقت لدى "تالارد" ليصل قادما من "الرين" . على أن وصوله قابله وصول "أوجين" الذي تجرأ وتسلل من أمام "فيليروى" لينضم الى "مارلبورو" . فتحرك كل من "مارلبورو" و "أوجين" زاحفين على الجيش المشترك بين "تالارد" و "مارسين" والأمير على غير انتظار . ومع أن المفاجأة لم تكن تامة ، الا أنهما صادفاهم في "بلنهام" وهم بأوضاع مرتبكة كان من شأنها أن أتاحت لـ "مارلبورو" الفرصة لزعزعتهم تكتيكيا . فكان من ثمة هذا النصر أن استبعد الشريك الأصفر الذي هو "بافاريا" من الحرب نهائيا . فضلا عن تشتت جيشين فرنسيين وتمزيق "مناعة" جنودهم .

وبعد ذلك رجع "مارلبورو" الى "فلنדרز" فانسحب منها الجيش الفرنسي الى ما وراء "خطوط جيت" الجديدة — من "انتورب" الى "نامور" . وفي سنة ١٧٠٥ أيضا جرح الجيش الفرنسي وأبعده في اتجاه ضال ثم رجع مسرعا واخترق قطاعا ضعيفا ولم يحل بينه وبين النصر سوى تناقل الهولنديين . وفي حملة السنة التالية ابتكر "مارلبورو" اقترابا غير مباشر أبعد غورا من سابقه — لينضم الى "أوجين" في ايطاليا ولكن جبن الهولنديين قيده في "فلاندرز" . ومع ذلك فإن نوبة الجراءة التي استولت على "فيليروى" بفأفة فدفعته الى المغامرة بالخروج من خطوطه المستحكمة قد مكنت "مارلبورو" من مقاطعته في الطريق قبل أن يتمكن من الالتجاء الى قلاع "الموز" . وقد فعل ذلك "مارلبورو" دون أن ينتظر جنود حلفائه ليخرجوا معه . وفاز بالنصر في "راميليز" بفضل اقتراب تكتيكي غير مباشر باهر . واستغل هذا النصر بأن تعقب العدو تعقبا أدى الى سقوط كل بلاد "فلاندرز" و "برابانت" في قبضة يده . وفي نفس هذه السنة انتهى الحرب في ايطاليا فعلا بمثال آخر من الاقتراب غير المباشر . ذلك أن "أوجين" أرغم في بادئ الأمر على التقهقر حتى وصل الى بحيرة "جاردا" ومنها الى الجبال ، بينما كان حليفه ، دوق "سافوي" محصورا في "تورينو" . "أوجين" بدلا من أن يحاول أن يشق طريقة حربا تفوق على خصمه في المناورات وتسلل منه وانفصل من قاعدته وتركها ثم والى الضغط حتى نكذ من "لومبارديا" الى "ميمونت" . وفي "تورينو" أنزل بالعدو هزيمة حاسمة مع أنه كان متفوقا عددا على "أوجين" ولكن عقليته كانت قد ترعزعت .

وفي ذلك الحين كانت الحرب قد انكششت واقتصرت على الحدود الفرنسية اوية شمالا وجنوبا غير أنه في سنة ١٧٠٧ قام الخلاف بين الحلفاء فتوافر الوقت لدى فرنسا لتستجمع قواها . وفي السنة التالية حشدت قواتها الرئيسية ضد "مارلبورو" . ولما كان "مارلبورو" مقبدا في "فلاندرز" وكان العدو يتفوق عليه عددا بكثير ، فانه تبادل مع "أوجين" عكس حركة "الدنوب" بأن تحول جيش "أوجين" من الرين لينضم الى "مارلبورو" . على أن الفرنسيين

كان يقودهم الآن قائد قدير هو "فيدوم" فتقدموا قبل أن يصل "أوجين" ، وبعد أن أغرى "فيدوم مارلبورو" على التقهقر الى "لوفان" بهذا التهديد المباشر ، تذرع بالحيلة لأول مرة وتحول بجأة نحو الغرب فاسترجع "نغنت" و "بروجز" وفي الواقع كل "فلاندرز" غربى نهر "الثلث" دون أن يكلفه ذلك شيئا . على أن "مارلبورو" بدلا من أن يسير اليه ويقاومه مباشرة جازف بالاندفاع نحو الجنوب الغربى ليحول بينه وبين الحدود الفرنسية . وفي "أودينار" والى الضغط الى نهايته فزحزح العدو تكتيكيا على أثر الميزة الأولى التى اكتسبها بزحزحته استراتيجيا .

فلو أن "مارلبورو" كان فى استطاعته أن ينفذ رغبته فى التحرك الى باريس على الفور لكان من المحتمل أن تنتهى الحرب . فان "لويس" حتى مع ما كانت عليه الحالة اضطر لأن يطالب الصلح فى ذلك الشتاء وعرض على الحلفاء شروطا فيها ما يكفى مقاصدهم . ولكنهم رفضوها فرفضوا المادة فى سبيل الخيال الذى هو اتمام اذلاله . ولهذا الأسباب تجدد الحرب ثانيا فى سنة ١٧٠٩ . فكان مشروع "مارلبورو" عبارة عن اقتراب عسكري غير مباشر الى غرض سياسى فيه الحل المطلوب - وكانت فكرته تتطوى على التسلل من وراء قوات العدو وتفطية قلاعهم ثم اتخاذ "باريس" هدفا . على أن هذه الحركة تتجاوز الحد فى الجراءة حتى عند أوجين وعلى ذلك فانها عدلت الى خطة تتطوى على التقادى من الهجوم المباشر على "الخطوط" المستحكمة التى تسيطر الحدود بين "دوواى" و "بيتون" . ولكنها بدلا من ذلك كانت ترمى الى الحصول على القلعتين الجانبيتين "طورناى" و "مون" تمهيدا للزحف الى داخل فرنسا على طريق شرق المنطقة المستحكمة . وهنا أيضا تمكنت عبقرية "مارلبورو" من خداع العدو . فان تهديده بالهجوم المباشر على الخطوط أدى بهم الى سحب معظم جنود حامية "طورناى" لتمييزها . وعند ذلك رجع "مارلبورو" على جناح السرعة وضيق على "طورناى" ولكنها مع ذلك استبسلت فى المقاومة حتى آخرته مدة شهرين . غير أنه تمكن بهجمة جديدة صوبها الى « خطوط لاباسيه » من الانقضاض على "مون" ومحاصرتها دون أن يعوقه عائق . على أن الفرنسيين تحركوا مجتازين الفضاء بدرجة من السرعة كافية لسد طريقه والحيلولة دون تنفيذ خطته . وهنا تورط "مارلبورو" لأول مرة فى اقتراب مباشر ، أقل حكمة من اقتراب "كرومول" من "دنبار" . ومع أن اقتحامه العدو الذى كان مستعدا فى متاريس جيدة وكان يحافظ على « بوابة » "ماللاكيت" انتهى بالنصر فانه كلفه من الأنفس ما جعل "فيللارد" القائد المهزوم يكتب الى لويس يقول : « لو أن الله أعطانا هزيمة أخرى مثل هذه لأبيد أعداء جلالتم » وقد كان لقوله صدق النبوة فان انتصار "ماللاكيت" كلف الحلفاء آمالهم فى النصر فى تلك الحرب .

وفى سنة ١٧١٠ سادت حالة « مات الشاه » وأصبح "مارلبورو" محبوسا كأنه فى قفص وراء الخطوط « النهائية » التى كان الفرنسيون أقاموها من "فالنسين" الى البحر

فكانت فرصة لأعدائه السياسيين في وطنه اتخذوها حجة لتقويض مركزه . ثم ان الحظ تنكر أيضا للذين فقدوا رعايته ، ففي سنة ١٧١١ استدعى جيش أوجين الى بلاده بسبب موقفها السياسي وبقي مارلبورو مواجهها لعدو يتفوق عليه كثيرا . ولما كان بدرجة من الضعف لا يستطيع معها أن يحاول أو ينفذ أى عملية حاسمة فإنه استطاع على الأقل أن يثبت مقدراته بتفنيده ما كان الفرنسيون يفتخرون به مما أسموه الخطوط « التي ليس بعدها خطوط » وقد فعل ذلك باقتربه غير المباشر الذي كان أكثر دهاء وأبعد حيلة من كل ما قام به من الاقتراب فأخذ يخدع العدو ، ويحول أفكاره . ويسرع في السير مرارا متوالية حتى تمكن من الانسلاخ من الخطوط ونفذ منها دون أن يطلق طلقة . ولكنه استدعى بعد ذلك بشهرين الى انجلترا ليلقي الاذلال والعار . وفي سنة ١٧١٢ هجرت انجلترا حلفاءها وتركهم يقاتلون وحدهم . فبقى النمساويون والهولنديون تحت قيادة أوجين محافظين على موقفهم مدة من الزمن ثم أخذ التعب والاعياء يستولى على كلا الفريقين المتحاربين . غير أنه في سنة ١٧١٢ قام « فيلار » بمناورة مشتركة كان ما انطوت عليه من الخداع ، والتكتم ، والسرعة مما يليق « بمارلبورو » . وفي نهاية الأمر فاز بنصر حاسم على كل الحلفاء في « دينين » لم يكلفه الا القليل . وبذلك تم انحلال الائتلاف وتمكن « لويس » من عقد صالح يختلف كل الاختلاف عما كان يكون من نصيبه قبل معركة « مالپلاكيت » . ففيها حصل اقتراب مباشر أضع كل النوائد التي اكتسبتها الاقترابات غير المباشرة . والأمر الذي لا يقل عن ذلك مغزى هو أن النضال انتهى أخيرا بعكس ما انتهت اليه تلك المعركة . وكان ذلك بمثابة آثر من الاقتراب غير المباشر .

ومع أن الحلفاء حرموا من غرضهم الأصلي وهو منع « لويس » الرابع عشر من إيجاد اتحاد فعلى بين فرنسا وأسبانيا فإن انجلترا خرجت من الحرب رابحة في الممتلكات . والفضل في ذلك يرجع الى بعد نظر « مارلبورو » وامتداده الى ما وراء حدود مسرح عملياته الضيق . فإنه جمع بين العمليات البعيدة المدى في البحر الأبيض المتوسط والعمليات الخاصة به في « فلاندرز » كوسيلة لتشيت فكر العدو من الواجهة العسكرية ، وميزة تبقى في جانبه من الواجهة السياسية . فتجريدتا سنة ١٧٠٢ وسنة ١٨٠٣ ساعدتا على استبعاد بلاد البرتغال « وسافوى » من جانب العدو ومهدتا الطريق لحركة موجهة ضد « سنده » الأكبر وهو اسبانيا وتجريدة سنة ١٧٠٤ التالية ربحت جبل طارق . ثم ان « بيتر بورو » قام بدور مشئت لفكر العدو في اسبانيا يدل على المقدرة ، وفي سنة ١٧٠٨ استولت تجريدة أخرى على جزيرة « مينورقة » . فاذا كانت العمليات التي أجريت في اسبانيا بعد ذلك أسبئت ادارتها وكانت أقل حظا في نتائجها ، فانجلترا خرجت من الحرب تملك جبل طارق وجزيرة مينورقة وهما مفتاحان لسيادة البحر الأبيض المتوسط ، « ونوفاسكوشيا » و « نيفونداند » في المحيط الاطلنطي الشالى .

ثم ان نتائج حرب ارتقاء عرش النمسا التي وقعت في سنة ١٧٤٠ — ١٧٤٨ ولم تكن حاسمة ، لا يمكن التعبير عنها بأفصح من العبارة التي أصبحت دارجة بين الأمة التي كانت أكثر الأمم فلاحا من الوجهة العسكرية — الأمة الفرنسية — وهي قولهم ”انك لبليد بلادة الصالح“ فهذه الكلمة كانت توجه الى المواطنين الذين هم موضع الكراهية . والحاكم الوحيد الذي استفاد منها بالوسائل المشروعة أو غير المشروعة هو فردريك الأكبر . فانه ربح ”سليسيا“ مبكرا ثم انسحب من المباراة . ومع أنه عاد اليها فيما بعد فانه جازف بخسارة الشيء الكثير دون أن يربح أ لثر مما ربحه سوى حق تطريز بنوده بأسماء بعض الانتصارات الشهيرة . غير أن هذه الحرب علاوة على ذلك وطدت نفوذ بروسيا كدولة عظمى . والحوادث التي قضت بترك ”سليسيا“ لبروسيا في معاهدة الصلح الأولى التي عقدت في ”برسلاو“ سنة ١٧٤٢ هي من الحوادث التي تستحق الذكر لأن الآمال في بدء هذا العام كان يظهر أنها قريبة من الخيبة . فقد تم الاتفاق بين الفرنسيين والبروسيين على الزحف على الجيش النمساوي الرئيسي بالاشتراك معا . ولكن سرعان ما أرغم الفرنسيون على التوقف في أما كنهم . فما كان من ”فردريك“ الا أنه بدلا من موالة السير غربا لينضم على حليفته اتجه بجأة نحو الجنوب قاصدا ”فيينا“ . ومع أن مقدمة جنوده ظهرت أمام عاصمة العدو فانه أسرع بالرجعة وسار جيش العدو ليقطع عليه رجعته ويفصله عن قاعدته . وهذا الزحف الذي زحفه ”فردريك“ اعتاد الناس أن يعيروه عليه بأنه مجرد مظاهر طائشة . ومع ذلك فقد تكون هذه التهمة قاسية اذا روعيت نتيجة هذا الزحف . فانه بهذا التقهقر السريع ، الذي كان في ظاهره طلبا للنجاة . جر النمساويين وراءه متعقبين الى مسافة بعيدة حتى توغلوا في سليسيا . وعندها انقلب كارا عليهم فهزمهم ثم استغل الهزيمة بشدة تعقبه لهم . ولم يمض على هذا الحادث سوى ثلاثة أسابيع حتى عقد النمساويون صلحا منفصلا مع ”فردريك“ من شرائطه تنازلهم له عن سليسيا . وقد لا يكون من الحكمة التبسط في الاستنتاج من هذا الحادث . ولكن أقل ما هناك هو أن الشيء العجيب في ذلك أن هذا الميل الفجائي لعقد صلح مع التضحية قد جاء على أثر الاقتراب الوحيد غير المباشر الذي حصل في هذا المسرح مدة الحرب . مع أن هذا الاقتراب لا يتضمن شيئا أكثر من مجرد الظهور أمام ”فيينا“ ونصر تكتيكي صغير استخلص ، على ما يظهر ، من بين أنياب الهزيمة . فضلا عن أنه كان أقل تظاهرا من انتصارات ”فردريك“ الكثيرة الأخرى .

واذا كانت حرب ارتقاء عرش النمسا ليست حاسمة في نتائجها العامة ، فان الحرب الكبرى الأخرى التي وقعت بعدها في منتصف القرن الثامن عشر لم تكن أحسن منها — من وجهة نظر السياسة الأوروبية . فان المملكة الوحيدة التي أحرزت نتائج وكانت حاسمة في التأثير على مجرى التاريخ الأوربي هي إنجلترا . ولم تكن إنجلترا اذ ذاك شريكا غير مباشر في حرب السبع السنين (١٧٥٦ — ١٧٦٣) فحسب ، بل انها ساهمت فيها وحصلت على ربحها منها

بطرق غير مباشرة أيضا . لأنه في الحين الذي كانت فيه جيوش أوروبا تنهك قواها وتستنفد موارد بلادها في قتال مباشر . كانت أقسام صغيرة من الجنود المرسلة من إنجلترا تستغل ذلك الضعف لقائدها بأن أوجدت الامبراطورية البريطانية . وفضلا عن ذلك فإن حصول بروسيا على صلح غير حاسم بدلا من صلح مذل ، وهى مشرفة على التضعف ، كان الفضل فيه لزحمة قوة فرنسا الهجومية زحمة غير مباشرة بسبب ما حل بمستعمراتها من الكوارث ، وزحمة "الضربة القاضية" التى كان فى نية روسيا أن تنزلها بروسيا ، بسبب وفاة زوجة القيصر فإن سلسلة الانتصارات الباهرة الكثيرة التى أحرزها فردريك الأكبر فى المعارك لم يكن من نتائجها الا أنها تركته وقد تجرد من موارده بوجه القريب ، فأصبح فى سنة ١٧٦٢ عاجزا عن موالاة المقاومة .

وعلى ذلك فليس فى الحملات الأوربية التى توالى وراء بعضها بعضا بين الجنود الأوربية فى هذه السلسلة الطويلة ما يسمى حاسما بحق ، سواء فى نتائجها العسكرية والسياسية ، الاحملة "كويك" . وهذه الحملة لم تكن أقصر الحملات أجلا فحسب . بل انها وقعت فى مسرح ثانوى . فكما أن الاستيلاء على "كويك" والتغلب على السيادة الفرنسية "بكندا" صارا فى حيز الامكان بفضل المقدرة على الاقتراب غير المباشر المؤسس على الاستراتيجية العظمى ، المتوفرة فى القوة البحرية ، كذلك كان الحسم والفصل فى الحملة من وجهة مجراها الحربى راجعا الى الاقتراب الاستراتيجى غير المباشر . وفضلا عن ذلك فإن الدرس المستفاد له مغزى أكبر بسبب أن هذا الاقتراب غير المباشر الذى يظهر أنه مخفوف بالأخطار لم ينتهج الا بعد أن أخفق الاقتراب المباشر الى خط نهر "المونتمورانسى" بنحسائر فادحة فى الانفس وأكثر منها فى القوة المعنوية . وانصافا "لوف" لا بد من التنويه بأنه لم يستسلم لهذا الاقتراب المباشر الا بعد أن فشل الطعم الذى ألقاه للعدو — من ضرب "كويك" بالمدافع وتعرض أقسام منفصلة فى "بوينت ليفى" وبالقرب من شلالات "مونتمورانسى" — فى استدراج الفرنسيين للخروج من موقعهم القوى . على أن هناك درسا يستفاد من اخفاق هذه الوسائل متى قورنت بالنجاح الذى صادفته أخيرا المخاطرة بانزال جنوده الى البر على مؤخرة الفرنسيين صعدا من "كويك" . فاستدراج العدو لم يكف . وكان من الضرورى أن يجره الى الخارج . وكذا أيضا اخفاق الهجمات الكاذبة التى حاول "وولف" بها أن يهبط اقترابه المباشر . فان تضليل العدو لم يكن كافيا . فلا بد من تحويل أفكاره — وذلك معناه الجمع بين مخادعة عقل العدو ، وحرمانه من حرية التحرك ليقوم بعمل مضاد ، وانتشار جنوده . ومع أن حركة "وولف" النهائية كانت تظهر للناس أنها سطوحيا انها آخرمية يلقىها المقامر ، فإن كل هذه الشروط قد توفرت فيها — وكانت النتيجة النصر . وحتى عند الذين من عادتهم أن يدرسوا التاريخ الحربى من وجهة مقدار القوة المساحة يظهر أن درجة

ما أصاب القوات الفرنسية من الزحمة لم تكن مبررة لدرجة سقوطهم . ولقد كتبت عجالات كثيرة تبين ما كان في استطاعتهم أن يعملوه . وكيف كان يتسنى لهم أن يصلحوا موقفهم . ولكن معركة "كويك" هي مثال بارز على صدق القول بأن الحسم يحصل بزحمة جيش عقليا ومعنويا أكثر مما يحصل بزحمة جنوده جثائيا . وهذه النتائج تفوق على التقديرات الجغرافية والاحصائية التي تملأ تسعة أعشار كتاب عادى في موضوع التاريخ الحربى .

ولكن اذا كان المجرى الرئيسى لحرب السبع السنين فى أوروبا لم يكن ثابتا فى سيره ، كما يدلنا التاريخ ، بالرغم من كثرة الانتصارات التكتيكية ، فان البحث عن السبب أمر يستحق العناية . فاذا كان عدد أعداء "فردريك" هو التفسير المعتاد لذلك فان جملة ما أحرزه من المزايا يقابله ويزيد عليه بدرجة تجعل هذا التفسير غير واف . فعلى اذن أن نتعمق فى البحث .

"فردريك" مثل "الاسكندر" و"نابليون" وعلى عكس "مارلبورو" كان غير مقيد بالمسئولية ولا بالحدود الملزم بهما الاستراتيجى بالمعنى الصحيح . وكان يجمع فى شخصه وظائف الاستراتيجية والاستراتيجية العظمى . فضلا عن ذلك فان اجتماعه بجيشه على الدوام بصفته ملكا أمكنه من إعداد وسائله والتوسع فيها لتلائم الغاية التي يختارها . ثم ان قلة القلاع نسبيا فى مسارح حربه كان ميزة أخرى له .

ومع أن "فردريك" كان يواجه دول الائتلاف المكون من النمسا ، وفرنسا ، وروسيا ، والسويد ، وسكسونيا وليس له حليف سوى إنجلترا فانه كان متفوقا على أعدائه من حيث عدد الجنود الموجودة فعلا من أول الحرب الى منتصف الحملة الثانية . وزيادة على ذلك كانت له ميزتان عظيمتان الأولى آتته التكتيكية (جيشه) التي كانت تفوق آلة أى عدو من أعدائه . والثانية مركزه المتوسط وهذا المركز مكّنه من ممارسة ما يسمى عادة استراتيجية "الخطوط الداخلية" فينزل ضرباته من مركزه المتوسط الى الخارج موجهها اياها الى احدى القوات الموجودة على المحيط . وينتفع بأقصر مسافة فيسير للاحتشاد ضد احدى قوات أعدائه قبل أن تستمد العون من الآخر . فبحسب الظاهر يلوح أنه كلما بعدت بعض هذه القوات المعادية عن بعض سهل الحصول على نجاح حاسم . وهذه حقيقة لاشك فيها متى روعى الزمن والمسافة وعدد الجنود على أن العنصر المعنوى يدخل هنا أيضا . فعند ما تكون قوات الأعداء متباعدة بعضها عن بعض بمسافات كبيرة يكون كل منها فيه كفايته ويميل لأن يتوطد بالضغط . واذا كانت منظمة معا فانها تميل الى الاتحاد "ويصير كل منها عضوا من الآخر" وتعتمد كل منها على الأخرى بالتبادل عقليا ، ومعنويا ، وماديا ، فتتأثر عقول القادة بعضها ببعض والتأثيرات الأدبية سريعة الانتقال من شخص الى آخر . حتى انه يبقى من السهل أن حركات كل قوة تعوق حركات القوات الأخرى أو تفكك نظامها . وعلى ذلك

فإن كان الوقت والمسافة عند الخصم أقل مما يلزمه للقيام بعمله ، فإن نتائج زحزحته تظهر بدرجة أسرع وأسهل . وأيضا عندما تكون القوات متقاربة بعضها من بعض فإن مجرد تحول اقتراب العدو من واحدة منها قد لا تتوقعه الأخرى وحينئذ يصير في الحقيقة اقترابا غير مباشر بالنسبة لها . وعلى النقيض من ذلك إذا كانت القوات متباعدة بعضها عن بعض بمسافات كبيرة يتوافر لديها الوقت للاستعداد لملاقاة الضربة الثانية التي يريد الجيش الذي يستغل مركزه المتوسط انزالها أو للتفادى منها .

فاستخدام "الخطوط الداخلية" كما استخدمها "مارلبورو" في سيره الى نهر الدنوب هي صورة أخرى للاقتراب غير المباشر . ولكن ولو انه اقتراب غير مباشر بالنسبة للقوات المعادية بأجمعها فإنه ليس كذلك بالنسبة للقوة التي هي الهدف المقصود فعلا الا اذا أخذت على غرة منها . والا فلا بد من اتمامه باقتراب غير مباشر آخر — للغرض نفسه .

وكان فردريك يستخدم مركزه المتوسط دائما ليحشد جنوده ضد جزء من العدو . وكان دائما يستخدم تكتيكات الاقتراب غير المباشر . وبهذه الوسيلة فاز بانتصارات كثيرة . على أن اقترابه التكتيكي غير المباشر كان من نوع هندسي لا من نوع مؤسس على دراسة علم النفس — أى لم يسبقه تمهيد من نوع صور المفاجأة التي هي أكثر دهاء والتي كان "سيبو" يميل اليها — فكانت مناورات ضيقة النطاق وان كان تنفيذها يشف عن المهارة . فقد يكون العدو عاجزا عن تلقى الضربة لقلته مرونته العقلية أو لقلته مرونة تشكيلاته . ولكن الضربة ذاتها لم تكن غير منتظرة عند العدو .

ففى "پراج" ابتدأ الاقتراب بصورة غير مباشرة ولكنه صار مباشرا قبل أن تتم المناورة ولم يرجح كفته في المعركة الا وصول فرسان "تسايتن" الذين كانوا داروا دورة شاسعة . ولم يكن وصولهم منتظرا عند النمساويين . وفى "كولن" كانت المناورة ضيقة بدرجة أن جنود فردريك لما ضايقتهم النيران غيروا طريق سيرهم وهجموا هجوما مباشرا فأخفقوا بعد أن تكبدوا خسائر فادحة . وفى "روسباخ" كانت قوة الفرنسيين وحلفائهم ضعف قوة فردريك فحاولوا أن يقلدوا مناهرة فردريك ويقابلوه بها . فلم يكن من ضيق المناورة أن أشعره بها في وقت كاف لحسب ، بل ان اقراضهم ، على عجل ، أنه كان متقهقرا قبل ضياع الوقت أدى بهم الى تشتيت أفكار جنودهم و"تحويلها" الى يلاحقوا به حتى انه لما قام بمناورة مضادة ليقع على جناحهم الأبعد ، لاليقابلهم وجها لوجه ، ترحلوا حالا . وهنا أحرز فردريك اقترابا حقيقيا غير مباشر بواسطة المفاجأة . وليس فقط بواسطة خفة الحركة . وقد كان هذا الانتصار أكثر كل انتصاراته اقترابا . لأنه في مقابل خسارة ٥٠٠ جندي بين قتيل وجريح أوقع بالعدو خسارة ٧٧٠٠ وشتت جيشا يبلغ عدده ٦٤,٠٠٠ . ولسوء حظه كان قد استنفذ قوته بدرجة كبيرة في المعارك السابقة حالت يديه وبين جنى ثمار هذا النصر

بالكامل . وصار عليه الآن أن يعالج الجيش النمساوى الذى عجز عن تسوية حسابه معه فى "براج" و"كولن" . ومع أنه فاز فى "لويش" فان النصر الذى أحرزه فيها بواسطة اقتراب باهر ، وان كان غير مباشر فى ظاهره ، كلفه ما لا طاقة له به . وعلى هذا المنوال استمر استخدام فردريك "للمخطوط الداخلية" فى سنة ١٧٥٨ وكان الطالع يزداد عبوسا . فابتدأ باقتراب غير مباشر حقيقى ، بأن سار أمام جبهة النمساويين واجتاز جناحهم حتى وصل الى "أولتس" أى مسافة ٢٠ ميلا فى أراضى العدو . ولم يتقهقر حتى بعد أن ضاعت له قافلة تحمل عزيمة كانت تحمل مؤنا ، بل استمر فى سيره مجتازا "بوهيميا" دائرا حول مؤخرة النمساويين الى أن دخل قاعدتهم المحصنة "كونيجراتس" . ولكنه صار الآن ملزما مرة أخرى لأن يتحمل غرم الفرص التى أضاعها فى "براج" و"كولن" لأن "الآلة البخارية الساحقة" الروسية كانت الآن قد استعدت وتقدمت سائرة الى "بوزن" فى طريقها الى "برلين" . فقرّر فرديريك على أن يتجاوز عن الكمال حملته البوهيمية ويسير شمالا لوقف الروسين . وقد نجح فى ذلك الا أن "تسورندورف" كانت "براج" أخرى ولعبت فرسان "سيدلتس" دور الملاك الحارس وهو الدور الذى سبق أن لعبه "تسايتن" بصورة غير مباشرة . وعلى ذلك اضطر فرديريك لأن يترك الروسين وشأنهم ليستعيدوا قواهم وقفل راجعا للقاء النمساويين . وقد قل رأس ماله فى الرجال أكثر مما كان — فلا قاهم فى "هوخكرش" وكانت جنوده لم تزد نقصا فحسب بل انه لاقى الهزيمة بسبب تجاوزه الحد فى الثقة بأن خصمه النمساوى القديم "داون" لا يبادره بقوته الانشائية مطلقا (أى انه لا يكون البادئ بالعمل) . وعلى هذه الصورة فوجئ فرديريك مفاجأة مزدوجة وحوصر ليلا فلم ينجه من الهلاك سوى فرسان "تسايتن" اذ أبقوا ممرا مفتوحا ليتقهقر منه . وعلى هذا المثال استمرت الحرب فى سنة ١٧٥٩ وفرديريك أخذ فى التدهور . وفى "كوزندورف" لاقى أشد هزيمة عرفها فى حياته ، على يد الروسين . ولما لاقى فى "ماكسن" هزيمة أخرى من "داون" — وهذه أيضا كانت بسبب وضع الثقة فى غير موضعها — ومن ذلك الحين لم يعمل شيئا سوى مقاومة العدو مقاومة سلبية بسد الطريق أمامه . على أنه فى الوقت الذى كان فيه نجم بروسيا آخذا فى الأفول كان نجم السعد آخذا فى الاشراف فى "كوبيك" . وكان النصر الذى أحرزه "وولف" مشجعا لانجلترا ومساعدًا لها على ارسال جنود الى ألمانيا مباشرة . وهذه الجنود عوضت المصائب التى حلت بفردريك بانتصارها على الفرنسيين فى "مندن" . ومع ذلك ففى سنة ١٧٦٠ ظهر ضعف فردريك أكثر مما فى أى وقت آخر . واستراح فترة من الضغط الواقع عليه من الشرق بحيلة دبرها بأن أوقع فى أيدي الروس رسالة منه منطوقها أن "النمساويين قد انهزموا اليوم هزيمة تامة . والآن لتتجه نحو الروسين . فافعلوا مااتفقنا عليه" . ومع أن الروسين دخلت عليهم الحيلة وتقهقروا فان الهزيمة التى أصابت النمساويين فيما بعد فى "تورجاو" كانت نصرا آخر لفردريك من نوع المقامرة . ولما ارتبك فكره من جراء ما أصابه من الخسائر ولم يبق لديه

سوى ٦٠,٠٠٠ جندي . لم يجرؤ على الاشتباك في معركة ، حتى أصبح منقطعا في سلسيا وليس بينه وبين بروسيا اتصال . فمن حسن حظه كانت استراتيجية الجيش النمساوي على أشد ما هو معهود فيها من الجمود . ثم ان خدمات مؤخرة الجيش الروسي أخفقت وأصابها العطل كما هي عادت . وفي ابان هذه الأزمة توفيت القيصرة (زوجة القيصر) وجاءت التي أخلفتها فلم تكتف بعقد الصلح بل أخذت أيضا تفكر في معاونة فردريك . وبقيت كل من فرنسا والنمسا مدة بضعة أشهر في حرب متقطعة . على أن قوة فرنسا كانت قد تقوضت بسبب ما حل بمستعمراتها من المصائب . وأصبحت النمسا فضلا عن فتور الهمة في حالة من الاعياء عجلت عقد الصلح . فكادت كل البلاد التي اشتركت في الحرب في غاية الضعف . وهذه الستين السبع التي انقضت في سفك الدماء لم يستفد منها سوى انجلترا .

واذا كان في حملات فردريك الكثير من نخبه الدروس فإن الدرس الرئيسى منها على ما يظهر هو أنه كان يعتبر الاقتراب غير المباشر مسألة خفية في الحركة فقط بدلا من اشراك خفة الحركة مع المفاجأة . ولذلك فان اقتصاده في القوى خاب بالرغم مما كان عليه من النباهة والذكاء .

الباب السابع

الثورة الفرنسية و نابليون بونابرت

انساخت فترة ثلاثين سنة ثم رفع الستار عن "الحرب العظمى" التي أضاعها عبقرية نابليون بونابرت . فكما كانت فرنسا منذ قرن ، كانت في ذلك الحين أيضا الخطر المهدد الذي تألبت عليه دول أوروبا . ولكن مجرى النضال في هذه المرة كان مخالفا لما كان عليه منذ قرن . فان فرنسا الثائرة قد يكون لها كثيرون من المشاركين لها في احساسها ولكنهم ليسوا حكومات الأمم ، وليسوا هم المسيطرين على قوات دولهم المسلحة . ومع ذلك فانها لما بدأت الحرب بمفردها وهي منفصلة قهرا عن غيرها من الدول كما لو كانت تحمل جرائم مرض معد تمكنت لامن صد المساعي المشتركة التي بذلت في سبيل انقاذ انفسها فحسب ، بل انها بعد أن غيرت صورتها أصبحت تهدد كل بقية أوروبا تهديدا عسكريا متزايدا . وانتهت أخيرا بأن صارت السائدة حربيا على القسم الأعظم من أوروبا . والسرفي ذلك يرجع بعضه الى ظروف طبيعية وبعضه الى ظروف شخصية . فاما الأولى فقد نشأت عن الروح الوطنية والثورية التي كانت مستولية على جيوش فرنسا الوطنية . وهي التي أطلقت العنان للشعور التكتيكي والقوة الانشائية في الأفراد ليحلا محل التدريب الدقيق الذي أصبح غير ممكن مع وجود تلك . وهذه التكتيكات الحديثة السيالة كانت قائمة على أساس بسيط ولكنه حيوي وهو أن الفرنسيين صاروا الآن يمشون ويقاثلون بسرعة تبلغ ١٢٠ خطوة في الدقيقة في حين أن اعدادهم كانوا ما يزالون محافظين على طريقهم الأصولية وهي ٧٠ خطوة في الدقيقة . وهذا الفرق الأساسي في الوقت الذي سبق ما قدمه العلم الميكانيكي للجيش من وسائل التنقل بسرعة تزيد على سرعة السير على الأقدام ، صير سرعة انتقال قوة انزال الضربة واعادة حشدتها مع "تغيير أوضاع" الوحدات والتشكيلات أمرا في حيز الامكان . وبذا تمكن الفرنسيون ، على قول نابليون ، من عملية ضرب "الككلة في السرعة" استراتيجيا وتكتيكا .

والطرف الطبيعي الثاني هو تنظيم الجيش الى فرق مستديمة . أى تجزئته الى أقسام كل منها به كفايته ، مستقل بذاته ويعمل على حدة . وهذا التجديد ابتكره "دو-بروجلي" وكان موجودا حتى قبل الثورة . ولكن في ذلك الحين ابتكر "كارنو" وجوب تعاون هذه الفرق معا بينما تقوم كل منها بعملياتها على حدة بأن ترمى كلها الى غاية واحد مشتركة وجاء "بونابرت" فتوسع في هذه الفكرة وتطورت على يديه .

والطرف الثالث ، المرتبط بالثاني ، هو أن فوضى طريقة التموين ، وعدم النظام (الضبط والربط) في جيوش الثورة الموروثة من طبيعة تكوينها قد صيرا الرجوع الى العادة القديمة

أمرا ضروريا وهي "اعاشة الجنود من البلاد". فكان توزيع الجيش الى فرق معناه أن هذه العادة كانت تنقص من فعالية الجيش مقدارا أقل مما كانت تنقصه في الأيام السالفة فبينما كانت هذه الأجزاء في الزمن الماضي مضطرة الى التجمع قبل أن تستطيع القيام بعملية ما صارت الآن تؤدي خدمة عسكرية أثناء اعاشتها لنفسها أى اطعام نفسها بنفسها .

وفضلا عن ذلك "فان السير بدون أثقال" كان من شأنه أن يزيد سرعة حركاتها، ويمكنها من حرية التحرك في البلاد الجبلية أو ذات الغابات . وكذلك لما كانت لا تستطيع الاعتماد على المخازن والمستودعات وقوافل أى قطر نقل المؤن لتأخذ منها حاجتها من الطعام واللوازم (المهمات) كان الجياع من الجنود والذين بهم حاجة الى الملابس يحدون حافزا يدفعهم للانقضاض على مؤخرة العدو الذى يعتمد على ما لديه من وسائل التكوين المباشر .

اما الظروف الشخصية فكان محورها الذى تدور حوله هو عبقرية قائد نابليون بونابرت — تغذت مقدراته العقلية بدراسة التاريخ الحربى دراسة عميقة وأجال فيه نظره مستقصيا فلما كان متحصنا بهذه الدراسة تمكن من استغلال قوة نظام "الفرق" الجديد استغلالا تاما . وأهم ما أداه نابليون لفن الاستراتيجية ينحصر في ترقية المجال الأوسع لاستخدام الاشتراكات الاستراتيجية ترقية صارت ممكنة بوجود هذا النظام .

أما الدهشة التى سببها فشل الغزو الجزئى الأول الذى حصل في سنة ١٧٩٢ وهزيمته في "فالسى" و "جيماب" فكان من شأنها أن أخفت عن الفرنسيين حقيقة الخطر الذى كان يهدد كلا من فرنسا والنسوة فيما بعد لأن أول ائتلاف تكون ضد فرنسا — من إنجلترا ، وهولندا ، والنمسا ، وبروسيا ، وإسبانيا ، وسردينيا — لم يتم الا بعد اعدام لويس السادس عشر . ولم تاتي هذه الدول ما لديها من صدق العزيمة وموارد الرجال والمواد في كفة الحرب الا في ذلك الحين . واذا كانت ادارة الحرب من جانب الغزاة كان ينقصها الارشاد المستمر المقرون بالمهارة . فان موقف الفرنسيين كان يزداد حرجا على تماضى الأيام الى أن تغير الحظ بقاء في سنة ١٧٩٤ وأخذ سيل الغزاة يتراجع الى الوراء . ومن ذلك الحين أصبحت فرنسا هي الجانب المعتدى بعد أن كانت الفريق المقاوم ، فما هى أسباب هذا الجزر بعد المد . من المؤكد أنها لم تكن براعة استراتيجية . ومع كل فان مغزى هذه الحادثة ، مع ما كانت عليه من الابهام وبالرغم من انحدار غايتها في نطاق محدود هو أن الجسم الذى حصل فيها نشأ عن اقتراب استراتيجى لا شك في أنه كان غير مباشر . ففي المين الذى كان فيه الجيشان الرئيسيان يناضل أحدهما الآخر بالقرب من "ليسل" فضلا تسيل فيه الدماء من غير فصل أو بت ، صدر الأمر للجيش "الموز" الذى يقوده "جوردان" وهو على مسافة بعيدة جدا أن يحشد على ميسرته قوة للهجوم وبعد أن يزحف نحو الغرب مجتازا مقاطعة "الاردين" يقوم بالعمليات في اتجاه "لياج" و "نامور" . ولما وصل "جوردان" الى "نامور" عقب سير جاع

في أثناءه جنوده فكانوا يعيشون على ما يستطيعون الحصول عليه من المؤن أثناء الطريق . سمع دوى المدافع وجاءته رسالة تخبره بأن الجناح الأيمن من الجيش الرئيسى مشتبك في قتال لا نجاح فيه أمام "شارلوا" . ومع ذلك فإنه بدلا من أن يحاصر "نامور" تحرك نحو الجنوب الغربى في اتجاه "شارلوا" والجناح الخلفى للعدو . فأرهب وصوله القلعة فسامت . على أن الظاهر أن "جوردان" لم يكن يرمى الى غرض أبعد . وعلى كل حال فإن التأثير الأدبى الذى أحدثته هذه الحركة الموجهة الى مؤخرة العدو أنه ما كان نابليون وغيره من كبار الأداة يسعى اليه كنتيجة مقصودة . فإما كان من "كوبورج" القائد العام لجيش العدو إلا أن أسرع بالرجوع نحو الشرق وأخذ في جمع ما وجدته من الجنود في طريقه ثم هجم بهم على "جوردان" وهو مستحکم في متاريس يغطى بها "شارلوا" . ومع أن القتال الذى نشب بينهما كان عنيفا حتى اشتهر باسم معركة "فلوروس" فإن الفرنسيين كانت في جانبهم تلك الميزة التى لا تقدر وهى ميزة زحزة العدو استراتيجيا وجره الى الهجوم بجزء من قوته . فانهزم هذا الجزء وعلى أثر هزيمته تفهقر الحلفاء .

ولكن لما جاء دور الفرنسيين وكانوا هم الغزاة فانهم بالرغم من تفوقهم العدى عجزوا عن الحصول على أية نتيجة حاسمة في الحملة الرئيسية عبر نهر "الرين" . وفي الواقع كانت حملة ليست عقيمة الخاتمة فحسب ، بل كانت سيئة العاقبة — وذلك نتيجة اقتراب غير مباشر . ففي يولييه سنة ١٧٩٦ لما وجد الأرشدوق "تشارلس" نفسه مجابها للزحف الذى استأنفه كل من الجيشين المتفوقين عايه وهما جيشا "جوردان" و "مورو" قرراره بحسب أقواله ، على « أن يقهقر الجيشين (جيشه وجيش وارتزلين) خطوة بخطوة دون أن يتورط في معركة ثم ينتهز أول فرصة تسنح لضمهما معا لكي يلقي بنفسه على أحد جيشى العدو وهو متفوق عليه أو مساو له على الأقل » . على أن ضغط هذين الجيشين لم يسمح له بفرصة ينفذ فيها هذه الاستراتيجية « الخطوط الداخلية » التى هى عادية ومباشرة الا اذا كانت بفكرة ترك أراضى — الى أن تحولت الى اقتراب غير مباشر حقيقى بفعل بريحا ديرالفرسان "نويندرف" الذى قام به من تلقاء نفسه . فان استطلاع هذا الضابط الذى توسع فيه أراه أن الفرنسيين يقومون بحركة تحول ليتلاقوا بعدها ويتجمعوا على "وارتزلين" ليبيدوه . فأرسل الرسالة الالهامية القائلة « اذا شاء سموكم الملوكى أو استطاع أن يرسل ١٢,٠٠٠ جندى ليزحفوا على مؤخرة جوردان لكان في ذلك ضياعه » . واذا كان تنفيذ الأرشدوق لم يكن بالجرأة التى قامت عليها فكرة مرءوسه فانها كانت كافية لاحباط حركة الفرنسيين التعرضية . وكان من أثر تفهقر جيش "جوردان" الذى تمزق شمله ورجوعه بغير انتظام الى نهر "الرين" وعبوره الى الجانب الآخر ، أن اضطر "مورو" لأن يترك أعماله الموفقة في "بافاريا" ويرجع كما رجع هو .

ولكن بينما خاب المسعى الرئيسى على نهر "الرين" . وخاب ايضا مرة أخرى فيما بعد ، فان الحسم جاء من مسرح ثانوى — هو ايطاليا — حيث تمكن بونا بارت من تحويل حركات دفاعية مشكوك فيها الى اقتراب حاسم غير مباشر أدى الى اختتام الحرب بالنصر . والخطوة التى اتهمجها كانت جاهزة فى عقله منذ سنتين حينما كان من ضباط أركان الحرب فى هذه المنطقة وصارت بعدها جزءا فى نظريته عن الحرب لما كان فى باريس . فقد كان كبار المتنبئين يعبر عن أفكاره الهادئة بالأحاجى وكان أتباعه كأتباعهم من عاداتهم أن يفسروا هذه الأحاجى على غير حقيقتها . فمثلا قال فيما قال من أقواله الماثورة ، وربما كان أكثرها مغزى : « مبادئ فن الحرب هى نفس مبادئ الحصار . فيجب فيها تركيز النيران (أى جمعها) فى نقطة واحدة ويجرد شق ثغرة يختل التوازن . أما الباقي فهو لاشيء » . أما النظرية العسكرية التى أتت بعده فقد وضعت نبرة التوكيد على الشطر الأول من هذه العبارة بدلا عن الشطر الثانى . وعلى الخصوص على كلمة « نقطة واحدة » بدلا من « التوازن » فالأول لا يخرج من كونه كناية ، فى حين ان الثانى يعبر عن النتيجة النفسية التى تحقق « ان الباقي لاشيء » . وهذا التوكيد يشاهد فى المجرى الاستراتيجى لحملاته الحربية .

أما لفظة « نقطة » فقد بلغت بها الحالة أن أصبحت منشأ ارتباك كثير وجدل أكثر . فطائفة تقول ان الذى يقصده نابليون هو أن الضربة المركزة يجب أن توجه الى أقوى نقطة لدى العدو بحجة أن هذا ، وهذا وحده هو الذى يكفل النتائج الحاسمة . لانه متى انكسرت مقاومة العدو الرئيسية فان انكسارها يسرى على أية مقاومة أقل منها . وهذا القول يغفل عامل الكلفة كما يغفل الواقع . وهو أن المتضرر قد يكون من الضعف فى درجة لايسطيع معها استغلال ما ناله من الفوز — حتى ان المقاومة التى هى أقل قد تتطلب قوة مقاومة أعظم مما تطلبته المقاومة الأصلية . والطائفة الأخرى وهى المتشعبة بفكرة الاقتصاد فى القوة أكثر من الفريق الأول ولكن بدرجة محدودة فيما يختص بالشكالىف الأولى فقط . (هذه الطائفة تقول ان الغرض المقصود يجب أن يكون هو أضعف نقطة عند العدو . على أن النقطة التى يظهر أنها تركت فى حالة ضعف تكون عادة تركت كذلك لبعدها عن أى شريان حيوى أو أى مركز حساس . أو أنها تترك ضعيفة قصدا لتجر العدو الى شرك منصوب .

وهنا أيضا نجد التفسير فى الحملة التى نفذ فيها نابليون هذا القول فعلا . وزيها يتضح بجلاء أن الذى قصده نابليون ليس فى الحقيقة كلمة « نقطة » بل « مفصل » أى نقطة الاتصال . وأنه فى هذه المرحلة من مراحل حياته العسكرية كان متشعبا بفكرة الاقتصاد فى القوة بدرجة لايسطيع معها التفريط فى قوته المحدودة فيستخدمها كالمطرقة يطرق بها نقطة العدو القوية . أما المفصل فهو حيوى من جهة . وعرضة للأضرار من جهة أخرى .

وفي ذلك الحين ايضا قال نابليون عبارة أخرى اعتبرت فيما بعد مبررا لأكثر الطرائق تهورا وطيشا وهي تركيز الجهود ضد قوات العدو المسلحة الرئيسية . تلك هي قوله : ”النمسا هي العدو الكبير فتى سحقت النمسا سقط كل من ألمانيا ، وأسبانيا ، وإيطاليا من تلقاء نفسها . فيجب علينا ألا نتفرق ، بل نركز هجومنا“ . غير أن تنفيذ هذه الفكرة يبين لنا أنه لم يقصد بها الهجوم على النمسا مباشرة . بل قصد بها اقترابا غير مباشر عن طريق إيطاليا . وحتى في هذا المسرح الثانوى جعل هدفه ضرب الشريك الأصغر وهو جيش سردينيا . وإخراجه من الحرب قبل أن يلتفت الى الشريك الأكبر .

وكان بوناپارت في ”ريفيرا“ و ”جنوا“ . والنساويون والسردينيون على الجانب الآخر من الجبال الواقعة شمالا . فربح بوناپارت الميزة الافتتاحية . وكان الفضل في ذلك للخطط والتصميم سواء بسواء ، وعلى كل حال فإن ذلك لم ينقص من مغزاها ، فانه غرر بالنساويين فحولهم الى جهة الشرق وبالسردنيين فحولهم الى جهة الغرب . ثم أنزل ضربته بالمفصل ، أى مكان اتصال الجيشين ، الذى أصبح ضعيفا . ثم ضغط النساويين فأرجعهم مرة أخرى نحو الشرق فتوافر لديه الوقت والمسافة اللازمين لحشد جنوده نحو الغرب ضد السردنيين . ”فاختلت الموازنة“ فكانت لذلك من التأثير النفسانى على السردنيين أكثر من تأثير الجزية المادية فرفعوا أصواتهم طالبين عقد هدنة أخرجتهم من الحرب .

فأصبح الآن متفوقا على النساويين عددا وهم بمفردهم (٣٥,٠٠٠ مقابل ٢٥,٠٠٠) . فهل هو زحف عليهم مباشرة ؟ كلا . فانه في اليوم التالى لعقد الهدنة مع السردنيين اتخذ ”ميلانو“ غرضاً له . غير أن طريقه اليها غير المباشر كان طريق ”تورتونا“ و ”بياشترا“ . أو هو الطريق الموصل الى مؤخرتها في الحقيقة . وبعد أن خدع النساويين وجعلهم يحتشدون في ”فالنزا“ لمقاومة زحفه المتظر شمالا — بشرق ، سار شرقا بدلا من سيره على طول الشاطئ الجنوبي لنهر ”البو“ . وبذا عندما وصل الى ”بياشترا“ كان قد دار حول كل خطوط المقاومة التى كان فى امكان النساويين أن يهيئوها . غير أن عدم وجود معدات انشاء الجسور (قطر الكبارى) معه أخره في ”بياشترا“ حينما اتجه شمالا . فأسرع النساويون بالرجعة ونجوا والتجأوا الى ”مانتاو“ وصرب القلاع المشهور قبل أن يتمكن بوناپارت من استخدام نهر ”الادا“ لسد خط رجعتهم . وحتى في هذه الحالة كان قد استولى على ”ميلانو“ وسهول لومبارديا الغنية واكتسبها بلا ثمن لجنوده الذين كانوا جوعا عراة .

وبعد ذلك أنف وترفع عن الزحف نحو النمسا مباشرة التى هي العدو الرئيسى ، كما كانت تستوجبه الدواعى العسكرية الأصولية . ثم أبى أن يسير الى إيطاليا الوسطى امتثالا لأمر (الديركتوار) الذى صدر له ، لأسباب سياسية . وبدلا من هذا أو ذاك وفق بين الغاية التى يقصدها والوسائل التى لديه توفيقا يشف عن الدهاء وامتخدم ”مانتاو“ وبمناة طعم لجر قوات الانتقاذ

النمساوية التي كانت تتوارد على التوالي . وابعادها عن قاعدتها لتقع في يده . ومما هو جدير بالذكر أنه لم يستحكم في متاريس ينشئها في موقع ساتركما كانت عادة القادة التقليدية . بل أبقى قواته جواله خفيفة الحركة متخذة من الأوضاع مجموعات طليقة الارتباط مترامية الأبعاد . استطاع حشدتها في أى اتجاه كان . ففي أول محاولة قام بها النمساويون لخلاص "مانتاو" تعرضت طريقة "بونابارت" للخطر بسبب عدم رغبته في ترك حصار "مانتاو" والتجاوز عنه . ولذلك فهو لم يتمكن من استخدام خفة حركاته للتغلب على النمساويين في "كاستليونى" إلا بعد أن تخلص من هذه الربطة . وفي ذلك الحين صدر له أمر (الديركتور) بالزحف واجتياز مقاطعة "التيبول" والتعاون مع جيش "الرين" الرئيسى . فانتفع النمساويون بهذا الزحف المباشر وانسلوا متجهين شرقا بكتلة قوتهم محتازين وادى "سوجانا" وهبطوا سهل فينيسيا (البندقية) ثم اتجهوا غربا الى "مانتاو" . على أن بونابارت بدلا من موالاته الزحف نحو الشمال . أو رجوعه ليحرس "مانتاو" . انقلب وراء النمساويين وطاردهم مؤخرتهم مطاردة حارة من خلال الجبال . وبذلك أجاب على اقتراب العدو غير المباشر بمثله ولكن اقترابه هو كان له غاية حاسمة ، في حين أن الآخر كانت غايته محدودة . فلاحق مؤخرتهم وسحقها في "باسانو" ولما برز الى سهل فينيسيا متعقبا بقيتهم كان مما هو جدير بالذكر أنه أرشد المطاردين الى الحيلولة بين العدو "وتريسنا" ، وقطع خط رجعتهم الى النمسا . وأن لا يمنعوهم من المسير الى "مانتاو" . وبهذه الوسيلة انضموا الى الموجودين بمستودع "بونابارت" في "مانتاو" . فحس هذا المقدار من رأس مال النمسا العسكرية اضطرها الى البذل من جديد . وفي هذه المرة ، وهى ليست المرة الأخيرة كان من شأن اقتراب تكتيكات "بونابارت" اقترابا مباشرا ، ان جعل اقترابه الاستراتيجى غير المباشر في خطر بعد ان صادف نجاحا . فلما قرب النمساويون من "فيرونا" وهى المركز الذى كانت يحرس منه "مانتاو" ألقي بنفسه على طليعة قولاتهم الرئيسية فصدته صدة عنيفة . ولكنه بدلا من أن يتقهقر اختار القيام بمنارة متسعة ، منطوية على الجراة ، حول جناحهم الجنوى لياتى على مؤخرتهم . وقد زاد الخطر على مناورته بسبب المستنقعات ومجارى المياه التى أخرت سيره . ولكن اتجاهاها ، على الأقل ، أوقع العدو في حيرة . ولما كانت كفتا المعركة معلقين بالميزان في "اركولا" ، لحا بونابارت الى حيلة تكتيكية حاسمة ، ندر أن استعملها — هى أنه أرسل بضعة من نانغى الأبواق (بروجية) الى مؤخرة النمساويين لينفخوا نوبة الهجوم . وبعدها بضع دقائق اندفعت الجنود النمساوية التى كانت ثابتة القدم في القتال ، وانسابت كالسيل لاجئة للفرار ، وبعد ذلك بشهرين في يناير سنة ١٧٩٧ حاول النمساويون للمرة الرابعة والأخيرة أن يتقدوا "مانتاو" ، ولكنها خابت في "ريفولى" حيث أدت جنود بونابارت بتشكيلها المؤلف من مجموعات غير مرتبطة بعضها ببعض ، عملها على وجه يكاد يبلغ غاية الدقة ، فكانت كشبكة منتشرة . أركانها مثقلة بأحجار . متى اصطدم بها قول من قولات العدو انضمت حول

نقطة الضغط واصطدمت الأحجار ببعضها على العدو . وهذا التشكيل الواقى لنفسه بنفسه الذى يصير تشكيلا هجوميا مركزا عند الاصطدام كما مر بيانه . كان نتيجة ترقية بونا بارت لنظام الفرق الحديث الذى بموجبه ينقسم الجيش دائما الى أجزاء يتحرك كل منها مستقلا عن غيره ، بدلا من بقائه كتلة واحدة كما كان سابقا ، تفصل عنه الأقسام الصغيرة موقنا فقط . أما تشكيل المجموعات فى حملات بونا بارت الايطالية فقد صار عبارة عن "مربعات الأورط" التى تطورت بدرجة أرقى . ثم حل الفيلق محل الفرقة فى حروبه التى جاءت بعدها . ولكن بالرغم من أن هذه الشبكة كانت هى الوسيلة التى سمحت جناح النمساويين الذى كان يقوم بالمناوره فان مما يستحق التنويه هو أن قهر مقاومتهم الرئيسية جاء من جرأة بونا بارت وارساله آلايا واحدا مؤلفا من ٢٠٠٠ جندي فعبر بحيرة "جارد" فى القوارب واستقر على خط رجسه جيش بأ كمله . فعند ذلك سلمت "مانتاو" . ثم ان النمساويين الذين أضاعوا جيوشهم فى الجهود الذى بذلوه لانقاذ هذا الباب الخارجى لبلادهم اضطروا الآن . ولا حيلة فى يدهم ، أن يراقبوا اقتراب "بونا بارت" السريع من الباب الداخلى المجرد من وسائل الدفاع . فادى هذا الحال الى اغتصاب الصلح من النمسا بينما كانت الجيوش الفرنسية مازالت لم تتجاوز الجانب الآخر من نهر "الرين" الا ببضع أميال .

وفى خريف سنة ١٧٩٨ تكوّن الائتلاف الثانى من روسيا ، والنمسا ، وانجلترا ، وتركيا ، والبرتغال ، وناپولى ، والبابا ، لفك قيود معاهدة هذا الصلح . وكان بونا بارت غائبا فى مصر ولما عاد كانت فرنسا قد أفل نجم سعادها . فكانت جيوش الميدان ناقصة نقصا كبيرا ، وكانت الخزينة خاوية . وأفواج المجندين آخذة فى التناقص . أما "بونا بارت" فانه بعد أن قلب الديركتوار على أثر عودته وصار أول قنصل فانه أمر بتشكيل جيش من الجنود الاحتياطية فى "دييون" يتألف ممن يستطيع جمعهم من الجنود الموجودين بأرض الوطن . فهل هو استخدم هذا الجيش لتعزيز مسرح الحرب الرئيسى والجيش الرئيسى على نهر "الرين" ؟ كلا . فانه بدلا من ذلك رسم خطة هى أكثر كل اقتراباته غير المباشرة جراءة — هى حركة كاسحة على قوس مهول تصل الى مؤخرة الجيش النمساوى بايطاليا . فان هذا الجيش كان قد طرد الجيش الفرنسى الصغير «جيش ايطاليا» وأرجعه الى الحدود الفرنسية بوجه التقريب ثم حجزه فى الركن الشمالى الغربى من ايطاليا . وكان بونا بارت ينوى أن يجتاز "سويسرا" الى "لوسيرن" أو "زوريخ" ثم يهبط الى ايطاليا فى مكان يبعد نحو الشرق بعد ممر "سان جوتارد" بل وبعد التيرول . غير أن أخبار مضايقة جيش ايطاليا مضايقة شديدة أدت به لأن يسلك طريق "سان برنار" الذى هو الطريق الأقصر . وعلى ذلك فانه لما برز من جبال "الألب" فى "ايفريا" فى آخر أسبوع من شهر مايو سنة ١٨٠٠ كان ما يزال على جبهة الجيش النمساوى الحقيقية . فبدلا من أن يندفع نحو الجنوب الشرقى لنجدة "ماسينا" مباشرة اذ كان منحسبا

في "جنووا" ، أرسل حرسه الأمامي جنوبا الى "شيراسكو" ثم استتر هو بنفسه ومعه الجيش الرئيسي وراء هذا «التحويل» وتسلسل نحو الشرق الى "ميلانو" . وعلى ذلك فانه بدلا من أن يزحف لملاقاة العدو «في موقعه الطبيعي» ، اتجه نحو الغرب في "الساندرية" وتوصل الى «موقع طبيعي» يعترض مؤخرة النمساويين — وذلك هو الحاجز الاستراتيجي الذي كان الغرض الافتتاحي في أشد مناوراته خطرا على مؤخرة العدو . لأن هذا الموقع بما فيه من الموانع الطبيعية يهيئ له مركزا آمينا يستعد منه لتلقى العدو بين ذراعيه ، ذلك العدو الذي يكون ميله «الطبيعي» حينما ينقطع عليه خط رجعتة وتموينه أن ينقلب راجعا نحوه في جماعات صغيرة بحكم العادة . وقد كانت هذه الفكرة ، فكرة الحاجز الاستراتيجي ، أعظم ما قدمه بونا بارت لاستراتيجية الاقتراب غير المباشر .

وفي "ميلانو" كان قد سد أحد طريق رجعة النمساويين . والآن بعد أن مدّ حاجزة جنوبى نهر "البو" حتى مضيق "سترادللا" فانه سدّ الطريق الآخر . على أن فكرته هنا كانت قد تجاوزت حدود وسائله في ذلك الحين بعض التجاوز . لأنه كان لديه ٣٤.٠٠٠ جندي فقط وبسبب عدم رضا "مورو" تأخر وصول الفيالق البالغ عدده ١٥.٠٠٠ جندي الذي كان "بونا بارت" أمر جيش "الرين" بإرساله اليه عن طريق "سان جوتارد" . فازداد القلق من جراء رقة هذا الحاجز . وفي ذلك الحين سلمت "جنووا" فزال بسقوطها العامل "الثابت" ثم ان عدم التأكد من الطريق الذي قد يسلكه النمساويون الآن ، وخصوصا الخوف من أنهم قد يقعون محصورين في "جنووا" حيث تستطيع البحرية البريطانية تجديد تموينهم كانا سببا في ضياع قسم كبير من الميزة التي كان حصل عليها . لأنه قدّر لأعدائه من القوة الانشائية أكثر مما لهم . فترك "موقعه الطبيعي" في "استرادللا" واندفع نحو الغرب ليستطلع طلعههم . ويقطع الطريق من "الساندرية" الى "جنووا" . فباغته العدو في ظرف ليس في صالحه ولم يكن معه اذ ذاك الا جزء من جيشه حينما خرج النمساويون من "الساندرية" بغاة وزحفوا لملاقاته في سهول "مارنجو" (في ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠) وبقيت المعركة بينهما في شك مدة طويلة وحتى حينما رجع القسم الذي كان تحت قيادة "دسيه" الذي كان أرسل الى طريق "جنووا" لم يزد التأثير عن ارجاع النمساويين الى الوراء . على أن موقع بونا بارت الاستراتيجي ظهر تأثيره وممكنه من انتزاع الهدنة من القائد النمساوي الذي خارت قواه المعنوية ، من شروطها جلاء النمساويين عن "لومباديا" ورجوعهم الى ما وراء نهر "المنشيو" . ومع أن الحرب استؤنفت واستمرت متقطعة وراء "المنشيو" فان رد الفعل الذي أحدثته معركة "مارنجو" ظهرت آثاره في شروط الهدنة التي اختتمت بها حرب الائتلاف الثانية بعدها بستة أشهر .

وبعد انقضاء عدة سنين في صلح مزعزع ارتفع الستار الذي كان أسدل على حروب الثورة الفرنسية عن فصل جديد — هو الحروب النابليونية . ففي سنة ١٨٠٥ تجمع جيش نابليون

البالغ عدده ٢٠٠,٠٠٠ جندي في "بولونية" مهددا بالهبوط على الشاطئ الانجليزى ، واذا هو يتجه بجبهة نحو نهر "الرين" بالسير الجبرى . ولم يتأكد بعد ، ما اذا كان نابليون ينوى غزو بلاد الانجليز مباشرة بصورة جدية . أو أن تهديده كان مجرد الحركة الأولى في اقترابه الى النمسا اقترابا غير مباشر . فكان حسابه أن النمساويين يرسلون جيشا الى "بافاريا" ، كما هى عادتهم . لسد منافذ الخروج من الغابة السوداء . وعلى هذا الأساس رسم خطة مناورته المتسعة النطاق للالتفاف حول جناحهم الشمالى عبر نهر "الدنوب" ومنه الى نهر "الليخ" — الذى هو الحاجز الاستراتيجى الذى ينوى ايجاده ليعترض مؤخرتهم . فكان تكرارا لمناورة "استرادالا" ، فى نطاق أعظم . وقد أكد ذلك نابليون نفسه لجنوده . وفضلا عن ذلك فان تفوقه فى القوة مكنه من تحويل هذا الحاجز بمجرد تأسيسه الى حاجز متحرك . وهذا الحاجز بتضييقه على مؤخرة الجيش النمساوى أدى الى تسليمه فى "أولم" تسليما يكاد يكون دون سفك دماء . وبعد أن أجهز نابليون على هذا "الشريك الأضعف" اضطر أن يعالج الجيش الروسى الذى كان تحت قيادة "كوتوزوف" الذى كان قد وصل اذ ذاك الى نهر "الإن" بعد أن اجتاز بلاد النمسا وجمع أقساما نمساوية صغيرة . وكان هناك اذ ذاك تهديد آخر يقل قربا عن تهديد الروس . ذلك هو عودة الجيوش النمساوية الأخرى من ايطاليا "والتيرول" . وفى ذلك الحين صار حجم قوات نابليون ، لأول مرة وان لم تكن الأخيرة ، مما يسلبه راحة البال . فان المسافة الكائنة بين نهر الدنوب والجبال الواقعة الى الجنوب الغربى كانت تضيق بجيوشه الحرارة لدرجة تعوق اقترابه من العدو محليا اقترابا غير مباشر . ولم يكن لديه وقت كاف للقيام بحركة متسعة النطاق كمناورته فى "أولم" . غير أنه طالما أن الروس يبقون على نهر "الإن" فهم فى «موقع طبيعى» لا يدراون منه عن الأراضي النمساوية فحسب ، بل يكونون بمثابة وقاية تستروءها الجيوش النمساوية الأخرى وهى قادمة من الجنوب محترقة "كارنثيا" لتنضم اليهم فيتعاونون معا على اقامة سد منيع يقاوم نابليون . فلما رأى نابليون نفسه أمام هذه المسألة قام بملسلة من التغيرات الدالة على منتهى الدهاء فى الاقتراب غير المباشر . فكانت غايته الأولى دفع الروس الى جهة الشرق بقدر ما فى امكانه حتى يفصلهم عن الجيوش النمساوية التى كانت عائدة اذ ذاك من ايطاليا . وعلى ذلك بينما كان هو يزحف نحو الشرق تماما فى اتجاه "كوتوزوف" و"فيتا" أرسل فيلق "مورتيير" ليسير على طول الشاطئ الشمالى لنهر الدنوب . فهذا التهديد الموجه الى مواصلات "كوتوزوف" مع بلاد روسيا كان كافيا لتحريض "كوتوزوف" على التقهقر بالميل نحو الشمال الشرقى الى "كرمز" على الدنوب . وعند ذلك بعث نابليون قائده "موراث" ليسرع فى سيره فاصدا "فيتا" مارا أمام الجبهة الجديدة التى اتخذها "كوتوزوف" .

ولما وصل "موراث" الى فيتا جاءت تعليمات بالتوجه شمالا نحو "هولابرون" . وبهذه الكيفية بعد أن هدد نابليون جناح الروس الأيمن فى بادئ الأمر أصبح مهددا لميسرة مؤخرتهم .

فهذه الحركة وان كانت قد اخفقت في فصل الروس عن بلادهم وقطع مواصلاتهم اليها بسبب الخطأ الذى وقع فيه "موراث" واتفاقه معهم على عقد هدنة مؤقتة ، إلا أنها طردتهم فتقهقروا مسرعين نحو الشمال الشرقى ، أكثر مما كانوا ، حتى وصلوا الى "أولتس" بالقرب من حدودهم . على أنهم وان كانوا الان قد "تحولوا" عن الامدادات النمساوية وابتعدوا عنها ، فانهم ازدادوا قريبا من امداداتهم الروسية وجاءهم قسم كبير منها فى أولتس فعلا . فزيادة الضغط عليهم وارجاعهم الى الورا لا تؤدى الا الى توطيد قوتهم فضلا عن أن الوقت قد أزف وأصبح دخول بروسيا الحرب قريبا . ولذلك فان نابليون لجأ الى "اقتراب" غير مباشر هو اغراء الروس على انتهاز خطة التعرض بأن يستعمل الدهاء وتظاهر بمظهر الضعف . فحشد ٥٠,٠٠٠ جندي فى "برون" لمواجهة ٨٠,٠٠٠ من جيش العدو . ومنها بعث أقساما منفصلة نحو أولتس . ثم انه عزز الاعتقاد بضعفه بأن أرسل "رسل الصلح" الى كل من قيصر روسيا وامبراطور النمسا . ولما جازت هذه الحيلة على العدو ارتد من أمامه ورجع الى موقع فى "أوسترلتز" هيئته الطبيعية للشرك الذى نصبه . وفى المعركة التى نشبت على أثر ذلك استخدم ضربا من أمثلته النادرة فى الاقتراب التكتيكى غير المباشر ليستعوض به عن ضعفه العددي الذى كان هو أيضا نادرا فى ميدان المعركة . واستدرج العدو لأن يمد ميسرته ليهجم على خط رجعته ثم دار حول مركزه وقابل "المفصل" الضعيف ففاز بنصر حاسم لدرجة أن امبراطور النمسا طلب الصلح فى ظرف ٢٤ ساعة .

ولما نجت نابليون الى بروسيا بعد ذلك ببضعة أشهر ليناقشها الحساب كانت لديه الكثرة العددية بنسبة اثنين الى واحد تقريبا ، اذ كان لديه جيش «عظيم» من وجهتى الكم والنوع ، يقابله جيش ناقص التعليم ذو منظر عتيق مهجور . فكان تأثير هذا التفوق المضمون لنابليون ظاهر الأثر فى استراتيجيته وكان لهذا الأثر مفعول أخذ يزداد وضوحا فى ادارة حملاته الأخيرة . ففى سنة ١٨٠٦ كان ما يزال يبحث عن مزية المفاجأة الافتتاحية وقد أحرزها . فهو لهذه الغاية كان قد أسكن جنوده بالقرب من نهر الدنوب . ومن هناك حشدوا على عجل الى جهة الشمال وراء الستار الطبيعى المكون من غابة تورنجن . ثم خرج بغاة من منطقة الغابات وبرز الى الأرض الفضاء الواقعة وراءها . واندفعت جنوده وهى بتشكيل «سريعات الأورط» قاصدة قلب بلاد العدو . وبهذه الكيفية وجد نابليون نفسه — لا وضع نفسه — وراء قوات البروسيين . ولما دار دورته ليسحقها فى "جينا" كان يظهر أنه اعتمد مبدئيا على مجرد قوته الدافعة . أما التأثير الأدبى لموقعه الذى كان فيه فقد جاء عرضا عن غير قصد وان كان من الأهمية بمكان .

وكذلك أيضا فى الحملة التى قام بها ضد الروسين فى بولندا ، وفى بروسيا الشرقية كان هم نابليون الرئيسى والغاية الوحيدة التى كان يرمى اليها ، على ما يظهر ، هو استدراج عدوه الى

الاشتباك في معركة ، انقته بأنه لو تم له ذلك كان في امكان آله (أى جيشه) أن تغلب على العدو . فكان ما يزال يستخدم المناورات التي يقصد بها مؤخرة العدو . على أن ذلك كان وسيلة يرمى بها الى توثيق قبضته على العدو حتى يجذبه ويجعله بين فكيه أكثر منه وسيلة لاذابة قوته المعنوية حتى يسهل ازدراده .

فالاقتراب غير المباشر هنا هو وسيلة لتشتيت أفكار العدو وتحويلها الى جهة غير الجهة المقصودة ، ووسيلة « لجره » من الوجهة المادية أكثر من كونه لتشتيت أفكاره وزحزحته من الوجهة المعنوية .

وهكذا كان يقصد بالمناورة التي قام بها في "بولتوسك" أن يجبر الروس نحو الغرب حتى انه متى زحف شمالا من بولندا يتيسر له أن يقطع خط رجعتهم الى روسيا ويفصلهم عنها . ولكن الروس أفلتوا من بين فكيه . وفي يناير سنة ١٨٠٧ تحرك الروسيون نحو الغرب بحض ارادتهم ، توجهين نحو البقية الباقية من حلفائهم البروسيين الموجودين "بدا نيسج" فأسرع نابليون وانهز هذه الفرصة لقطع مواصلاتهم مع بروسيا . على أن التعليقات التي أصدرها وقعت في أيدي جنود القوزاق فتقهقر الجيش الروسى قبل فوات الأوان . وعند ذلك اتبعهم نابليون في الحال . فلما وجدهم متخذين موقعا جيبيا في "إيلاو" ومستعدين لقبول المعركة لحا الى مناورة تكتيكية بحثة وجهها الى مؤخرتهم . على أن العواصف الثلجية تدخلت في أعمال جيشه وأعاقها فلم يزدرد الروسيين بالرغم مما تكبدوه من الأضرار . وبعد ذلك بأربعة أشهر كان كل من الفريقين قد استعاد نشاطه وتحرك الروسيون بجأة نحو الجنوب قاصدين "هايلزبورج" زاحفين عليها . فما كان من نابليون الا أن أدار "مربعات أورطة" نحو الشرق ليحول بينهم وبين "كوينجز برح" التي كانت قاعدتهم القرية . ولكنه على ما يظهر كان في تلك المرة متشبعا بفكرة المعركة لدرجة أنه لما جاءه بلاغ من فرسانه الذين كانوا يقومون باستطلاع جناح طريقه بأن الروس موجودون في موقع قوى في "فريد لند" . أدار قوته نحوهم وقصدهم في الحال . ففاز بالنصر التكتيكي لا بفضل المفاجأة أو خفة الحركة بل بالقوة الهجومية المحض .

والذى يفسر ذلك هو حشد كئلة من المدافع في نقطة مختارة طبق تكتيكات المدفعية التي وضعها نابليون حديثا . وكان مقدرا لهذه التكتيكات أن تصير القوة الدافعة لآله التكتيكية أكثر فأكثر على مدى الأيام . وهى وان كانت قد كفلت النصر في "فريد لند" كما كفلته مرارا بعدها الا أنها لم تكن ذات أثر يذكر في نجاة الأنفس . ومن الغريب أن مفعول السلطة المطلقة في تجنيد الجنود في سنة ١٨٠٧ — ١٨١٤ وجد له شبيها في سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ ومن الغريب أيضا أن كلتا هاتين الحالتين كانت مقترنة بطريقة استخدام ضرب المدافع بشدة متناهية .

فهو الذى يفسر ذلك هو أن التبذير يؤدي إلى الطيش وتجاوز الحد، على نقيض الاقتصاد فى القوة من الوجهة العقلية — الاقتصاد الذى يقوم على وسيلتين هما المفاجأة وخفة الحركة ؟ هذه الفكرة يؤيدها تشابه النتائج ، كما شوهد فى سياسة نابليون .

فقد تمكن نابليون من استخدام أهبة النصر الذى أحرزه فى "فريدلند" لتعزيز أهبة الشخصية فى التغرير بقيصر روسيا وفصله عن رفقاته فى الائتلاف الرابع . على أنه جازف حينذاك بالميزة التى كانت له وأخيرا جازف بامبراطوريته بتجاوزه الحد فى استغلاله ذلك الحادث . ذلك أن صرامة الشروط التى وضعها لبروسيا قوضت أركان السلم . أما سياسته مع إنجلترا فكانت لا ترمى إلى شيء أقل من دمارها . ثم إن اعتدائه أضافت كلا من إسبانيا والبرتغال إلى أعدائه . وانه لجدير بالذكر فى هذا المقام أن "الهجمات المتقطعة" التى قام بها "سيرجون مور" القصيرة الأجل الموجهة إلى "بورغوس" ومواصلات القوات الفرنسية فى إسبانيا كانت اقترابا غير مباشر فزحزحت خطط نابليون فى إسبانيا ومهدت السبيل للثورة الوطنية وأوجدت لها الزمان والمكان لاستجماع قوتها . ومن ثم جعلت شبه جزيرة "إيبيريا" شوكة فى خاصرة نابليون من ذلك الحين فما بعد . وفوق كل ذلك فإن التأثير الأدبى لهذه الخيبة التى صادفها نابليون لأول مرة بعد أن كان لا يقاوم ، كان لها معنى خاص . أما نابليون فلم يكن لديه أقل أمل فى استرجاع مركزه لأنه رجع بسبب تهديد بروسيا بالثورة والنمسا بدخول الحرب من جديد . أما تهديد النمسا فقد صار أمرا واقعا . وانتازى نابليون فى حملة سنة ١٨٠٩ يحاول مرة أخرى القيام بمناورة ليصل بها إلى مؤخرة العدو فى "لاندسموت" و"فينا" غير أن نابليون إذا صادفته عوائق أثناء تنفيذ هذه المناورات ينفذ صبره و يغامر باقتراب مباشر تتلوه معركة . وهكذا أصابته أول هزيمة كبرى فى "أسبيرن-إسلنج" من جراء ذلك . وإذا كان نابليون قد انتقم لها بالنصر الذى أحرزه فى "واغرام" فى نفس النقطة بعد ستة أسابيع فانه دفع ثمنها غالبا فضلا عن أن الصلح الذى أعقبه لم يستقر على أساس ثابت .

حرب شبه الجزيرة

على أن نابليون توافرت لديه مهلة سنتين قضاهما فى معالجة تلك "القرحة الإسبانية" وكما أن تدخل "مور" خيب مساعى نابليون لانحدار نار الثورة فى أوائل مراحلها ، كذلك أعاق "ولنجتون" فى السنين التى أعقبت ذلك كل تدابير علاجها حتى أتيج الجرح ودب فيه الفساد وسرى منه السم إلى سائر أجسام النظام النابليونى . نعم إن الفرنسيين كانوا قد تغلبوا وما زالوا يتغلبون على أية قوة نظامية إسبانية . على أن شدة هذه المزامم جاءت بأعظم الفوائد — للهزومين . لأنها كففت تحول مساعى الإسبانين الرئيسية إلى حرب العصابات حتى تغيرت الحال وحلت محل الجنود النظامية التى كانت تؤلف أهدافا عسكرية عرضة للإصابات ، عصابات كان يقودها قادة ممثلون نشاطا لا يدعونون لنظم خاصة فكانوا يقومون بالعمليات بدلا عن الجزرالات

الاسبانيين الذين كانوا يخضعون لأشد درجات التقييد . أما كارثة الكوارث التي نزلت بأسبانيا ، وبانجلترا بالنالى ، فكانت فى النجاح الموقت الذى صادفته محاولة تشكيل قوات نظامية من جديد . ولكن لحسن الحظ لم يلبث الفرنسيون أن تغلبوا على هذه القوات وشتوا شمالها فشتوا معها حسن حفظهم وانتشر السم مرة أخرى بدلا من تجمعه فى نقطة واحدة . وفى هذه الحروب العجيبة بذلت انجلترا أقصى ما لها من النفوذ فى مضاعفة هذه المتاعب وتشجيع بواعثها . فقد ندر أن سببت لخصومها ”تشتينا“ لأفكارهم أكثر مما سببته لهم فى هذه الحرب بمنى هذا الثمن الضئيل من المجهود العسكرى . ثم ان النتائج التى حصلت فى أسبانيا كانت ذات مغزى خاص متى قورنت بالنتائج التى جاءت على تقيضها . تلك النتائج الضئيلة ، بل النتائج السيئة ، التى نتجت عن محاولة انجلترا التعاون مباشرة مع حلفائها فى القارة الأوروبية من جهة . ومن تجريداتها التى أرسلتها الى نقط غير المحيط الا تلتطى من جهة أخرى . فقد كانت تلك النقط بعيدة بدرجة لا تؤثر على خصمها من الوجهتين الجغرافية والنفسية . ومع ذلك فقد كان لتجريدات النوع الثانى ما يبررها من وجهة نظر السياسة القومية والرخاء فانها أضافت للامبراطورية البريطانية مستعمرة الكاب ، وجزيرة موريقيوس ، وسيلان ، وعدة جزائر من جزر الهند الغربية .

على ان النتيجة الحقيقية للاقتراب غير المباشر المؤسس على الاستراتيجية العظمى الذى قامت به انجلترا فى اسبانيا قد ألقى عليها المؤرخون حجابا من الغموض بسبب نزعاتهم التقليدية . اذ كان الذى يملك عليهم مشاعرهم انما هى المعارك . وفى الواقع فانهم بمعالجتهم حرب شبه الجزيرة بصفتها بيانا تاريخيا لمعارك ”ولنجتون“ وحصاراته قد جعلوها عديمة المعنى . ولقد جاهد سير ”جون فورتسكيو“ فى اصلاح هذه النزعة وهذه السفسطة بالرغم من أن مهمته الرئيسية كانت قاصرة على وضع ”تاريخ الجيش البريطانى“ . ومما له مغزى خاص أنه حينما تعمق فى أبحاثه أخذ ينوه بلهجة التأكد ، أكثر فأكثر ، بما كان للعصابات الأسبانية من الأثر الظاهر فى النتيجة التى انتهى اليها النضال .

فاذا كان وجود قوة التجريدة البريطانية هو الأساس الجوهرى لذلك الأثر ، فمن المحتمل أن معارك ”ولنجتون“ كانت هى القسم الذى كان أقل أثرا فى عملياته . أى الشطر الذى كان أقل تأثيرا فى تلك العمليات . فهو بهذه العمليات قد أوقع بالفرنسيين خسائر لا تزيد على ٥٠,٠٠٠ بين قتيل وجريح وأسير فى مدة السنين الخمس التى قضاها فى الحملة الى أن طردهم من أسبانيا ، فى حين أن الجنرال ”ماربوت“ قدر عدد الموتي فقط من الفرنسيين فى تلك المدة بمعدل مائة فى اليوم . ومن ثم يستنتج استنتاجا لا غموض فيه ولا ابهام أن الكثرة الساحقة من الخسائر التى استنزفت قوة الفرنسيين العددية وأكثر منها قوتهم المعنوية ترجع الى عمليات حرب العصابات والى ”ولنجتون“ نفسه باستعجاله الفرنسيين واتلافه كل شئ فى البلاد حتى أصبحت

صحراء لا يلقون بها سوى الموت جوعا لو بقوا . وما لا يقل عن ذلك مغزى هو أن "ولنجتون" في كل هذه الحملات الطويلة لم يشترك الا في قليل من المعارك . فهل كان ذلك يرجع الى ما اتصف به من "سلامة الذوق" التي قال عنها كاتبو تاريخ حياته انها كانت سر أخلاقه وأمانيه . فقد قال عنه أحدث واضعي تاريخه "ان الاعتقاد بالحقائق الثابتة اعتقادا مباشرا ضيق الحدود كان روح ولنجتون الخلق . واليه ترجع عيوبه ومناقضه . ولكنه في المراحل الكبرى من حياته العامة بلغ حد العبقرية " . فهذا التشخيص يتفق تمام الاتفاق مع الأعراض التي ظهرت على استراتيجية ولنجتون في شبه الجزيرة ، جيدة كانت أو سيئة .

ثم ان التجربة التي قدر لها من النتائج ما بلغ هذا الشاؤ البعيد كانت في حد ذاتها قسما من القوة التي وجهت عبنا للقيام بالمجهود الرئيسى على نهر "الثلث" ، وكان الباعث على المجهود هو الأمل في انقاذ بلاد البرتغال أكثر من مراعاة ماله من القيمة من وجهة الاستراتيجية العظمى وما تستطيع أن تؤديه مما يزيد "الفرحة الأسبانية" وخامة . فان الدفاع الشاق الذى قام به "كاسلريه" (وزير الحربية) أيده الرأى الذى أبداه "وليزلى" وهو أنه لو أن الجيش والمليشيا البرتغاليين عززتا بـ ٢٠,٠٠٠ من الجنود البريطانية لاحتاج الفرنسيون الى ١٠٠,٠٠٠ جندي لفتح البرتغال . وليس في استطاعتهم الاستغناء عن هذا العدد اذا استمر الأسبانيون على المقاومة . وبعبارة أخرى معنى ذلك هو أن ٢٠,٠٠٠ من البريطانيين تكفى (للتثبت) أى تحويل ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ من الفرنسيين قسم منهم على أقل تقدير يأتى من المسرح الرئيسى للحرب في بلاد النمسا .

فأما من وجهة معاونة النمسا فقد كانت هذه التجربة على غير جدوى . وأما بصفتها وقاية تبقى البرتغال فلم تكن مقبولة ومرضيا عنها تماما من وجهة نظر البرتغاليين . وأما من وجهة كونها مضايقة لنا بليون ومفيدة لانجلترا فانها قد أثمرت عشرة أضعاف ما كان مقدرا لها .

فأخذ "وليزلى" ٢٦,٠٠٠ جندي وفي أبريل سنة ١٨٠٩ وصل الى "لزيون" . وكان الفرنسيون مشتتين في كل أنحاء شبه الجزيرة بسبب الثورة الأسبانية من جهة ، وبسبب زحف "مور" على "بورغوس" ثم رجوعه الى "كورونا" ، من جهة أخرى . وكان "نبي" يحاول عبثا اخضاع "غاليسيا" في منتهى الركن الشمالى — الغربى . وكان "صولت" في "أوبورتو" الواقعة جنوبى "نبي" ولكنها في شمال البرتغال وكان جيشه ذاته مقسما أقساما مشتتا بعضها عن بعض . أما "فكتور" فكان حوالى "مريده" متجها نحو الطريق الجنوبى الموصل الى البرتغال .

أما "وليزلى" فانه استفاد من موقعه المتوسط ، ومن حضوره على غير انتظار ، ومن تشتت العدو ، وتحرك نحو الشمال قاصدا "صولت" . ومع أنه أخفق في فصل أبعد أقسام "صولت" الى جهة الجنوب عن بقية جيشه طبقا للخطة التي رسمها ، الا أنه فاجأ "صولت"

نفسه قبل أن يتمكن من جمع قوته . فقلب أوضاعه رأسا على عقب بأن عبر نهر "الدورو" في مكان أعلى . ثم توسع في هذه الزحمة الابتدائية بأن أبعده "صولت" عن خط رجعته الطبيعي . وتمثل "بتورين" في سنة ١٦٧٥ فكان يذيب المقاومة دون أن يتيح لها فرصة تتجمد فيها وتتصلب . وفي نهاية الرجعة التي رجعها "صولت" مرغما مجازا الجبال السوداء شمالا الى "غاليسيا" تكبد جيشه من الخسائر والمشاق ما لا يتعادل مع ما قام به من القتال .

على أن العملية الثانية التي قام بها "وليزلى" لم تعد بالفائدة المرجوة كما لم تكن قائمة على فكرة صائبة من وجهة التوفيق بين الغاية والوسائل . أما "فكتور" الذي بقى "بمريدة" لا يبدى حرا كما فانه استدعى الى "طالافيرا" بعد (اختفاء) "صولت" ، لتغطية طريق الاقتراب المباشر الى "مدريد" . وبعد ذلك بشهر صمم "وليزلى" على السير الى "مدريد" من هذا الطريق مندفعاً في قلب أسبانيا وماتقيا بنفسه بين فكي الأسد . لأنه كان هدفا تستطيع كل الجيوش الفرنسية أن تتجمع عليه بسلوكتها أسهل الطرق . وفضلا عن ذلك فان هذه الجيوش بتجمعها على مركزها المتوسط بهذه الكيفية توفرت لديها الفرصة لربط المواصلات بين بعضها بعد أن كادت تكون أعظم أسباب ضعفها وهي متفرقة . فزحف "وليزلى" ومعه ٢٣,٠٠٠ جندي مضافا اليها مثلها من الأسبانيين تحت قيادة "كويستا" الضعيف في حين أن "فكتور" أثناء رجعته كان قد اقترب من المدد الذي يصله من قوتين فرنسيتين آخريين قويتين من "مدريد" ثم انه من جهة أخرى كان المتوقع أن يبلغ حشد العدو ماينوف على ١٠٠,٠٠٠ لأنه كما قال "فورتسكيو" (قد حصل عرضا لا قصدا) أن قوات "ني" و "صولت" و "مورتييه" كانت قد انحدرت من الشمال نحو "مدريد" . واذا كان الحظ يلسم للحاسب الجسور ، فانه يتنكر أحيانا للطائش . أما "وليزلى" فانه لم يتمكن من الاتصال "بفكتور" الا بعد أن انضم اليه "جوسف بونا بارت" قادما من مدريد . والسبب في ذلك هو أن "وليزلى" كان مثقلا بمؤنه من جهة وتردد "كويستا" من جهة أخرى . ولما اضطر "وليزلى" لأن يتقهقر هو الآخر بدوره كان خارجا بشئ من الحظ من معركة دفاعية نشبت في "طالافيرا" ولكنه كان ينوى أن يزحف مرة أخرى لولا امتناع "كويستا" . فكان ذلك من حسن حظه لأن "صولت" كان هابطا على مؤخرته . فلما انفصل "وايزلى" عن الطريق الذي سلكه في زحفه نجح بالتسلل جنوبى نهر "التاجوس" ولكنه لم يتمكن من الوصول الى حى الحدود البرتغالية الا بعد مفااة رجعة كلفته كثيرا وزعزعت قوى جنوده المعنوية ونهكتهم . أما الفرنسيون فان قلة الطعام شلت حركة تعقبهم . وهذه كانت خاتمة حملة سنة ١٨٠٩ التي علمت "وليزلى" أن الجنود الأسبانية النظامية عديمة القيمة — وهو درس كان يحذر به أن يتعلمه من تجارب "مور" . وقد كوفئ على ذلك بأن صار "فيكونت ولنجتون" . وكان مقدرا له أن يحرز هذا اللقب بدرجة أكثر جدارة في السنة المقبلة .

ففي سنة ١٨١٠ بعد أن أرغمت النمسا على الصلح انطلقت يد نابليون واستطاع أن يحول كل الانتباه إلى أسبانيا والبرتغال حتى سنة ١٨١٢ ، وهاتان السنتان هما أشد الأوقات حرجا في حرب شبه الجزيرة . فعجز الفرنسيين عن ادراك مقصدهم له مغزى من الوجهة التاريخية أكثر بكثير مما أصابهم من الهزائم فيما بعد ، ومن الانتصارات التي أحرزها ولنجتون في سنتي ١٨١٢ و ١٨١٣ . أما أساس ما أحرزه البريطانيون من الفوز فهو الحساب الدقيق المبني على الفطنة والدهاء الذي حسبه ” ولنجتون “ للعامل الاقتصادي — وهو قلة ما لدى الفرنسيين من وسائل الاعاشة — ثم انشاؤه خطوط ” طورس فدراس “ . فكانت استراتيجيته في جوهرها عبارة عن اقتراب غير مباشر إلى قصد وغرض عسكريين اقتصاديين . ففي الفصل الأول من الرواية عاونته القوات الأسبانية النظامية على طريقته المعتادة . فابتدأوا بحملة في فصل الشتاء وحققتهم الفرنسيون سحما بدد شملهم لدرجة أن الفرنسيين لما لم يجدوا هدفا يتزلون به ضرباتهم تدرجوا إلى الانتشار في كل أنحاء أسبانيا وغزوا أقاليم ” اندلوسيا “ النهرى الواقع جهة الجنوب .

وهنا تسلم نابليون السيطرة ولو أنه كان يمارسها عن بعد ، ولم يحل آخر فبراير من سنة ١٨١٠ حتى كان قد حشد في أسبانيا ما يقرب من ٣٠٠.٠٠٠ جندي يأتي بعدهم غيرهم . فتخصص من هؤلاء الجنود ” لمسينا “ ٦٥.٠٠٠ مهمتهم طرد البريطانيين من بلاد البرتغال . فهذا العدد وإن كان كبيرا يتفوق على جنود ” ولنجتون “ إلا أن صغره بالنسبة للجموع فيه الدليل القاطع على ما لحرب العصابات في أسبانيا من الخطر . ثم إن ” ولنجتون “ أخذ يدمج معه البرتغاليين ويدير بهم على التعليم البريطاني حتى أوجد قوة يبلغ عددها ٥٠.٠٠٠

أما غزو ” مسينا “ بغزاء من الشمال مارا ” بكويداد رودريجو “ فهيا ” لولنجتون “ أطول وقت وأبعد مسافة تعمل فيها استراتيجيته . وأصبحت الخطة التي احتاطها بتجريد البلاد من كل ما بها من المؤن بمثابة ” فرمالة توريل “ لرحف ” مسينا “ بينما كانت وقفته التي وقفها في منتصف الطريق في ” بوساكو “ بمثابة فرمالة القدم . وهذه الفرمالة قواها ” مسينا “ بمهاقته إذ ورط جنوده في اقتحام مباشر لا مبرر له . وبعد ذلك تقهقر ” ولنجتون “ إلى خطوط ” طورس فدراس “ التي كان قد أنشأها بعرض شبه الجزيرة الحليمة المكونة من نهر ” التاجوس “ والبحر لتستر ” لزبون “ وفي ١٤ أكتوبر أشرف ” مسينا “ على هذه الخطوط بعد أن قضى أربعة أشهر قطع فيها ما لا يزيد عن مائتي ميل . فلما شاهدها وقع منظرها لديه موقع الدهشة . ولما كان عاجزا عن اقتحامها بقي يحوم بالقرب منها مدة شهر إلى أن اضطره الجوع إلى الرجوع إلى ” سانتارم “ الواقعة على نهر ” التاجوس “ على مسافة ثلاثين ميلا إلى الورا . أما ” ولنجتون “ فانه ألزم الدهاء ولم يحاول الضغط عليه أثناء رجعه أو يتسبب في نشوب معركة ، بل جعل همه التضييق على ” مسينا “ وحصره في حدود أقل مساحة ممكنة حتى يجد أشد الصعوبات

في الحصول على طعام الجنوده . وقد حافظ "ولنجتون" على هذه الاستراتيجية بكل ثبات بالرغم من خطر غير مباشر هو تغير الحكومة في بلاده ، وخطر آخر مباشر هو زحف "صولت" في الجنوب بطريق "باداجوس" في حركة تحويلية يخفف بها عن "مسينا" ثم انه قاوم كل مساعي "مسينا" لاستدراجه للهجوم . وقد بررت الحوادث سلوكه وكوفئ عليه لأن "مسينا" اضطر أخيرا الى الرجوع في شهر مارس . ولما أعادت انقاض جيشه الجائع اجتياز الحدود كان قد خسر ٢٥٠٠٠ لم يزد عدد من سقط منهم في القتال عن ٢٠٠٠

وفي نفس الوقت كانت العصابات الأسبانية تزداد نشاطا وعددا . ففى "أراجون وقطالونيا" وحدهما شل بضعة آلاف من رجال العصابات والجنود المستخدمة في قتال العصابات حركات فيلقين فرنسيين كاملين يبلغ مجموع رجالهما ٦٠٠٠٠ شللا تماما بدلا من أن يعاون هذان الفيلقان جيش مسينا في البرتغال ، واستمر ذلك عدة أشهر . وفي الجنوب أيضا حيث كان الفرنسيون يحاصرون مدينة "قادس" قدصر الحلفاء في استغلال النصر الذي أحرزوه في "باروسا" ولم يفكوا الحصار . فعاد ذلك عليهم بفائدة اذ بقي المحاصرون حيث كانوا في مهمة لا طائل تحتها . وفي أثناء تلك السنين كان هناك عامل مستديم يشتم الأفكار ويحوطها هو تهديد البريطانيين بانزال جنودهم الى البر وتزولهم فعلا مرارا عديدة في نقط على السواحل المترامية الأطراف بفضل قوتهم البحرية .

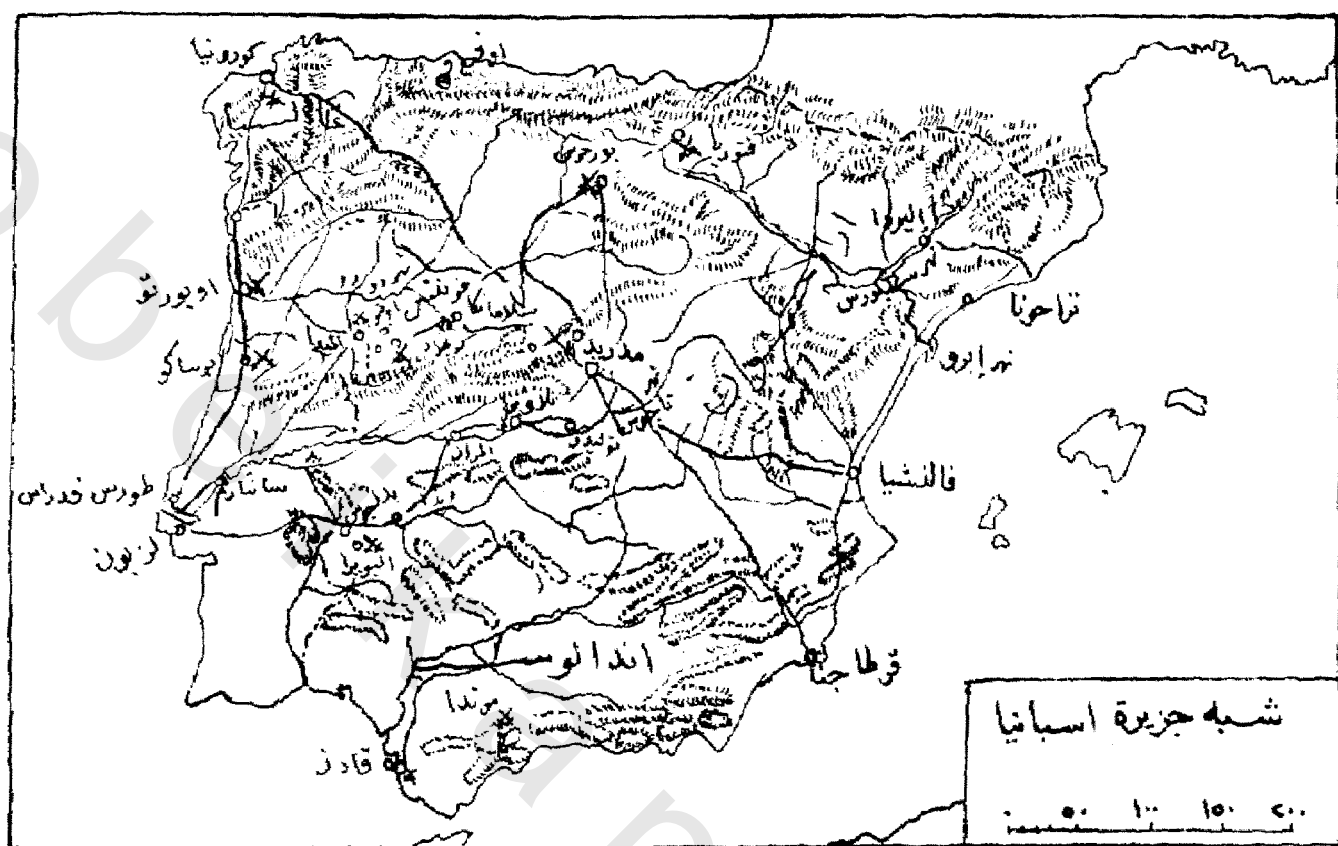
ومن ثم كان أعظم نفوذ ناله "ولنجتون" ناشئا عن تهديده أكثر منه عن ضرباته . لأنه كلما هدد نقطة اضطر الفرنسيون لأن يسحبوا جنودا من جهات أخرى ليوجهوهم اليها فيتسع بذلك المجال أمام العصابات في تلك الجهات . ومع كل فان "ولنجتون" لم يكتف بالتهديد بل انه اتبع "مسينا" في تفهقره الى "سلامانكا" واستخدم جيشه لتغطية الحصر المضروب على قلعة "المبضا" على الحدود من جهة الشمال بينما بعث "بيرزفورد" ليحاصر "باداجوس" في الجنوب . فهو بذلك قيد حركاته وقسم قوته الى شطرين متساويين تقريبا . على أن الحظ ابتسم له . فان "مسينا" بعد أن جمع شتات جيشه وعزز به بشيء من الامداد رجع ليخلص "المبضا" ويفك عنها الحصار . ولكن "ولنجتون" تمكن في "فيونتس - دو - أونورو" من صد الهجوم مع أن قوته أقل فضلا عما كان يحيط به من الأخطار الجسيمة . وكذلك خرج "بيرزفورد" ليلاقي قوة الخلاص التي كانت قادمة تحت قيادة "صولت" الذي بعد أن أساء ادارة القتال واعترف بالهزيمة في "البويرا" (البحيرة) كان الفضل في انقاذه لمرؤوسيه وجنوده بعد أن كلفهم ذلك ثمنا فاحشا . وعند ذلك صمم "ولنجتون" على محاصرة "باداجوز" دون أن يكون معه معدات الحصار (قطار الحصار) الى أن اضطر الى رفع الحصار بسبب تحرك جيش "مسينا" نحو الجنوب من غير أن يلقي معارضة . وكان هذا الجيش حينذاك

تحت قيادة "مارمونت" لينضم الى "صولت" فوضع الاثنان خطة للزحف معا على "ولنجتون" ولكن لحسن الحظ لما اجتماعا دب بينهما ديبب الشقاق وداخل "صولت" الفرع بسبب اشتداد حرب العصابات واضطرام لحيها من جديد فى مقاطعة "اندلوسيا" فرجع اليها بقسم من جيشه تاركا السيطرة "لمارمونت" وبفضل تطرف "مارمونت" فى التزام الحيلة والحذر انتهت حملة سنة ١٨١١ فى سكون .

"فولنجتون" باشتباكه فى المعارك كان يحازف بشىء كثير ، بل كان فى الواقع مجازفا بكل شىء . ومن الصعب أن يقال ان هذه المعارك أكسبته مزية فوق المزية التى أوجدتها استراتيجيته السابقة والتى كانت مؤملة منها . فهى لم تكن من قبيل البذل المشعر اذا روعى ما كانت عليه قوته الاحتياطية من رقة الحال . فان خسائره فيها كانت أقل من خسائر الفرنسيين بشىء يسير ولكنها كانت أعظم منها كثيرا اذا روعيت النسبة العددية . غير أنه قد تدارك الفترة التى كانت أشد الأوقات حروجة . أما الآن فان نابليون والأسبانيين جاؤوه بالعون وساعدوه على احراز ميزته . أما نابليون فكان يتأهب لغزو روسيا . فحول اليها التفاته وقوته ابتداء من ذلك الحين . فهذا التطور الحديث والموقف الذى أكسبته أعمال العصابات شدة كانا سببا فى تغيير الخطة فى أسبانيا حيث غير الفرنسيون خط مساعيهم الرئيسية الى محاولة اخضاع اقليمى "فالنشيا واندلوسيا" تماما قبل أن يحتشدوا من جديد للزحف على البرتغال . فالجنود الفرنسية نقص عددها ٧٠٠٠٠ عما كانت عليه فى سنة ١٨١٠ والذين بقوا استخدم منهم ما لا يقل عن ٩٠٠٠٠ جندى فى خدمة قاصرة فى الواقع على المحافظة على خط المواصلات مع فرنسا ، كانوا موزعين من "طاراجونا" على ساحل البحر الأبيض المتوسط الى "أوفيدا" على ساحل المحيط الاطلانطى لصيانتها من العصابات .

فلما أصبح المجال حرا أمام "ولنجتون" وضعفت أمامه المقاومة وثب بخافة الى "كويداد رودريجو" واقتحمها بينما كان قسم تحت قيادة "هل" يحرس جناحه ومؤخرته الاستراتيجية . أما "مارمونت" فكان عاجزا عن التدخل ، عاجزا عن استرجاع القلعة لأن معدات حصاره (قطار حصاره) كان قد سبق الاستيلاء عليها هناك ، عاجزا عن اقتفاء أثر "ولنجتون" بسبب قتل البلاد الواقعة بينهما التى سبق تجريدتها من كل مواد الغذاء . فاتهز "ولنجتون" فرصة وجود هذا السائر الذى أقامه الجوع وتسلسل جنوبا واقتحم "باداجوز" واستولى عليها بدورها وان كان استيلاؤه عليها كلفه أكثر مما كلفه استيلاؤه على الأولى بكثير ولم يترك له من الوقت الا شيئا يسيرا . وفى "باداجوز" استولى على معدات الفرنسيين لانشاء الجسور (قطر الكبارى الطافية) . ثم انه لم يتمهل بل أعقب هذا الربح باتلاف الجسر (الكوبرى) الفرنسى المؤلف من قوارب مصفوفة عبر نهر "التاجوس" فى (المعرض) "الماراز" ففصل بذلك جيش "مارمونت" عن جيش "صولت" فصلا استراتيجيا قطعيا

فأصبحت أقرب مواصلات "صولت" عن طريق الجسر (الكوبري) الموجود في "توليدو" (طابطة) وهي تربو مسافتها على ثلثمائة ميل من مصب نهر التاجوس . وبقطع النظر عن ذلك فإن "صولت" صار مقيدا في "اندالوسيا" بسبب قلة المئز من جهة وازدياد العصابات ازديادا فوق الطاقة من جهة أخرى . وغدا "ولنجتون" حرا يستطيع القيام بالعمليات وهو آمن شر التدخل . فحشد ثلثي قوته للزحف على "مارمونت" في "سلامانكا" على أن اقترابه من "مارمونت" اقترابا مباشرا رد "مارمونت" نحو مورد امداداته فتعادات بينهما الموازنة العددية . فشرع "مارمونت" في المناورات فاصدا مواصلات "ولنجتون" ولديه الميزة الكبرى بسبب عدم وجود مواصلات له تعلق باله وتشغله . على أن افراطه في الثقة أدى به إلى هفوة زحزحت قوته موقتا فانهزها "ولنجتون" على الفور واستغلها وعززها باقتراب تكتيكي غير مباشر كان سببا في هزيمة الجيش الفرنسي هزيمة صارمة قبل أن تصله امدادات أخرى . على أن ولنجتون لم يتمكن من تشتيته تماما وكان ما يزال أضعف من الفرنسيين في شبه الجزيرة بأجمعها . وقد وجه إليه اللوم بسبب عدم تعقبه للفرنسيين الذين صاروا الآن تحت قيادة "كلاوزل" ولكن بما أن الفرصة الوقتية أفلتت من يده فلم يكن محتملا أنه كان يتمكن من تشتيته قبل أن يصلوا إلى "بورغوس" فلبأون إليها . فضلا عن أن مثل هذه الحركة كانت تعرضه إلى خطر هبوط "جوسف" (بونابارت) في أية لحظة على مؤخرته ومواصلاته قادما من "مدريد" ولكنه بدلا عن ذلك صمم أن يزحف على "مدريد" لما لهذه الحركة من التأثير المعنوي والسياسي . فكان دخوله عاصمة أسبانيا رمزا مشجعا للأسبانيين ، وخرج "جوسف" منها خروجه الهارب . على أن عيب هذه الضربة هو في أن بقاء "ولنجتون" في "مدريد" لا يكون إلا التجاء إذا تجمعت قوة الفرنسيين . وليس هناك شيء أكثر احتمالا لأن يدعو جيوشهم المتفرقة في شكل محيط دائرة إلى التجمع على الوسط من ضياع "مدريد" أما "ولنجتون" فانه جعل اقامته في "مدريد" قصيرة وخرج منها طائعا مختارا وسار إلى "بورغوس" . غير أن الطريقة الفرنسية وهي "اعاشة الجنود من البلاد" كانت لا تجعل لأية ضربة توجه إلى مواصلاتهم مع فرنسا تأثيرا على موقفهم . وحتى التأثير الضعيف كان متعديا نظرا لعدم كفاية طرائق الحصار ووسائله الموجودة مع "ولنجتون" فانها كانت تقتضي استغراق وقت ليس في مقدوره أن يضيعه . لأن ما أحرزه من الفوز في معركة "سلامانكا" وبعدها حرض الفرنسيين على ترك مهامهم وأراضيهم في أسبانيا لكي يتجمعوا عليه من كل حذب وصوب . فوقفه بالنسبة لجيوشهم كان أشد خطرا من موقف "مور" الذي سبقه . على أنه تفهق قبل فوات الأوان . وما انضم إليه "هل" حتى شعر بالاطمئنان بدرجة جعلته يدعو الجيوش الفرنسية المتحدة إلى نزاله في معركة "سلامانكا" أما ميزتهم العددية فكانت طفيفة إذا قورنت بما كانت عليه في الأيام الماضية . إذ كانت ٩٠٠٠٠ مقابل ٦٨٠٠٠ فلم



يشعروا بميل الى قبول تحديه اياهم الى معركة في ميدان اختاره "ولنجتون" ولذلك والى "ولنجتون" تفهقره الى "كويداد رودريجو" وبوصوله أسدل الستار على حملة سنة ١٨١٢ .

فع أنه رجع بالشانى الى الحدود البرتغالية ولم يتجاوزها الى الأمام بحسب الظواهر ، الا أن حرب شبه الجزيرة كانت قد فصل فيها فعلا . لأن الفرنسيين بتركهم القسم الأعظم من أسبانيا ليتجمعوا عليه أخلوها للعصابات ولم يبق لديهم أى أمل فى زحزحتها . ثم زاد الطين بلة أن جاءت فوق هذه الكارثة أخبار رجوع نابليون من "موسكو" وما ترتب عليها من انسحاب جنود فرنسية أخرى من أسبانيا . وعلى ذلك لما افتتحت الحملة التالية كان الموقف قد تغير تغيرا كبيرا . فالآن جاء المدد الى "ولنجتون" حتى بلغ عدد جنوده ١٠٠٠٠٠ أقل من نصفهم بريطانيون . فبادر بالعداء والتحدى وكان هو المتفوق فى حين أن الفرنسيين بعد أن زعزعت حرب العصابات التى لم تنقطع قواهم المعنوية أكثر مما زعزعتهم الهزائم العسكرية اضطروا لأن يسرعوا بالرجوع الى ماوراء نهر "الابرو" واكتفوا بمحاولة البقاء بأطراف أسبانيا الشمالية . بل حتى فى هذه الأطراف رجحت كفة العصابات على كفتهم فانها كانت تضغط عليهم من الخلف فى نواحي "بسكاي" و"البرينيس" ، واضطر الفرنسيون لأن يفصلوا من قوتهم الضعيفة أربع فرق لمقاومة الضغط الآتى من الخلف ، ثم ان زحف ولنجتون تدريجيا على جبال "البرينيس" ومنها على فرنسا ، وان كان لا يخلو من حوادث سيئة كانت تقع أحيانا ويؤخذ ثارها بنجاح . كل ذلك لم يكن سوى خاتمة استراتيجية لقصة حرب شبه الجزيرة .

فهذه النتيجة الميؤنة ما كان من السهل أن تتأتى اولا العون الأدبى والمادى الذى كان الفضل فيه لوجود "ولنجتون" فى شبه الجزيرة . فان نشاطه فى استجلاب انتباه الفرنسيين وتحويل أفكارهم نحوه بقدر ما ، كثيرا ما سهل انتشار حرب العصابات . ومع ذلك فهناك مسألة موضوع تضارب آراء يهتم لها أصحابها . تلك هى : ألم تكن انتصاراته التى أحرزها فى سنة ١ٸ١٢ وكان من شأنها أن تستحث الفرنسيين على ترك ما فقدوه وتضييق منطقة أعمالهم ، مما جعل آمالهم أقرب من التحقيق ، وزادت زحفه صعوبة فى سنة ١٨١٣ ؟ لأنهم كلما اتسعوا فى الانتشار فى جميع أنحاء اسبانيا وبقوا مشتبين فيها كانت هزيمتهم فى نهاية الأمر تامة ومحقة ، فحرب شبه الجزيرة كانت مثالا تاريخيا بارزا نفذته سلامة الذوق الغريزية أكثر مما نفذ عن قصد ، باستراتيجية من الطراز الذى أخرجه "لورنس" (الكولونيل لورنس) وحوله الى نظرية معقولة طبقت فعلا وان كانت لم تتم على وجه قطعى .

ولندع الآن "القرحة الأسبانية" ونرجع الى حفص طراز آخر من طرز الاستراتيجية كان ينمو فى محلة نابليون بصورة خادعة .

نابليون من "فلنا" الى "ووترلو"

كانت الحملة الروسية في سنة ١٨١٢ هي الغاية الطبيعية التي انتهت اليها النزعات التي شوهد تطورها وازديادها في استراتيجية نابليون — وهي اعتماده بالأكثر على الكتلة لا على خفة الحركة . وعلى التشكيل الاستراتيجي أكثر من اعتماده على المفاجأة . ثم جاءت الظروف الجغرافية فأبانت أوجه ضعفها وأكدها .

فاجم قوات نابليون التي بلغ عددها ٤٥٠,٠٠٠ يدعوه الى اتخاذ توزيع خطي بوجه التقريب . وهذا التوزيع يستلزم اقترابا مباشرا على طول خط الانتظار الطبيعي . نعم انه فعل ما فعله الألمان في سنة ١٩١٤ ، فقوى أحد طرفي خطه — الطرف الأيسر — وأراد أن يدور به دورة واسعة النطاق فيكتسح الروس الموجودين في فلنا . ولكن هذه المناورة كانت متعبة وفي اتجاه مباشر بدرجة متجاوزة الحد تجعلها لا تصلح لأن تكون وسيلة مؤثرة في تثبيت أفكار العدو وزحزحته الا اذا كان غيبا بدرجة فوق المعتاد ، حتى يقطع النظر عن ضعف همه أخيه "جيروم" وعجزه عن الدور الذي كلف به وهو تثبيت العدو في مكانه . وفي هذه الحالة ظهر ضعفها بالتهاج الروس استراتيجية التفادي والازواء . ولما تمادى نابليون وتوغل في بلاد روسيا بعد أن ضرب ضربته الأولى "في الهواء" ضم خطه واتخذ تشكيل "مربعات الأورط" وحاول أن يدور به تكتيكيا الى مؤخرة العدو . ولكن حتى حينما استبدل الروس بخطتهم الأولى سياسة قبول "المعارك" وأظهروا حماقتهم بأن دفعوا رؤوسهم نحو فكي نابليون فان هذين الفكين انطبقا في "سمولنسك" ، على ما يظهر ، حتى ان الروس أفتتوا منهما ، في حين أن في "بورودينو" حطم الفكان أسنانهما . فكان ذلك أحسن مثال لظهور عيوب حركة التجمع والتلاقي من اتجاهات مختلفة اذا قورنت باقتراب غير مباشر حقا . أما النتائج الاليمة التي كانت لرجوعه من موسكو على أثر ذلك فكانت بسبب خور قوى الجيش الفرنسي المعنوية ، أكثر من كونها مسببة عن صرامة الطقس — لأن الصقيع في تلك السنة جاء متأخرا عن المعتاد — والذي سبب ذلك هو أن الروس بالتهاجهم استراتيجية التفادي من المعارك قد أفسدوا استراتيجية الفرنسيين التي كانت ترمي الى نشوب المعارك مباشرة . فكانت خطة الروس عبارة عن طريقة استراتيجية اتبعوها في تنفيذ سياسة حربية تنطوي على اقتراب غير مباشر .

وفضلا عن ذلك فان ما أصاب نابليون من سوء الطالع بسبب هزيمته في روسيا زاد اضعافا بسبب النتائج الأدبية والمادية التي نتجت عن اخفاق جيوشه في أسبانيا . ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام مع تقدير التأثير المهلك الذي كان لعمل انجلترا ، هو ان انجلترا بهذا العمل كانت متبعة سياستها الحربية التقليدية التي هي عبارة عن استئصال الجذور .

وفي سنة ١٨١٢ لما وجد نابليون نفسه بقواته الجديدة التي كانت أكبر حجماً وأثقل حركة من كل ما سبقها ، أمام ثورة بروسيا ، والجيش الروسية الغازية ، أراد أن يسحق أعداءه بطريقته التي أصبحت الآن عادة له أي بشغل "مربعات أورطه" المتجمعة من اتجاهات مختلفة متلاقية في نقطة واحدة . ولكن لامعركة "لوتسن" ولا معركة "باوتسن" كانت حاسمة في نتائجها . ولذلك فإن الحلفاء خيبروا كل مساعي نابليون لاستدراجهم الى الاشتباك في معركة ، اذ أخذوا يتقهقرون تقهقرا يزداد طولاً مرة بعد أخرى . وهذا "التفادي" دعا نابليون لأن يطلب وقف الحرب لمدة ستة أسابيع وفي نهاية هذه المدة انضمت النمسا أيضا الى أعدائه . ثم ان حملة الخريف التي أعقبت ذلك ألقت ضوءاً عجيباً على ما طرأ على عقلية نابليون من التغير . فكان معه ٤٠٠,٠٠٠ جندي وهذا العدد يعادل مجموع جنود أعدائه بوجه التقريب . فاستخدم منهم ١٠٠,٠٠٠ في الزحف على برلين من طرق متفرقة بحيث يلتقون في برلين . غير أن هذا الضغط المباشر لم يؤد إلا الى توطيد المقاومة التي أبدتها قوات "برنادوت" في تلك الساحة وارتد الفرنسيون مدحورين . وفي نفس الوقت كان نابليون نفسه قد أخذ موقعا متوسطا سائرا "درزدن" في "سكسونيا" بالجيش الرئيسي . ولكنه لم يصبر وشرع بغاة في الزحف نحو الشرق مباشرة قاصدا قوة "بلوخر" البالغ عددها ٩٥,٠٠٠ فتقهقر "بلوخر" أمامه خدعة واستدرجه الى داخل "سليسيا" في حين أن "شوارتسنبرج" ومعه ١٨٥,٠٠٠ شرع في التحرك شمالا هابطا على نهر "الإلبه" من "بوهيميا" واجتاز جبال "بوهيميا" ودخل "سكسونيا" وأتى على مؤخرة نابليون في "درزدن" . فترك نابليون قسما من جيشه في موقعه وأسرع بالرجوع بنية مقابلة هذا الاقتراب غير المباشر بآخر من مثله أشد منه خطرا . فكانت خطته أن يتحرك جنوبا - غربا ، ويختار جبال "بوهيميا" ثم يضع نفسه في حاجز (أي سد) استراتيجي بالغ حد الكمال يعترض خط رجعة "شوارتسنبرج" حينما يخترق الجبال متقهقرا . غير أن أخبار قرب العدو منه أهاجته فصمم في آخر لحظة على أن يستبدل خطته باقتراب مباشر على "درزدن" و "شوارتسنبرج" . فأدى هذا التصميم الى معركة انتصر فيها . ولكن هذا النصر لم يكن حاسما الا من الوجهة التكتيكية ورجع "شوارتسنبرج" نحو الجنوب في أمان مجتازا الجبال . وبعد ذلك بشهر شرعت الجيوش الثلاثة المتحالفة تطبق على نابليون وكان قد رجع من "درزدن" الى "دوبن" بالقرب من "لايسج" بعد أن أضعفته المعارك . أما "شوارتسنبرج" فكان في الجنوب "وبلوخر" كان في الشمال . ثم ان "برنادوت" كان قد دار حول جناح نابليون الواقع الى جهة الشمال وأتى وراءه بوجه التقريب دون أن يعلم به نابليون . فصمم نابليون على أن يقترب اقترابا مباشرا يعقبه اقتراب غير مباشر - ليسحق "بلوخر" أولا ثم يقطع مواصلات "شوارتسنبرج" مع "بوهيميا" . فالذي يظهر على ضوء التجارب التاريخية بحسب ما مر بيانه في هذا الكتاب هو أن هذا الترتيب خطأ . فان حركة زحف نابليون على "بلوخر" مباشرة لم تؤد الى ارغامه

على الدخول في معركة. ومع ذلك فقد كانت لها نتيجة عجيبة ومما يجعل لهذه النتيجة مغزى خاصا هو أنها جاءت عفوا لا قصدا . لأن الزحف على بلوخر مباشرة تصادف أنه كان زحفا غير مباشر على مؤخرة "برنادوت" . فلما شعر "برنادوت" بضعف مركزه أسرع بالتقهقر نحو الشمال فأنزاح عن خط رجعة نابليون . وبهذه الكيفية نجح نابليون من كارثة جاثمة تامة بعد ذلك بوضع أيام والذي نجح منها هي ضربته التي قصد بها "بلوخر" وجاءت في الهواء . لأنه لما أطبق عليه كل من "بلوخر" و "شوارتسبرج" في "لايسج" قبل تحديدهما واشتبك معهما في معركة انهزم فيها . ولكنه لما ضاق به الحال وجد أمامه طريقا للنجاة فانسحب في سلام وعاد الى فرنسا .

وفي سنة ١٨١٤ لما كان الحلفاء متفوقين عددا بدرجة كبيرة وقاموا بغزو فرنسا متلاقين في نقطة واحدة بعد تفرق ، اضطر نابليون لأن يلجأ الى سلاحه القديم وهما المفاجأة وخفة الحركة ، بسبب قلة جنوده التي كان قد استهلكها — بثقته الامبراطورية في قوة الكتل — ومع أنه قد أحسن استخدامهما الا أن لهجة التوكيد يجب وضعها على كلمة « سلاحه » لأنه كان قليل الصبر وقد تملكته فكرة المعارك عليه مشاعره بدرجة كان لا يستطيع معها استخدام هذين السلاحين بدهاء "هانبال" أو "سيو" أو "كرومول" أو "مارابورو" . وعلى كل حال فانه باستخدامهما أجل ما كان مكتوبا له في لوح التدر ، فترة طويلة . ولما استخدمهما وفق بين غايته ووسائله بما يشف عن بعد النظر . فانه لما أدرك أن وسائله قد تضعضعت بدرجة لا يستطيع معها الحصول على جسم عسكري ، وجهه مساعيه الى زعزعة التعاون بين الحلفاء واستغل خفة الحركة لهذه الغاية بدرجة مدهشة ليس لها نظير في أعماله السابقة . ومع كل فان نجاحه في اعاقه العدو عن بلوغ غايته وان كان يستحق التنويه ، الا أنه من المحتمل أنه كان يبق أعظم أثرا وأكثر ثباتا لولا أن مقدرته على الاستمرار في هذه الاستراتيجية قد نقصت بسبب نزعه الطبيعية لأن يتم كل فوز استراتيجي بأخر تكتيكي . فهو بحشده جنوده عدة مرات ليلاقى بها أقسام العدو المتفرقة — وقد امتازت خمس من هذه المرات بمناورات « أصابت » الهدف من الخلف — قد أنزل بها سلسلة من الهزائم الى أن داخله الطيش لدرجة أنه قام باقتراب وهجوم مباشرين على "بلوخر" في "لاون" فانهزم هزيمة لا طاقة له بها . ثم انه بعد ان لم يبق معه سوى ٣٠,٠٠٠ جندي صمم على أن يطلق آخر سهم في كنانته وتحرك شرقا الى "سان دزيبه" وجمع ما استطاع جمعه من الحاميات التي وجدها وأثار أهالي البلاد على الغزاة . فهذه الحركة كان يصعب معترضا مواصلات "شوارتسبرج" . ولكنه كان مضطرا لأن لا يكتفى بأن يكون على مؤخرة العدو ، بل لا بد له من تأليف جيش وهو في مكانه قبل أن يشرع في العمل . ثم ان المسألة تعقدت لا من جراء قلة الجنود وقلة الوقت فحسب بل بسبب ما للقاعدة التي كشفها بحركته من الحساسية الأدبية

الخاصة أيضا . لأن باريس ليست كبقية قواعد التمرين العادية . وزاد الطين بلة أن وقعت تعاليمه في يد العدو فضاغت منه كل من المفاجأة والوقت . ومع ذلك فقد بلغ « المجهود » الاستراتيجية لحركته درجة جعلت الحائزين يتناقشون مناقشة حادة قر قرارهم بعدها على أن يسيروا الى باريس — لينزلوا ضربتهم الأدبية « القاضية » — بدلا عن أن يرجعوا للملاقة نابليون . ولقد قيل ان العامل الذي أثر عليهم في هذا القرار هو خشية أن يتحرك « ولنجتون » من الحدود الأسبانية فيصل باريس قبلهم . فاذا كان ما قيل هو الحقيقة فياها من خاتمة ساخرة مؤيدة لانتصار استراتيجية الاقتراب غير المباشر « ومجوده » الحاسم .

وفي سنة ١٨١٥ بعد أن رجع نابليون من جزيرة « إلبا » كان يظهر أن قواته قد بلغت حجما أثار « الدم » الى رأسه مرة ثانية على ما يظهر . ومع ذلك فإنه كان يستخدم كلا من المفاجأة وخفة الحركة ، على طريقته الخاصة وبسبب ذلك كان على مقربة من احراز نتيجة حاسمة . واذا كان اقترابه من جيشي « بلوخر » و « ولنجتون » وقع مباشرة من الواجهة الجغرافية فان توقيته كان مفاجأة . ثم ان اتجاهه زحزح « وصلة » (أى نقطة الاتصال بين الجيشين) العدو . على ان « نبي » قصر في « ليني » في القيام بالدور الذي كان مطلوبا منه في المناورة — وهو اقتراب تكتيكي غير مباشر — فأفادت البروسيون من الهزيمة الحاسمة . ولما رجع نابليون على « ولنجتون » في « ووترلو » كان اقترابه مباشرا محضا وبذا أدى الى خسارة في الوقت وفي الرجال زادت المشاق التي نشأت عن تقصير « جروشي » في ابقاء « بلوخر » بعيدا عن ميدان المعركة « بتحويل » فكره . وعلى ذلك فان ظهور « بلوخر » كان اقترابا غير مباشر من الواجهة النفسية لأنه كان على غير انتظار ، حتى ولو أنه لم يصل الا الى جناح نابليون . وبهذه الصفة كان حاسما ضد نابليون .

الباب الثامن

من سنة ١٨٥٤ الى سنة ١٩١٤

لما كان المعرض الأكبر الذى أقيم «للمصلح» فى سنة ١٨٥١ فاتحة عصر جديد كثرت فيه الحروب، كانت أول حرب من سلسلة الحروب الجديدة غير حاسمة لا فى مجراها العسكرى ولا فى غايتها السياسية. ومع ذلك ففى الامكان اقتباس دروس سلبية، على الأقل، من حرب «القرىم» وما كانت عليه من الوحامة والحماقة. ومن أشهر هذه الدروس عقم الاقتراب المباشر. فتمت وضع الجنرالات غنائم على أعينهم كان من الطبيعى أن يقوم أحد (الياوران) رجال الحاشية بتوجيه اللواء الخفيف (من فرسان البريطانيين) ودفعه الى مدافع الروس مباشرة. فقد كان كل شىء فى الجيش البريطانى فى كل دائرة من دوائر العمل يحرى على طريقة مباشرة مطابقة للأصول بدرجة متناهية دهش لها القائد الفرنساوى «كانروير» حتى انه لما حضر حفلة راقصة فى بلاط ملوكى بعد الحرب ببضع سنين، تذكر فصاح قائلاً «البريطانيون يحاربون كما ترقص فكتوريا». ولكن من حسن الحظ كان الروسيون متشبعين بغريزة اجراء أعمالهم بطريقة مباشرة أيضاً — لدرجة أنهم اذا حاولوا القيام بمناورة بخائية فان الآلاى من آلياتهم بعد أن يمشى طول النهار كان يعود فيجد نفسه أمام «سيواستوبول» كما كان وقت الفجر.

وإنا فى فحص أدلة حرب «القرىم» المكدره يجب ألا يفوتنا الواقع، والا نبالغ فيه، وهو أن فى الأربعين سنة التى انقضت منذ معركة «ووترلو» كانت كل جيوش أوروبا قد أصبحت جيوشاً محترفة بأدق معنى للكلمة. وذلك لايعنى الاعتراض على الجيوش المحترفة، ولكن فيه تصوير لما ينطوى عليه جو الاحتراف من الأخطار. وهذه الأخطار تتأكد فى المقامات العالية، لأمحالة، ومع طول مدة الخدمة مالم تقاوم بالاتصال بعالم الأعمال والأفكار الخارجى اتصالاً بعيد النشاط ويحدده. ومن جهة أخرى فان المراحل الأولى من الحرب الأهلية الأمريكية قد أبانت ضعف الجيش الذى لا يكون محترفاً. فان التعليم جوهرى لصوغ آلة فعالة يديرها الجنرال. فالجرب المستطيلة الأجل أو السلم القصيرة الأجل هما أكثر الظروف ملائمة لانخراج آلة من هذا القبيل. ولكن اذا كانت الآلة أرق من رجل الفن الذى يديرها كان هناك عيب فى النظام. والحرب الأهلية الأمريكية التى وقعت فى ١٨٦١ — ١٨٦٥ تبين لنا العكس بكل وضوح سواء فى ذلك وفى غيره. فالقادة العسكريون، خصوصاً فى جيوش الجنوب، كان القسم الأعظم منهم ممن اتخذ الجندية مهنة. على أن ممارسة هذه المهنة كانت قد تحولت فى أغلب الحالات ممارسة الأعمال المدنية أو الفراغ الذى انقضى فى الدراسة الفردية. ولم تكن ساحة التعليم هى الأرض التى ربت فيهم الأفكار الاستراتيجية ولا كانت هذه التربية محدودة بهذه الأرض. ومع ذلك فبالرغم من اتساع دائرة الاطلاع المنعش وغزارة المادة التى

استقوا منها ما قد يسمى بالاستراتيجية المحلية فإن العمليات الكبرى كانت تدار في بادئ الأمر طبقا للغاية المتفق عليها بحكم العادة . ففي الحملة الافتتاحية كانت الجيوش المتحاربة يقصد الواحد منها خصمه ويحذف عليه مباشرة . فكانت النتيجة غير حاسمة كما حصل في (ولاية) "فرجينيا" وفي (ولاية) "ميزوري" . ثم ان "ماككيلان" لما تعين قائدا عاما لجيوش الشمال فكر في سنة ١٨٦٢ وابتكر خطة الانتفاع بالقوة البحرية لنقل جيشه الى الجناح الاستراتيجي لعدوه — لا الى مؤخرته . فهذه الحركة وان كان لاشك في أنها مما يؤمل فيه النجاح أكثر من الزحف على العدو مباشرة بطريق البر ، الا أنها على ما يظهر ، ابتكرت كوسيلة للاقترب من "رتشموند" عاصمة العدو من طريق أقصر ، أكثر من كونها اقترابا غير مباشر بالمعنى الحقيقي . على أن هذه الآمال خيبتها الرئيس "لنكلن" بامتناعه عن قبول مجازفة مقصودة . وبناء على ذلك أبقى فيلق "ماكدويل" لوقاية "واشنطن" مباشرة وبذلك حرم "ماككيلان" لامن قسم من قوته فحسب ، بل حرمه من عنصر تشيت أفكار العدو الذي هو جوهرى لنجاح خطته . ومن ثم فانه بعد إنزال جنوده الى البر ضاع منه شهر وهو أمام "يوركسون واضطر لتغيير خطته فجعلها اقترابا بالتقاء جنوده في نقطة واحدة بعد السير متفرقة أى اقترابا شبه مباشر بالاتحاد مع "ماكدويل" الذي لم يسمح له الا بالزحف برا على طول الطريق الموصل من "واشنطن" الى "رتشموند" مباشرة . ومع ذلك فإن العمليات غير المباشرة التي قام بها "ستونول" جاكسون في وادي "الشندو" كان لها من التأثير الأدبي في حكومة "واشنطن" ما جعلها تؤجل مرة أخرى حصّة "ماكدويل" في الزحف الرئيسى . وحتى مع ذلك كانت مقدمة جنود "ماككيلان" على مسافة أربعة أميال من "رتشموند" على قدم الاستعداد للوشة النهائية قبل أن يتقوى "لى" بالدرجة الكافية لأن يتدخل . ثم ان الميزة الاستراتيجية كانت في جانب "ماككيلان" حتى بعد فشله تكتيكا في المعارك التي استمرت سبعة أيام . وربما كانت هذه الميزة أعظم مما كانت قبلا لأن تعطيل سيره الجاني لم يمنعه من تحويل قاعدته نحو الجنوب الى نهر "الجيمس" . فهو والحالة هذه لم يكفل سلامة مواصلاته فقط ، بل انه اقترب من مواصلات العدو المتجهة جنوبا من "رتشموند" ، بدرجة خطيرة . غير أن هذه الميزة زالت بتغيير الاستراتيجية . فان "هليك" تعين قائدا عاما متخطيا "ماككيلان" لأسباب سياسية ، وأمر باعادة أركاب جيش "ماككيلان" بالسفن والانسحاب الى جهة الشمال ليتحد مع جيش "بوب" في زحف مباشر بطريق البر . فكما يحصل كثيرا في التاريخ ، ليس معنى ازدواج القوة ازدواجا مباشرا أنها تصبح أقوى مما كانت بمثلين ، بل انه ينقص تأثيرها بمقدار النصف لأنه يجعل «خطوط انتظار» العدو أبسط . ومع ذلك فان استراتيجية "هليك" تطابق التفسير الظاهري لمبدأ الاحتشاد فتيين منها الزلل الذي يقع فيه الذين يستسهلون هذا العلاج المألوف لكل الحالات العسكرية . أما استراتيجية الاقترب المباشر التي كانت سائدة طول النصف الثاني لسنة ١٨٦٢ وما كان يلزمها من العجز ، فقد انتهى أمرها بالخيبة التي صادفتها في المعركة

الدموية التي نشبت في ١٣ ديسمبر "بفردريكسبورج". ثم ان استمرار هذه الاستراتيجية ودوامها في سنة ١٨٦٣ لم يؤد الى زيادة الاقتراب من "رشموند"، بل انه أدى الى غزو الجنوبيين أراضي الشمال على أثر انهيار الحركات التعرضية التي قام بها جنود الشمال . ثم ان هذا الغزو المباشر صدّه هو الآخر في "جتربورج". وفي نهاية السنة كانت الجيوش قد رجعت الى مواقعها، وكان كلا الطرفين قد سفك من دمائه ما أضعفه بدرجة لا يستطيع معها سوى الوقوف أمام خصمه وجها لوجه عبر نهري "الرايدان" و "راباهانوك" ويحذق فيه بعين الحقد . ومما له دلالة خاصة هو أن في هذه الحملات التي كان الطرفان يتبادلان فيها الاقتراب المباشر كان ما يحصل من المزايا يكون في جانب الفريق الذي ينتهج خطة الدفاع مكتفيا بصد زحف خصمه . لأن في مثل هذه الظروف الاستراتيجية يبقى الدفاع هو الصورة الأقل استقامة من الأخرى لأنها تقتصر على تجنب بذل مجهود لا طائل تحته .

والمتفق عليه بصفة عامة هو اعتبار صدّ الغزو الذي قام به "لى" في "جتربورج" مبدأ انقلاب حالة الحرب وتغيرها . على أن هذا الزعم لا مبرر له الا بالمعنى المسرحي . أما حكم الرأي التاريخي السديد فقد أكد مرة بعد أخرى أن المؤثرات الحاسمة جاءت من جهة الغرب . وأولها كان في أبريل سنة ١٨٦٢ حينما مرت العمارة البحرية التي كانت تحت قيادة "فاراجوت" أمام الطوابي التي كانت تحرس مصب نهر "المسيسيبى" وتمكن بها "فاراجوت" من الفوز بتسليم "نيواورليز" بدون سفك دماء . فكانت هذه في الواقع رأس السهم الذي نفذ بين شطرى ولايات الجنوب على طول الخط الحيوى المكوّن من هذا النهر العظيم صعدا على مجراه .

أما المؤثر الحاسم الثانى فقد أحرز أبعد من ذلك صعدا في "المسيسيبى" في نفس ذلك اليوم أى ٤ يولييه ، عند ما شرع "لى" في رجعته من "جتربورج" . وهو استيلاء "جرانت" على "فيكسبورج" التي أعطت الشمال السيطرة التامة على هذا الشريان الحيوى . وبذلك أصبحت ولايات الجنوب محرومة حرمانا دائما من تغذية جنودها بالامدادات والمؤن من الولايات الواقعة وراء "المسيسيبى" . على أن تأثير هذا الاحتشاد ، القائم على الاستراتيجية العظمى ، ضد الشريك الأصغر ، يجب ألا يغطى على الوسائل الاستراتيجية التي أوجدهته . فان أول اقتراب الى "فيكسبورج" في ديسمبر سنة ١٨٦٢ كان مباشرا في جوهره وقد أخفق . وفي فبراير ومارس سنة ١٨٦٣ حاولوا عبثا أربع مرات الوصول الى الغاية بمناورات ضيقة ترمى الى تجاوز الجناح . وبعد ذلك لجأ "جرانت" الى اقتراب غير مباشر واسع النطاق كان شبيها بحركة "وولف" النهائية في "كوبيك" (كندا) لا من حيث جرأتها فقط . ففر قسم من أسطول الشمال ونقلاته من أمام بطاريات "فيكسبورج" ليلا وسار نحو الجنوب الى نقطة تبعد عن القمامة بمسافة ثلاثين ميلا . ثم تحرك معظم الجيش الى تلك النقطة برا بطريق الشاطئ الغربى

”لمسيسي“ وتحت ستر الحركات التي كان قام بها ”شيرمن“ لتشتيت أفكار العدو متجهها نحو الشمال — الشرق من ”فيكربورج“ . ثم نقل الجيش الى الشاطئ الشرقى في مواجهة مقاومة ضعيفة . ولما انضم ”شيرمن“ الى ”جرانت“ ثانيا قام هذا بجازفة مقصودة هي انفصاله عن قاعدته الوقية الجديدة وتحرك شمالا متوغلا في اراضى العدو ، ووضع نفسه على مؤخرة ”فيكربورج“ معترضا مواصلاتها مع الولايات الشرقية الرئيسية من بلاد حكومة الجنوب بعد أن دار من النقطة التي بدأ منها دورة تكاد تكون تامة . فكان الظاهر والحالة هذه أنه وضع نفسه في منتصف المسافة الكائنة بين فكي العدو — لأن قواته كانت محتشدة في ”فيكربورج“ وفي ”جاكسون“ . وعلى مسافة أربعين ميلا شرقا توجد نقطة اتصال السكة الحديدية الجانبية الجارية شمالا وجنوبا بالخط الرئيسى المار شرقا وغربا . ولكنه في الواقع زحزح عمل هذين الفكين . ومما هو جدير بالذكر أنه حينما وصل الى هذه السكة الحديدية رأى من المستحسن أن يبدأ بنقل جيشه بأجمعه نحو الشرق ليلجئ العدو الى اخلاء ”جاكسون“ . وفي ذلك بيان للتغيير التي طرأ على الظروف الاستراتيجية بسبب تطور السكك الحديدية . لأنه بينما كان نابليون يستخدم خط نهر أو سلسلة تلال كحاجزه (سده) الاستراتيجى . كان حاجر ”جرانت“ الاستراتيجى ينشأ عن تملكه نقطة واحدة — نقطة اتصال الخطوط الحديدية . وبعد أن استولى على هذه النقطة دار الى الوراء وتحرك زاحقا على ”فيكربورج“ وكانت اذ ذاك قد انفصلت وبقيت منفصلة مدة من الزمن كانت كافية لتسليمها بعد ذلك بسبعة أسابيع . وكانت النتيجة الاستراتيجية على أثر ذلك فتح طريق ”تشانانوجا“ الى ”جورجيا“ التي هى مورد الغلال لولايات الجنوب . ومنها الى الولايات الشرقية بأجمعها .

فكانت هزيمة الجنوب حينذاك تكاد تكون أمرا لا مفر منه . ومع ذلك فان جنود الشمال كادوا يفقدون النصر الذى كانت مضمونا لهم . لأن ولايات الشمال استولى عليها الملل في سنة ١٨٦٤ تحت تأثير الشدة وأصبحت الكلمة للعنصر الأدبى وأخذ حزب الصلح يزداد يوما بعد يوم بانضمام الذين ملوا الحرب الى صفوفه . وكان موعد انتخاب الرئيس فى نوفمبر فكان لا بد من اعطاء وعد صريح بتعجيل النصر وإلا ينتخب رئيس غير ”لنكن“ يسمى للاتفاق مع العدو على عقد الصلح . ولهذا السبب استدعى ”جرانت“ من الغرب ليتولى القيادة العليا . فكيف كان سعيه فى الحصول على النصر المطلوب عاجلا؟ بالاستراتيجية التي كان يتبعها دائما أولئك القادة المتمسكون بالأصول العتيقة المتفق عليها بين رجال الجندية — أى باستخدام قوته المتفوقة على العدو تفوقا هائلا بأن يلقى ثقله على جيش العدو فيحطمه تحطيا ، أو أن ينهكه « بالطرق المستمر » . فقد شاهدنا أنه فى حملة ”فيكربورج“ لم يستخدم الاقتراب غير المباشر المتطرف الا بعد أن انتهج الاقتراب المباشر أكثر من مرة ثم فشل . وعندها نفذه بمهارة الأستاذ . ولكن يظهر أن ذلك الدرس لم ينطبع على ذهنه .

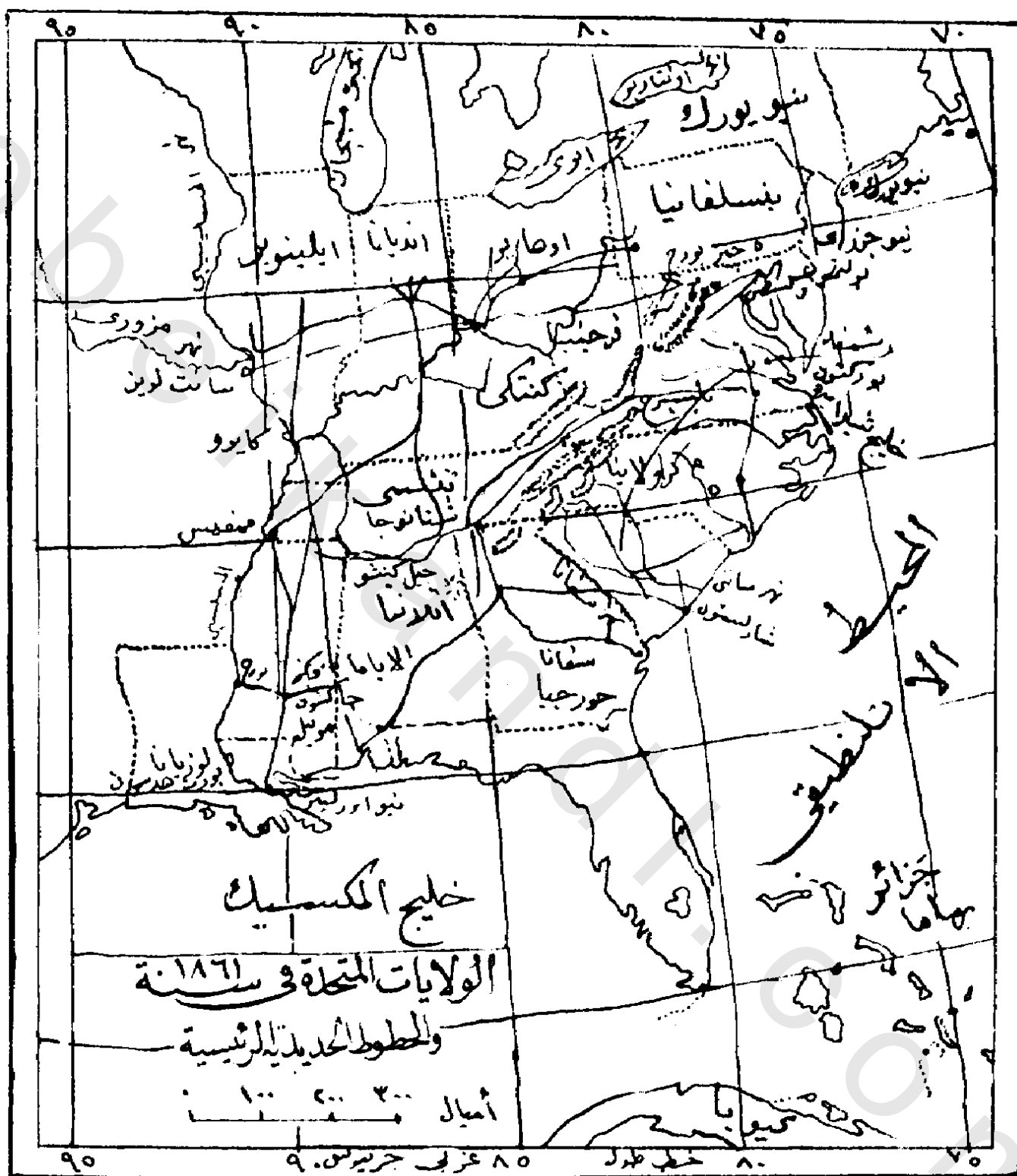
فالآن وهو في منصب القيادة العليا جاءت أعماله مطابقة لطبيعته . فقد صمم على انتهاج الاقتراب المباشر القديم نحو الجنوب من نهر "الراهانوك" متجها نحو "فرجينيا" . على أن ذلك كان يرمى الى شيء آخر — لأن غرضه الحقيقي هو جيش العدو أكثر من كونه عاصمة العدو . فوجه مرؤوسه "ميد" وزوده بقوله "أينما يذهب" لي "عليك أنت أيضا أن تذهب" وانصافا "جرات" أيضا يجب القول انه وان كان اقترابه مباشرا بالمعنى الشامل فهو لم يكن بمعنى مجرد اندفاع جهي مطلقا ، وفي الحقيقة انه كان يسعى دائما للالتفاف حول جناح عدوه بالمناورات وان كانت في محيط ضيق . وزيادة على ذلك فانه استوفى كل الأصول العسكرية الصحيحة من الاحتفاظ باحتشاد جيشه ، وملازمة ابقاء غرضه نصب عينيه لايحوله عنه فزع آت من جهة أخرى . وكانت "ارادته للنصر" لا تفوقها حتى ارادة "فوش" . ويحق للذين اتبعوا طريقته في سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ أن يحسدوه على ما لاقى من رئيسه السياسى من سخاء العون الذى أمده به والثقة التى لا تنقطع . فمن المؤكد أن ظروفه كانت من أكل ظروف الاستراتيجية الأصولية بأحسن طرقها المنطوية على الاقتراب المباشر .

ومع ذلك ففي نهاية صيف سنة ١٨٦٤ ذبلت في أيدي رجال الشمال ثمرة النصر التى كانت ناضجة . ففي الشمال كان الصبر والجلد قد بلغ النهاية حتى يئس "لنكلن" من اعادة انتخابه — وهذا جزاء مؤلم على الثقة المطلقة التى أودعها في منفذه العسكرى وجزاء سخى على صدق العزيمة التى أدار بها "جرات" قوته المتفوقة التى انكششت الآن بشكل مرعب على أثر المعارك الطاحنة التى وقعت في "البرية" وفي "كولدهار بور" وفشلت فشلا تاما في سحق جيش العدو . وفي حين أن النتيجة الرئيسية — وهى الميزة الجغرافية التى توفرت بالدوران الذى تم حتى بلغ ما يقرب من مؤخرة "رتشموند" ، أحرزتها المناورات التى لم تسفك فيها دماء والتى حصلت أثناء زحفه . وعلى ذلك فقد كان على شيء من الرضاء اوجوده بعد الخسائر الجسيمة في الموقع الذى احتله "ماككيلان" في سنة ١٨٦٢ . على ان الجو الذى كان يظهر أنه في أشد درجات الحلوكة أضاء بظافة . فان "لنكلن" أعيد انتخابه في نوفمبر وعاد الى مركز القوة . فما هو العامل الذى أغاثه وحال دون احتمال انتخاب "ماككيلان" مرشح الحزب الديمقراطى الذى كان يطلب الصلح ليحل محله ؟ ليست حملة "جرات" التى لم تتقدم في الواقع بين يولييه وديسمبر بل أخفقت أخفاقا مزدوجا في منتصف أكتوبر كلفها كثيرا . انما العامل الذى كان سبب النجاة هو باقرار المؤرخين استيلاء . "شيرمن" على "اطلنتا" في سبتمبر . فان "جرات" عندما استدعى ليتولى القيادة العليا . خلفه في القيادة في الغرب "شيرمن" الذى اشترك بمقدار غير يسير في الفوز الذى أحرزه "جرات" في "فيكر بورج" . وكان هناك تناقض بين أمانى كل منهما . فبينما كان الغرض الأول الذى يرمى اليه "جرات" هو جيش العدو كان "شيرمن" يرمى الى الاستيلاء على النقاط الاستراتيجية . وكانت "اطلنتا" التى هى قاعدة

جيش العدو الذى يقاومه ليست نقطة الاتصال بين أربعة خطوط من خطوط السكك الحديدية الهامة لحسب ، بل كانت أيضا مستودعا لمؤن حيوية . وكما قال "شيرمن" كانت "مليئة بدور صب المعادن (المسابك) ، والترسانات ، ودور الصناعة (الورش) الميكانيكية" . فضلا عن كونها رمزا أدبيا . وفي رأيه أن "الاستيلاء عليها يكون نذير الموت لولايات الجنوب" وسعى لأن يضربها بالمناورات بقدر الامكان بدلا عن ضربها بمعركة — اذ كان متشبعا بفكرة الفوز بأرخص ثمن ممكن . ومهما وجد من تشعب الآراء في تقدير قيمة الغرض الذى قصده "جرات" والغرض الذى قصده "شيرمن" فان الظاهر هو أن الأخير منهما أكثر ملاءمة للنفسية الديمقراطية . وربما كان الحاكم المطلق وحده الواثق من مركزه هو الذى فى وسعه أن يأمل أن يحافظ على المثل الأعلى للفكرة العسكرية بأن يجعل "القوات المسلحة" الغرض الذى يرمى اليه . وان كان حتى هو نفسه يلتزم الحكمة فيوفق بين هذا المثل الأعلى وحقائق الموقف . ويزن الظروف المتوقعة لتنفيذه بميزان العقل . ولكن الاستراتيجى الذى يخدم حكومة ديمقراطية لا يتسع له المجال بهذا القدر . فهو يعتمد على ما يمد به مخدمه من العون وما يوليه من الثقة فيضطر لأن يعمل فى حدود من الوقت والتكاليف أقل من الحدود التى يعمل فيها الاستراتيجى "المطلق" . وتطلب منه مكاسب سريعة بالحاح أكثر . ومهما كان ما يأتى به المستقبل فى آخر الأمر فانه لا يستطيع تأجيل تقديم الحساب . ومن ثم قد تلجئه الضرورة لأن يحيد عن غرضه مؤقتا ، أو على الأقل ، يعطيه شكلا آخر بأن يغير خط عملياته . فمع هذه العوائق التى لا مفر منها يحذر بنا التساؤل عما اذا لم يكن من الواجب أن تكون النظرية العسكرية فى مثلها العليا أكثر تطابقا مع الحقيقة المقلقة وهى أن المجهود العسكرى يقوم على الأساس الذى يرتضيه الشعب — أى أن تقديم الرجال والذخائر ، بل وحتى مواءة القتال أو قطعه كل ذلك يتوقف على رضا "رجل الشارع" . فان الذى يأجر الزمار يختار النعمة . وليس ما يمنع أن يُعطى الاستراتيجيون أجرا ، من النوع والصف ، أكثر اذا هم أصلحوا نغمتهم بقدر ما فى امكانهم حتى تقبلها أذن الشعب (يريد أن لا مانع من تقديم الجنود والذخائر مادام القائد يعمل ما يرضى الشعب) .

وقد كان اقتصاد "شيرمن" فى القوة بالمناورات أكثر ظهورا لأنه خلافا لما كان عليه "جرات" فى "فرجينيا" ، كان مقيدا فعلا بخط حديدى واحد لاستيراد مؤنه . ومع ذلك فانه تجنبنا لتوريط جنوده فى هجوم مباشر ترك هذا الخط وابتعد عنه . فلم يسمح بهجوم جبهى فى كل هذه الأسابيع التى انقضت فى المناورات الامرة واحدة فى "جبل كنيصو" . ومما هو جدير بالذكر أنه سمح بهذا الهجوم ليوفر على جنوده مشقة مواءة السير الجانبي فوق طرق مغمورة بالمياه . وأن هذا الهجوم ضد — وقد خف تأثير هذه الصدمة لأن الهجوم أوقف

يُجْرَدُ اعاقته لأول مرة . وكانت هذه في الواقع هي المرة الوحيدة التي حصلت أثناء الزحف الذي قطع فيه "شيرمن" ١٣٠ ميلا مجتازا بلادا جبالية تتقاطع فيها الأنهر وورط فيها جنوده في معركة هجومية . وهو في الحقيقة كان يقوم بالمناورات بمهارة استدرج بها جنود الجنوب المرة بعد المرة الى جهات لا طائل تحتها فان ارغامه عدوا متخذاً خطة الدفاع الاستراتيجي على انتهاج سلسلة من الحركات التكتيكية التعرضية التي تكلفه خسائر كثيرة كان فوزا في المهارة الفنية الاستراتيجية لم يسبق له مثال في التاريخ . ومما يرفع من شأن هذه المهارة بصفة خاصة هو أن "شيرمن" كان مرتبطا في مواصلاته بخط واحد لا غير . وحتى مع مراعاة أضيق قواعد القياس العسكرية ، وغض النظر عن التأثير الجسمي أدبيا واقتصاديا الذي أحدثه هذا العمل . فانه عمل مجيد لأن "شيرمن" أوقع بالعدو من الخسائر أكثر مما أصابه هو . وليس ذلك نسبيا فقط . بل في الواقع — اذا "قورن" عمله بعمل "جرات" في فرجينيا . ثم ان "شيرمن" بعد استيلائه على "اطلانتا" جازف مجازفة لم يسبق له مثلها ، وانتقدت عليها كثيرا الشراح العسكريون فقد فكر في أنه اذا استطاع أن يخترق "جورجيا" سيرا ويدمر نظم سككها الحديدية بما أنها "مورد الغلال في ولايات الجنوب" ، ومنها يسير الى "كارولينا" الجنوبية "فكارولينا" الشمالية فان التأثير الأدبي الذي يحدثه غزو بلاد الجنوب على هذه الصورة ، ووقف تسير المؤن شمالا الى "رثشموند" وإلى جيش "لى" ، يحدثان انهيأ مقاومة ولايات الجنوب . ولذلك فانه أهمل جيش "هود" الذي كان أبلأه الى الجلاء عن "اطلانتا" ثم شرع في سيره المشهور "السير الى البحر" مخترقا "جورجيا" وهو يؤمن جيشه من البلاد ويدمر السكك الحديدية فقام من "اطلانتا" في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٦٤ وفي ١٠ ديسمبر وصل الى ضواحي "سافانا" وفيها أعاد فتح مواصلاته وجعلها هذه المرة بحرا ، وحرم الجنوب من ثغوره الشهيرة التي كانت باقية له . وبعد ذلك تحرك شمالا مجتازا ولايتي "كارولينا" وجاء على مؤخرة "لى" أما "جرات" فانه لم يستأنف الزحف الا بعد ذلك بثلاثة أشهر ونيف ، في أوائل أبريل . وهذا الزحف أحرز فوزا مسرحيا . وتسليم "رثشموند" أعقبه تسليم جيش "لى" في ظرف أسبوع . فأما من حيث الظاهر فان هذا التسليم جاء فوزا مبررا لاستراتيجية "جرات" المباشرة واتخاذها "المعركة" غرضا . وأما من حيث الحكم الجدى المبني على النظر والرأى السديد فان عامل الوقت من أهم العوامل . فان تدهور مقاومة ولايات الجنوب سببه الجوع الذي كان له رد فعل في القوة المعنوية . فقد كان الاقتراب غير المباشر الى مؤخرة العدو الاقتصادية والمعنوية حاسما في الطور الأخير كما كان في التنقلات المتوالية التي مهدت للحسم في جهة الغرب . وهذه الحقيقة تتضح لمن يدرس هذه الحرب دراسة دقيقة شاملة . وقد قدرها حق قدرها الجنرال "إدموندس" المؤرخ الحالئ الرسمى الذي وضع تاريخ الحرب العالمية . وذلك منذ أكثر من عشرين سنة حيث قال في قراره ما يأتي :



”إن العبقريّة العسكريّة التي اتصف بها قائد الجنوب الكبيران ”لي“ و”جاكسون“ والمقدرة الحربيّة التي اتصف بها جيش فرجينيا الشماليّة التي لا مثيل لها . وقرب العاصمتين المتنافستين أحدهما من الأخرى . كل ذلك كان سببا في تركيز الالتفات على المسرح الشرقي للحرب بدرجة لا مبرر لها . أما الدرجات الحاسمة فقد وقعت في الغرب . فان الاستيلاء على ”فيكربورج“ و”بورت هندرسون“ في يوليّه سنة ١٨٦٣ كان النقطة الحقيقيّة التي طرأ فيها الانقلاب على الحرب كما كانت العمليّات التي قام بها جيش ”شيرمن“ الغربي الأكبر هي التي أدت في الحقيقة إلى انهيار الجنوب في ”دارمحكمة أبوماتوكس“ — المكان الذي سلم فيه ”لي“ في الشرق .

وذلك الالتفات الذي لا مبرر له يرجع بعضه إلى تخفّض المعارك التي تسحر الجندي العادي الذي يدرس التاريخ ، وبعضه إلى تأثير حماسة ”هندرسون“ في كتابه المسمى ”ستونول جاكسون“ — الذي ربما كان شعرا حماسيا أكثر منه تاريخيا . وذلك لم يقلل من قيمة الكتاب الحربيّة . بل على العكس فانه زادها . وربما كانت هذه الزيادة راجعة إلى بيان آراء هندرسون في الحرب أكثر منها إلى سرد أعمال ”جاكسون“ التنفيذيّة ولكن هذا الكتاب قد اجتذب التفات الطالب الحربى البريطانى إلى حملات ”فرجينيا“ بما حواه من البيانات الشيقة ، وأهمل المسارح الغربيّة حيث وقعت الأعمال الحاسمة . وفي مقدور الجنرال ”أدموندس“ بصفته واضع تاريخ حرب سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ أن يؤدى خدمة للأجيال المقبلة بتحليله للتأثير المتولد عن هذا ”الالتفات الذى لا مبرر له“ في أفكار البريطانيين قبل سنة ١٩١٤ ، وبالتالي ما كان له من أثر في الاستراتيجية البريطانيّة . فان كلاهما لم يكن متحيزا فقط بل كان قائما على قياس خاطئ .

وعند ما ننقل من الحرب الأهلية الأمريكيّة إلى الحروب الأوروبيّة التي وقعت على أثرها فان الذى ينطبع على مخيلتنا أكثر من غيره هو وضوح التناقض بينهما . فأول نقيض هو أن في حربى سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٠ كان كلا الفريقين المتحاربين متأهبا للحرب ولو اسما على الأقل . والنقيض الثانى أن النضال كان بين جيوش محترفة . والثالث أن الرئاسة العليا لدى الفريقين كان عند كل منها كشف بيّان الأخطاء والزلات لم تتوصل إليه القيادة العليا في الحرب الأمريكيّة . والرابع أن الاستراتيجية التي اتبعها كلا الطرفين في كلا الحربين كانت ناقصة نقصا جوهريا في الفن . والخامس أنه بالرغم من كل ما ذكر كان الجسم سريعا . فاستراتيجية ”مولتكه“ كانت في جوهرها استراتيجية الاقتراب المباشر وليس فيها من الخدمة الا شيء يسير ، معتمدة على مجرد قوة التحطيم التي تتوافر في تفوق القوة المحشودة . فهل نستنتج من ذلك أن هاتين الحربين هما الاستثناء الذي يضرب به المثل على اثبات القاعدة ؟ نعم انهما مستثنيان في الواقع ولكن لا يمكن القول بأنهما استثناء للقاعدة التي تنبج عن الحالات الكثيرة

التي سبق لحصها . لأنه ليس في واحدة منهما ان كان كل من ضعف القوة وبلادة العقل كلاهما في جانب الفريق المهزوم فكانا يثقلانه من أول الأمر . فكثيرا ما شوهد أحدهما أو الآخر (الضعف أو البلادة) ولكن لم يشاهدا كلاهما مطلقا . أما في سنة ١٨٦٦ فكان ضعف قوة النمساويين من بادئ الأمر في كون أسلحتهم أقل قيمة من أسلحة عدوهم — لأن البندقية التي تحشى من الخلف أعطت البروسيين ميزة على بندقية النمساويين التي تحشى من الفوهة كما ثبت في ميدان القتال بما لا يدع شكاً ، ولو أن آراء المجامع العلمية العسكرية في الجيل التالي كانت تميل الى اغفال ذلك . وأما في سنة ١٨٧٠ فكان ضعف قوة الفرنسيين يرجع بعضه الى أقليتهم العددية ، وبعضه الى انخراط درجة التعليم كما في سنة ١٨٦٦ . فهذه الحالات المزروعة فيها أكثر مما يكفي لتفسير أسباب حاسمية هزيمة النمساويين في سنة ١٨٦٦ ، وأكثر منه لتفسير أسباب حاسمية هزيمة الفرنسيين في سنة ١٨٧٠ ، أمام اقتراب مباشر . أما الدرس الحقيقي المكتسب من هذه الأمثلة فهو ليس في أن الاقتراب الاستراتيجي فيها كان استثناء للقاعدة ، بل ان الاستثناء من التجارب السالفة كان في الظروف . فقد كانت ظروفًا استثنائية حقا . وفي المناقشات أو الاستعدادات التي تسبق الحرب لا يجوز جندی على تأسيس خططه على افتراض أن عدوه سيكون ضعيفا عقلا وجسما كالنمساويين في سنة ١٨٦٦ والفرنسيين في سنة ١٨٧٠ ، ومع ذلك فإن الواقع في سنة ١٩١٤ هو أن الخطط التي وضعتها هيئات أركان الحرب المختلفة وبينت تفصيلاتها وقبلتها للحرب كانت مؤسسة على الاقتراب المباشر . ومن ثم فإن الاستنتاج الوحيد الممكن ، وان كان لا يصدق ، هو انها افترضت دون أن تشعر أن ظروف سنة ١٨٧٠ كانت ظروفًا عادية لا استثنائية .

وفي نفس الوقت فإن مما يستحق البيان قبل الانتهاء من هذه الأمثلة هو أن الاستراتيجية الألمانية وان كانت مباشرة في تصميمها الا أنها كانت أقل من المباشرة في تنفيذها . فان الحاجة الى توفير الوقت في سنة ١٨٦٦ باستخدام كل السكك الحديدية الموجودة أدت "بمولتكة" لأن ينزل القوات البروسية من القطارات على جبهة متسعة جدا تزيد على ٢٥٠ ميلا وكان في نيته أن يجمعها الى الداخل بأن تتلاقى معا بزحف سريع مجتازة منطقة الحدود الجبلية ويضم جيوشه في بوهيميا الشمالية . ولكن ضياع الوقت بسبب امتناع ملك بروسيا عن أن يكون هو المعتدى خيب نية "مولتكة" وذلك أكسب استراتيجيته اقترابا غير مباشر لم يكن في تصميمه . لأن الجيش النمساوي احتشد واندفع الى الأمام في تلك الفترة فحرم "مولتكة" من الساحة التي كان يريد أن يحتشد فيها . ثم ان ولى عهد بروسيا ، لاعتقاده بأن زاوية "سليسيا" الخارجة مهددة انتزع منه اذنا على غير رضاه لتحريك جيشه الثاني نحو الجنوب لتأمين "سليسيا" وبذا ازداد انفصالا عن الجيوش الأخرى ، وبذا أيضا تحرك على طول

القسم العلوى لحرف L (الافرنجية) فوضع نفسه فى موقع يهدد جناح ومؤخرة الكتلة النمساوية وقد سكب الأدعياء كثيرا من المداد فى إداة "مولتكه" على إذنه للأيمير بهذا الانشار المتسع مع أن هذا الامتداد كان فى الحقيقة عبارة عن بذور النصر الحاسم وان كان لم يبدره هو عن قصد .

فهذا القرب أحل بتوازن القيادة النمساوية العقلى بدرجة مكنت البروسيين ، بالرغم مما ارتكبه من الأخطاء الجسيمة ، أن ينفذوا أولا من الجبال على كلا الجانبين . ثم يحوزوا النصر الذى أحرزوه فى "كويجنجراتس" — حيث وقعت أخطاء أخرى صيرت الاقتراب غير مباشر فأصبح حاسما . غير أن القائد النمساوى غلب قبل افتتاح المعركة . فانه كان قد بعث الى امبراطوره رسالة برقية يلح فيها بطلب صالح عاجل .

وفى سنة ١٨٧٠ كان فى نية "مولتكه" أن يحاث معركة حاسمة على نهر "الصار" حيث تحشد جيوشه الثلاثة مطبقة على الفرنسيين فتسحقهم سحقا . وهذه الخطة قلبت رأسا على عقب لا بفعل الفرنسيين ولكن بفعل الشلل الذى أصابهم . وسبب هذا الشلل هو مجرد وصول أخبار تنبئ بأن الجيش الألمانى الثالث الموجود فى نهاية الميسرة قد عبر الحدود مبتعدا نحو الشرق وأحرز فوزا تكتيكيا صغيرا على قسم فرنساوى فى "وايسنبورج" وفى النتيجة كان التأثير غير المباشر الذى أحدثه هذا الاشتباك الصغير حاسما بدرجة أعظم مما كان يحتمل أن يتأتى من المعركة الكبرى التى كان فى النية أحداثها . لأن الجيش الثالث كان سمح له بأن يتخذ طريقا يسوده السكون متطرفا نحو الشرق خارج منطقة الجيوش الرئيسية المتناضلة بدلا من دورانه الى الداخل ليعزز الكتلة الرئيسية . ولذلك لم يشترك فى المعركتين الطائشتين "فيونفيل" و"جرافيلوط" — فان موقع الفرنسيين كان فى وضع يجعل اشتراكه فيها اشتراكا مثيرا أمرا غير محتمل لو أنه كان أقرب مما كان — ولهذا السبب كان هو العامل الحيوى فى الطور التالى الحاسم . لأن الجيش الفرنسى الرئيسى — الذى كان قد ازداد نشاطا ، لا فتورا ، بنتيجة معركة جرافيلوط — لما تقهقر وارتد جناحه ودخل الى قاعة "متس" كان فى ميسوره أن يفلت من الجيشين الأول والثانى الألمانين للذين كان الاعياء قد أخذ منهما كل مأخذ . ولكن احتمال تدخل الجيش الثالث حرض "بازان" على البقاء آمنا فى "متس" وبذا توافر الوقت للألمان بجمعوا شتاتهم ، وللفرنسيين ليفقدوا اتصال بعضهم ببعض بمجهودهم الذى أعقب تركهم الميدان المكشوف . وكانت نتيجة ذلك أن حرض "ماكاهون" محرض أو ضغط عليه سياسيا لأن يقوم بحركته لتخليص "متس" تلك الحركة الدالة على تدبير عظيم وإدارة أكثر عقما . وبهذه الكيفية تواجدت فرصة . لم تكن مقصودة ولا متوقعة . للجيش الثالث الذى كان ما يزال مواليا سيره "حرا" نحو باريس ، أن يقترب من جيش "ماكاهون" اقترابا غير مباشر . فما كان منه الا أن غير اتجاهه تغييرا تاما من جهة الغرب الى جهة الشمال وتحرك

هابطاً على جناح "ما كاهون" ومؤخرته فكانت نتيجة ذلك معركة "سيدان" فحتى في الحرب الذى كان فيه الاقتراب المباشر ظاهراً أكثر مما في غيره كان الطور الحاسم ينطوى على أساليب غير مباشرة أكثر مما تدل عليه الظواهر . على أن المشاهد في جملة الأبحاث النظرية العسكرية التى وضعت بعد سنة ١٨٧٠ ، أن الظواهر هى التى كانت تتأثر بها هذه الأبحاث ، دون الاستنتاجات العميقة . وهذا التأثير هو الذى كان يسود الحرب التالية التى كانت فى نطاق واسع -- وهى الحرب الروسية -- اليابانية . فإن الاستراتيجية اليابانية كانت تنطوى على الاقتراب المباشر العرف اذ كانت تابعة لمستشاريها الألمانين بغاية الدقة . فلم تحصل أية محاولة للاستفادة من الظروف التى كانت ملائمة بدرجة فوق المعتاد . ظروف كون مجهود روسيا الحربى متوقفاً على خط حديدى واحد ، هو خط سكة حديد سيبيريا . وليس فى التاريخ بأجمعه أن جيشاً كان يتنفس الهواء من حنجرة طويلة ضيقة كما كان الجيش الروسى الذى كان حجمه يزيد تنفسه صعوبة . غير أن كل ما كان استراتيجيو اليابان يفكرون فيه هو ضربة ينزلونها بالجيش الروسى . وجهة الى أسنانه مباشرة ، فأبقوا جنودهم متجمعة بمجموعات أكثر تلاصقاً مما كانت جنود مولتكة فى سنة ١٨٧٠ . نعم انهم حاولوا أن يقوموا باقتراب تتلاقى فيه جنودهم أمام "لياو - يانغ" ولما اتصلوا بالعدو سعوا مراراً لأن يتجاوزوا جناحه . ولكن اذا كانت هذه الحركات التى يقصد بها تجاوز الجناح تظهر على الخريطة كأنها متسعة نسبياً فإنها فى منتهى الضيق بالنسبة لحجم القوات . ومع أنه لم يكن لديهم جيش "حر" ثالث كالذى كان لدى "مولتكة" لحسن حفظه ، ولا طعم مغرى مثل "متس" ولا "ما كاهون" لينتفع هذا الطعم -- لأنهم ابتلعوا طعمهم بأخذه "بورت آرثر" -- فإنهم كانوا ينتظرون "سيدان" فكانت النتيجة أنهم كانوا قد أتعبوا أنفسهم بعد معركة "موكدن" النهائية التى لم تكن حاسمة لدرجة أنهم فرحوا ، وساعدهم الحظ ، لعقد الصلح مع عدو مل النضال مع أنه لم يشرك فيه عشر القوات الموجودة لديه بعد .

هذا التحليل التاريخى يعالج الحقائق ، لا الآراء الفرضية ، أى ما وقع فعلاً وما نتج عنه لا ما كان يمكن أن يقع . فان نظرية الاقتراب غير المباشر البارزة منه يجب أن تستقر على الأدلة المجسمة المأخوذة من التجارب الفعلية بأن الاقتراب المباشر غير حاسم وهذا التحليل لا دخل له مطلقاً بالجدل فيما يختص بالصعوبات التى تعترض القيام باقتراب غير مباشر فى حالة معينة ، اثباتاً كان أو نقياً . فليس من المناسب فى وجهة نظر هذا الموضوع الأساسى أن نبحث عما اذا كان فى استطاعة القائد أن يسلك سبيلاً غير الذى سلكه . وعما اذا كان السبيل الآخر يؤدي الى نتائج أحسن لو أنه سلكه .

على ان التبصر من وجهة المعلومات العسكرية العامة يسترعى الالتفات دائما . وكثيرا ما يكون ذا قيمة . ولذا فاذا تحول الانسان عن الموضوع الحقيقي لهذه الدراسة ونخرج عنه فانه قد يلاحظ العراقيل التي لاقاها اليابانيون من جراء قلة المواصلات ووعورة الاراضى فى ”كوريا“ و”منشوريا“ ومع ذلك يلاحظ التشابه العظيم بين ”بورت — أرثر“ و”مانتاو“ فان كانت الظروف أكثر صعوبة من بعض الأوجه . فانها كانت أفضل من أوجه أخرى . فضلا عن أن الآلة (الجيش) أحسن . وعلى ذلك فقد يتساءل الانسان عما اذا لم يكن فى امكان الاستراتيجية اليابانية فى الطور الأول من الحرب أن تستغل طعم ”بورت — أرثر“ بالطريقة الدالة على الدهاء التى استغل بها نابليون ”مانتاو“ وفى الطور الأخير ألم يكن هناك مجال لاستخدام قسم من القوة على أقل تقدير ضد تلك الحنجرة الضعيفة بين ”هاربين“ و”موكدن“.

الباب التاسع

النتيجة

لقد اشتملت مطالعاتنا على الحروب التسع التي كان لها أثر حاسم في مجرى التاريخ الأوروبي في الأعصر الحالية . وحروب التاريخ الحديث الكبرى الثمانية عشرة — معتبرين النضال الذي قام ضد نابليون حربا واحدة هي التي كانت تخمد نارها تارة في مكان ، وتعود الى الالتهاب تارة أخرى في مكان آخر فكانت في الواقع لا تنقطع . فهذه الحروب البالغ عددها سبعة وعشرين حربا تضمنت أكثر من ٢٤٠ حملة حربية . وفي ست من هذه الحملات فقط — هي الحملات التي انتهت بمعارك ”إيسوس“ . و ”جاوجا ميلا“ و ”فريدلند“ و ”واغرام“ و ”سادووا“ و ”سيدان“ — أمكن الحصول على نتيجة حاسمة بواسطة الاقتراب الاستراتيجي المباشر من الجيش الرئيسي للعدو . وفي الحملتين الأوليين منها كان الاقتراب الاستراتيجي المباشر الذي قام به الاسكندر قد سبقه التمهيد باستراتيجية عظمى مؤسسة على اقتراب غير مباشر هز الامبراطورية الفارسية من أساسها وزعزع ثقة أتباعها فيها . وإيس ذلك فحسب بل انه كان مضمونا بامتلاك آلة تكتيكية متفوقة تفوقا لا يوصف . ثم نفذ باقتراب تكتيكي غير مباشر . والحملتين الثانيةين كان نابليون شرع فيهما بأن حاول القيام باقتراب غير مباشر . ثم عدل من الاقتراب غير المباشر الى اقتراب مباشر . وعدوله هذا يرجع بعضه الى قلة صبره ، وبعضه الى ثقته في تفوق آله (جيشه) . وهذا التفوق كان يتركز على المدفعية المتجمعة كتلا . فكان الحسم في كل من ”فريدلند“ و ”واغرام“ راجعا بصفة رئيسية الى هذه الطريقة التكتيكية الحديثة . على أن الثمن الذي اشترى به فوزه في هاتين المعركتين وما كان له من الأثر في حظ نابليون ليس مما يشجع على العودة الى مثل هذا الاقتراب المباشر حتى ولو بتفوق تكتيكي مثل هذا التفوق . أما في سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٠ فقد شاهدنا مما مر بيانه أن هاتين الحملتين ولو أن تصميمهما كان على طريقة الاقتراب المباشر . إلا أنهما تحولتا على غير قصد الى اقتراب غير مباشر — عززه تفوق الألمان التكتيكي في كلتا الحالتين — السلاح الذي يحشى من الخلف في سنة ١٨٦٦ ، والتفوق العددي في سنة ١٨٧٠ . ولا شك في أن هاته الحملات الست ليست إلا حجة واهية لتبرير أى شخص يستحق اسم جنرال في الرضاء بانتهاج استراتيجية الاقتراب المباشر . ومع ذلك ففي كل عصور التاريخ كان الاقتراب المباشر هو الصورة المعتادة دائما للاستراتيجية . وكان الاقتراب غير المباشر المقصود بالذات الاستثناء النادر . فقليل هم القادة ، حتى بين مشاهيرهم الذين اتجهوا الاقتراب غير المباشر في استراتيجيتهم الافتتاحية ، وفي أغلب الأحيان اتجهوه كآخر حيلة بل وكآخر مغامرة ومع ذلك فقد أدى

هم الى الحسم في حين أن الاقتراب المباشر كان قد انتهى بهم الى الفشل فتركهم بحالة من الضعف لا يقوون معها على محاولة انتهاج الاقتراب غير المباشر . والفوز الحاسم الذي يحصل في مثل تلك الظروف التي تكون قد ازدادت سوءا له أهمية ذات مغزى خاص .

ولقد أبانت مطالعتنا عن ست وعشرين حملة حربية كان فيها الاقتراب الحاسم والاقتراب غير الحاسم ظاهرين ظهورا لا يقبل جدلا وهي حملات "ليساندر" في البحر "الايجي" (القسم الشرق من البحر الأبيض المتوسط) في سنة ٤٠٥ قبل الميلاد و "إييامينونداس" في "البلوبونيز" في سنة ٣٦٢ قبل الميلاد و "فيليب" في "بوتيويا" في سنة ٣٣٨ قبل الميلاد والاسكندر على نهر "الهيداسپس" (الهند) وضد "كاساندر" و "ليسياكوس" في الشرق القريب سنة ٣٠٢ قبل الميلاد وهانبال في حملة "ترازيمين" في "إتروريا" وحملة "سبيو" في "يوتيكا" و "زاما" بأفريقيا و "سيزار" في حملة "إليردا" في أسبانيا .

وفي التاريخ الحديث حملات "كرومويل" في "پرستون" و "دنبار" و "ورسستر" . وحملة "تورين" في الازراس سنة ١٦٧٤ -- ٧٥ وحملة أوجين في ايطاليا سنة ١٧٠١ وحملة "مارلبورو" في "فلاندرز" سنة ١٧٠٨ وحملة "فيالار" سنة ١٧١٢ وحملة "وولف" في "كويك" وحملة "جوردان" على نهري "الموزيل" و "الموز" سنة ١٧٩٤ وحملة الأرشدوق "شارلس" على نهري "الرين" و "الدنوب" سنة ١٧٩٦ وحملات بوناپارت في ايطاليا سنة ١٧٩٦ وسنة ١٧٩٧ وسنة ١٨٠٠ وحملاته في "أولم" و "أوستراتز" سنة ١٨٠٥ ، وحملة "جرانت" في "فيكسبورج" ، وحملة "شيرمن" في "اطلانتا" ، فكل هذه الحملات رجحت كفة الميزان في الحرب التي وقعت فيها ، وزيادة على ذلك فان مطالعتنا أبانت عدة أمثلة "للحد الفاصل" أي الأمثلة التي كان فيها الاقتراب أو تأثيره أقل وضوحا من غيره .

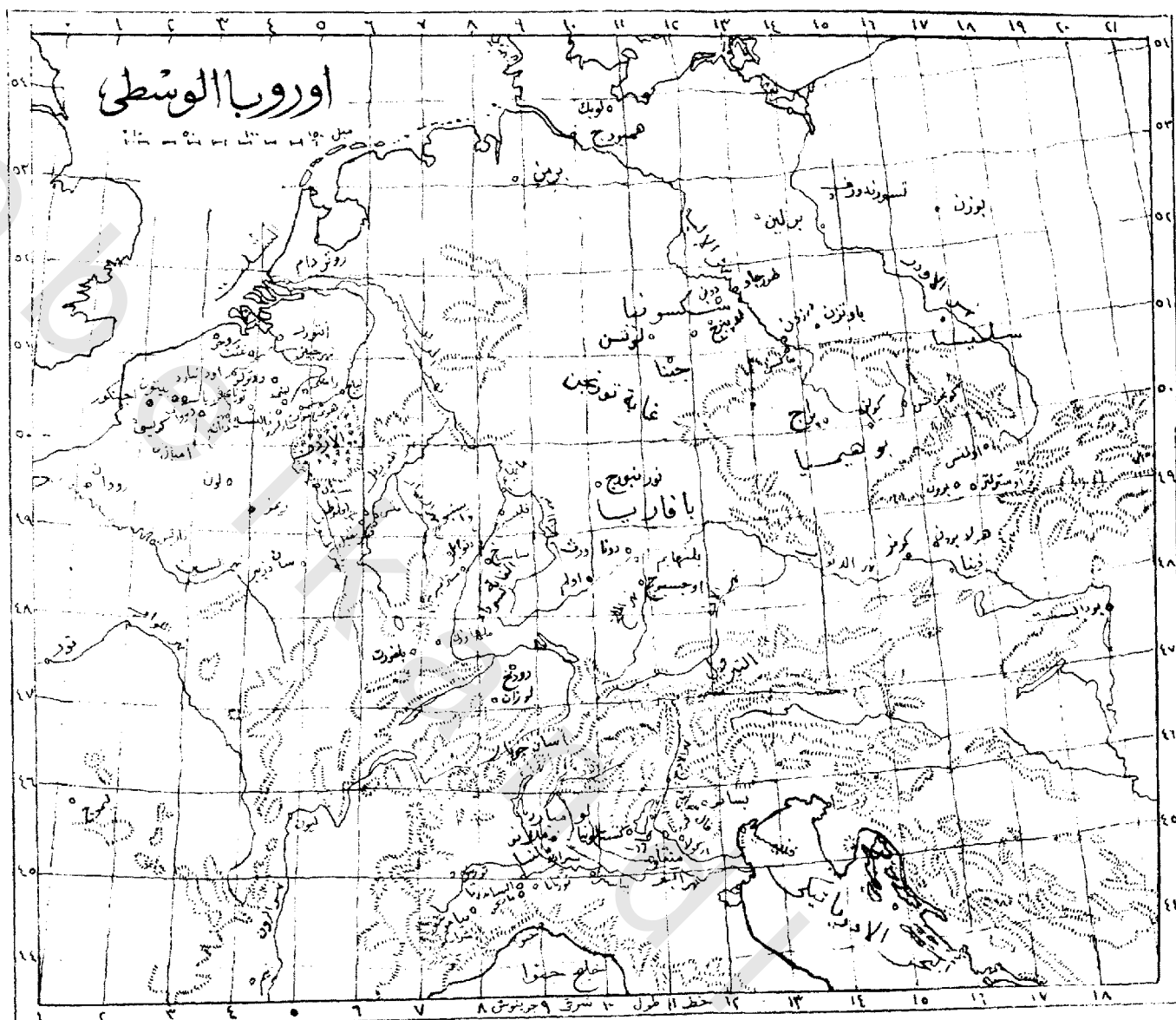
فهذه النسبة العظيمة لحملات التاريخ الحاسمة التي زادت قيمتها ندورة الاقتراب غير المباشر نسبيا تجربنا على أن نستنتج أن الاقتراب غير المباشر هو صورة الاستراتيجية التي تتوافر فيها أعظم درجات الأمل والاقتصاد عن غيرها بكثير ، وهل في استطاعتنا أن نستنتج من التاريخ ما هو أقوى وأقطع للدلالة على ذلك مما مر ، نعم ذلك أن كبار قادة التاريخ ، ماعدا الاسكندر الذين أحرزوا الفوز بصورة منتظمة حينما كانوا يواجهون عدوا مستحكما في موقع قوى سواء كانت قوته طبيعية أو مادية ما كانوا يهاجمونه مباشرة مطلقا إلا في النادر جدا ، وأنهم اذا اضطروا بحكم الظروف القاسية أن يجازفوا بمهاجمته مباشرة على غير رضاء منهم كانت النتيجة فشلا تاما يشوه تاريخهم ، فان "مارلبورو" لم يحدد عن طريق الاقتراب غير المباشر تماما إلا مرة واحدة فمحي فيها النتائج التي أحرزها بفوزه سنين ، وحاد عنه سيزار عدة مرات

وتكبد بنسبتها ، أما "سببو" وكر ومويل فلم يحيدا مطلقا فكانا هما القائدين الكبيرين الوحيدين اللذين انتصرا دائما أبدا ، ما عدا الاسكندر وحتى الاسكندر نفسه بالرغم من تفوق آله تفوقا لاحصر له كان يستخدمها دائما باقترب تكتيكي غير مباشر .

وزيادة على ذلك فان التاريخ يبين أن القائد الكبير يقدم على المجازفة باقترب غير المباشر الذى تكتنفه أشد الأخطار بدلا من أن يستسلم لاقترب مباشر — فاذا قضت الضرورة اجتاز الجبال ، أو الصحارى أو المستنقعات بقسم صغير من جيشه ، بل وانفصل عن واصلاته وابتعد عنها فيواجه ، فى الواقع ، كل الظروف والحالات المعاكسة بدلا من قبول الغلب الذى ينتج من الاقتراب المباشر فان المجازفات الطبيعية مهما عظمت هى فى الحقيقة أقل خطرا وأقل تأكدا من مجازفات القتال ، وكل الظروف فى الاستطاعة أن يحسب حسابها ، وكل العوائق أكثر قابلية للتخطى من ظروف وعوائق المقاومة البشرية . ففى الامكان التغلب عليها بالحساب والاستعداد القائمين على التبصر بحيث تكاد تنظم طبقا "لجدول مواعيد" ولكن حينما تمكن نابليون من عبور جبال الألب "طبقا لخطته" أعاقته طابية "بارد" الصغيرة وأعاقت حركات جيشه إعاقه جديّة جعلت كل خطته فى خطر .

ولنرجع الآن الى قلب ترتيب فخصنا فطالع معارك التاريخ الحاسمة بالدور فوجد فى جميع هذه المعارك بوجه التقريب أن الظافر كان قد وضع خصمه فى حالة نفسية غير مرضية قبل نشوب القتال وأمثلة ذلك "ماراثون" و "سالاميس" و "إجوسپوتامى" و "مانتييه" و "خيرونية" و "كان" و "ميناووروس" و "زاما" و "برستون" و "دنبار" و "وورسستر" و "بلنهايم" و "أودينارد" و "دينين" و "كوبيك" و "فلوروس" و "ريفولى" و "اوستراتز" و "جينا" و "فيكسبورج" و "كوينجراتس" و "سيدان" .

واذا جمعنا بين الفحص الاستراتيجى والفحص التكتيكي نجد أن معظم الأمثلة واحدة من إحدى فئتين . إما أنها حصلت من استراتيجية دفاع مرن — التفهقر المقصود — أعقبه هجوم تكتيكي ، وإما من استراتيجية هجوم (أى تعرضية) يرمى بها المهاجم الى وضع نفسه فى موقع "مخير" للعدو يعقبه دفاع تكتيكي . فكل من هاتين الصورتين المشتركتين تكون اقترابا غير مباشر . والأساس الذى تقوم عليه كل منهما من الوجهة النفسية (نسبة الى علم النفس البشرية) يصح التعبير عنه بكلمة واحدة هى "الخدعة" وفى الحقيقة يصح القول بمعنى أعمق وأوسع من المعنى الذى أراده "كلاوزيفتر" إن الدفاع هو أقوى صورة للاستراتيجية وأكثرها اقتصادا ، لأن التركيب المبين بالفئة الثانية وإن كان عبارة عن حركة تعرضية فى ظاهرها قائمة على الحساب اللوجستى (الحساب اللوجستى هو العلم الذى يبحث فى تحركات الجنود وتموينها) إلا أن الحافز إليها هو جرّ العدو الى هجوم "مختل التوازن" .



والاقتراب غير المباشر الوارد في التاريخ كان يشتمل عادة على حركة عسكرية قائمة على الحساب اللوجستيكي موجهة الى هدف اقتصادي — هو المورد الذي تستمد منه أى البلدان أو الجيوش المتحاربين مؤنه — وكان يحصل أحيانا أن تكون الحركة ذاتها اقتصادية .

وهناك استنتاج آخر من مطالعاتنا ربما لم يكن إيجابيا ولكنه بالقريضة على أقل تقدير ، هو أن مما يعود بثمرة أكثر في الحملة الحربية الموجهة ضد أكثر من بلاد واحدة أو جيش واحد أن يحصل الاحتشاد أولا ضد الشريك الأضعف بدلا من محاولة قهر الشريك الأقوى اعتقادا بأن هزيمة الأقوى يترتب عليها انهيار الآخرين من تلقاء أنفسهم .

ففى النضالين البارزين فى العالم القديم — تغلب الاسكندر على الفرس وتغلب "سپيو" على "قرطاجه" — وتم كل منهما على أثر قطع الجذور . وهذه الاستراتيجية العظمى المؤسسة على الاقتراب غير المباشر لم تقتصر على إيجاد امبراطوريتي "مقدونيا" و "روما" من العدم بل انها خلفت أعظم خلف لهما وهى الامبراطورية البريطانية وعليها تأسس حظ نابليون بونابارت وقوته الامبراطورية . ثم حصل بعد ذلك أن قام على هذا الأساس ذلك البناء العظيم الثالث الدعائم وهو الولايات المتحدة . أما فن الاقتراب غير المباشر فلا يمكن الإلمام به إلماما تاما ولا تقدير غايته تقديرا تاما إلا بالدراسة الشاملة لكل تاريخ الحرب وامعان النظر فيه ، غير أننا نستطيع على الأقل أن نحول هذه الدروس الى صورة مجسمة ونضعها فى كمتين إحداهما ثلثية والأخرى ايجابية .

الأولى هى أنه أمام أدلة التاريخ التى لا تنقض لا يوجد مبرر يبرر القائد فى دفع جنوده الى هجوم مباشر على عدو ثابت فى موقعه . والثانى أنه بدلا عن السعى الى قلب موازنة العدو رأسا على عقب بواسطة الهجوم ، يجب قلبها قبل الشروع فى الهجوم الحقيقى ، أو قبل أن يستطاع الشروع فيه بنجاح .

ولقد لاحت الحقيقة الأساسية أمام بصيرة "لنين" حين قال "الاستراتيجية التى هى أكثر سدا فى الحرب هى إرجاء العمليات الى أن يحل الانحلال الأدبى بالعدو فيجعل انزال الضربة القاضية عليه أمرا ممكنا وسهلا" . وذلك لا يتيسر دائما ، وطريقة دعايته لا تثر فى كل الأحيان ولكن هذا القول يقبل التعديل الى هذه الصورة :

"أسد استراتيجية فى أية حملة حربية هى ارجاء المعركة ، وأسد تكتيك هو ارجاء الهجوم الى أن تترجح قوة العدو الأدبية فتجعل انزال الضربة الحاسمة أمرا ممكنا" .

الباب العاشر

البناء

بعد أن استنتجنا من تحليل التاريخ ما استنتجناه يلوح لنا أن من المفيد أن نقيم على الأسس الجليدة مسكنا للتفكير الاستراتيجي .

ولنبداً أولاً بفهم معنى الاستراتيجية فهما لا يشوبه غموض ولا ابهام . فقد عرفها "كلاوزيقتز" في كتابه الأثرى المسمى "عن الحرب" بأنها "فن استخدام المعارك كوسيلة للحصول على الغرض المطلوب من الحرب . وبعبارة أخرى الاستراتيجية عبارة عن الخطة الموضوعة للحرب . فهي رسم المجري المنوى اتخاذ الحملات الحربية المختلفة التي تتكون منها الحرب ، وتنظم المعارك التي تقع في كل منها " .

فمن عيوب هذا التعريف أنه يتعدى على دائرة السياسة ، أى الإدارة العليا للحرب التي يجب أن تسأل عنها الحكومة بحكم الضرورة ، لا القادة العسكريون الذين تستخدمهم الحكومة ليكونوا عمالاً أو أعواناً لها يقومون بالسيطرة التنفيذية على العمليات . وعيب آخر هو أنه يضيق معنى "الاستراتيجية" ويحصره في مجرد استخدام المعركة فتتولد من ذلك فكرة أن المعركة هي الوسيلة الوحيدة للغاية الاستراتيجية . فكانت هذه خطوة سهلة خطاها أتباعه الذين كانوا أقل تعمقا خلطوا بين الوسيلة والغاية ووصلوا الى نتيجة هي أن في الحرب يجب أن يكون كل اعتبار آخر خاضعاً للمقصد الذي هو خوض غمار معركة حاسمة .

علاقتها بالسياسة — ان ازالة التمييز بين الاستراتيجية والسياسة لا تحدث فرقاً كبيراً اذا كان كل من الوظيفتين منوطاً بشخص واحد باشتراكهما معا كما هي الحال مع "فردريك" أو "نابليون" ، ولكن بما أن وجود حكام عسكريين أو توراتيين (مطلق التصرف) من أمثالهما كان دائماً من الأشياء النادرة ، وأصبحوا لا وجود لهم في القرن التاسع عشر فقد كان تأثير الجمع بين الاستراتيجية والسياسة خادماً ومضراً . لأنه شجع رجال الهندية على ذلك الزعم الباطل من أن السياسة يجب أن تكون في خدمة ادارتهم للعمليات . وخصوصاً في البلاد الديمقراطية فإن هذا الزعم جرح رجال السياسة الى تخطى حدود دائرتهم تلك الحدود التي لا قيد لها وتدخلهم في أعمال موظفيهم العسكري وهو يستخدم آله فعلاً .

أما "مولتك" فإنه توصل الى تعريف أكثر وضوحاً وحكمة في تعبيره عن الاستراتيجية بأنها "التوفيق الفعلي بين الوسائل الموضوعة تحت تصرف القائد ، واجراز الغرض المطلوب" فهذا التعريف يضع مسئولية القائد العسكري أمام الحكومة التي تستخدمه . وهذه المسئولية تتطوى على بذل القوة المخصصة له في حدود مسرح العمليات المعين له بدلاً تراعى فيه مصالح

السياسة الحربية العليا بأقصى درجات الربح . فاذا عَنَّ له أن القوة المخصصة له لا تكفى للقيام بالنصيب المحدد فله الحق أن يبين ذلك . واذا رفض رأيه ففى استطاعته أن يمتنع أو أن يستقبل من القيادة . ولكنه يتجاوز حدود دائرته المشروعة اذا هو حاول أن يملى على الحكومة مقدار القوة التى توضع تحت تصرفه .

ومن جهة أخرى يحق للحكومة التى ترسم سياسة الحرب وتوفق بينها وبين الظروف التى كثيرا ما يطرأ عليها التغير أثناء الحرب ، أن تتدخل فى استراتيجية الحملة ليس فقط باستبدال قائد فقدت ثقته فيه بغيره ، بل بتعديل الغرض الموضوع له بناء على ماتحتاج اليه سياستها الحربية . ومع أنه لا ينبغى لها أن تتدخل فى كيفية معالجته لآلاته واستخدامه اياها ، يجب عليها أن تبين له نوع العمل المطلوب منه ببيان لا غموض فيه . وعلى ذلك فليس لزاما أن يكون غرض الاستراتيجية هو مجرد السعى لقهر قوة العدو العسكرية . واذا رأت الحكومة أن العدو يملك التفوق العسكرى بوجه عام أو فى مسرح خاص فقد يكون من الحكمة أن تأمر باتباع استراتيجية محدودة الغاية والقصود . ثم انها قد ترغب أن تنتظر حتى يتغير ميزان القوة بتدخل حلفاء لها أو بانتقال قوات من مسرح آخر . كما أنها قد ترغب الانتظار بل وأن تحدد مجهوداتها الحربية مؤقتا بينما تقوم الأعمال الاقتصادية أو البحرية بالفصل فى الحالة . وقد ترى أن التغلب على قوة العدو العسكرية عمل خارج عن طاقتها تماما ، أو أنه لا يستحق بذل المجهود ، وأن الغرض المقصود من سياستها الحربية يمكن ضمانه بالاستيلاء على أراض تستطيع الاحتفاظ بها أو استخدامها فى المساومة فى مفاوضات الصلح . ومثل هذه السياسة لها تعضيد من التاريخ أكثر مما اعترفت به الآراء العسكرية حتى الآن . وهى بطبيعتها سياسة أقل ضعفا مما يصوره مروجوها . فهى فى الحقيقة مرتبطة بتاريخ الامبراطورية البريطانية وقد برهنت مرارا على كونها مرساة النجاة لحلفاء بريطانيا ، ومغنا دائما لنفسها . ومهما كانت هذه السياسة العسكرية متبعة دون ادراك ومعرفة فان هناك أسبابا تدعو الى التساؤل عما اذا كانت لا تستحق أن يؤبه لها فى نظرية ادارة الحرب .

على أن السبب الداعى عادة لانتهاج استراتيجية محدودة الغاية ، أكثر من غيره من الأسباب هو انتظار حصول تغيير فى ميزان القوة . وهو تغيير كثيرا ما يطلب ويحرز بانهاك قوة العدو واضعافه بالوخز بدلا من المجازفة بالضربات . والشرط الجوهرى لمثل هذه الاستراتيجية هو أن يقع الانهاك على العدو بمقدار أعظم مما لا يقاس مما يصيب الانسان (أى الواخز) . وهذا الغرض قد يمكن تحقيقه بالسطو والاغارة على مؤنه ، أو بهجمات محلية تبيد أجزاء من قوته أو تنزل بها خسائر تزيد عن نسبة ما يصيبنا بمقدار عظيم ، أو باغرائه على القيام بهجمات لا فائدة له منها ، أو باستدراجه الى تشتيت قوته فى مسافات واسعة ، أو بما لا يقل أهمية عن ذلك وهو انهاك قوته المعنوية ونشاطه الجثمانى .

والتعريف الأضيق يلقي ضوءاً على المسألة التي سبق التساؤل عنها وهي مسألة استقلال القائد بتنفيذ استراتيجيته الخاصة في حدود مسرح عملياته . لأنه إذا استقر رأى الحكومة على اتباع سياسة حربية "فابية" (نسبة الى فاييوس وهي تتطوى على التفادى من المعارك) فإن القائد الذى يسعى لأن يقهر قوة العدو العسكرية ، ولو في حدود دائرته الاستراتيجية قد يضر السياسة الحربية التي انتهجتها الحكومة أكثر مما ينفعها . فالمعتاد أن السياسة الحربية المحدودة الغاية تحتم اتباع استراتيجية محدودة الغاية أيضاً . ولا تتجه الغاية الحاسمة لابتريض الحكومة فهي وحدها التي تستطيع أن تثبت فيما إذا كان الأمر يستحق ذلك .

فالآن نستطيع أن نعطي أفكارنا شكلاً مجسماً فنضع تعريفاً للاستراتيجية أقصر مما سبق ذكره وأبسط وربما كان أدق فنقول : "هي توزيع الوسائل الحربية ونقلها الى حيث تؤدي غايات السياسة" لأن الاستراتيجية لا تقتصر مهمتها على تحريك الجيش — وهو الدور الذى يحدد لها في أغلب الأحوال — بل تشمل أيضاً ما تحدثه من الأثر . وحينما ينصرف تطبيق الآلة العسكرية الى القتال فعلاً فإن الأوضاع التي تتخذ لمثل هذا العمل المباشر والسيطرة عليه يسميان "تكتيكات" . فان الفئتين أى الحاليتين وان كانتا يلائمان البحث والمناقشة ، لا يمكن فصل احدهما عن الأخرى في الحقيقة لأن كلا منهما لا تؤثر على الأخرى فحسب بل تندمج فيهما .

وكما أن التكتيك هو تطبيق الاستراتيجية في مستوى أدنى فكذلك الاستراتيجية هي تطبيق "الاستراتيجية العظمى" في مستوى أدنى . وهذا الاسم الاصطلاحي "الاستراتيجية العظمى" وان كان في الواقع مرادفاً للسياسة التي يتقيد بها سير الحرب ، تميزا لها عن السياسة المستديمة التي تحدد الغرض المطلوب منها ، فهو يبين المعنى المقصود من "سياسة التنفيذ" لأن مهمة الاستراتيجية العظمى هي وضع كل موارد الأمة على قدم المساواة ، أى التوفيق بينها كلها وتوجيهها نحو احراز الغرض السياسى من الحرب — أى الهدف النهائي الذى تحدده السياسة القومية . والاستراتيجية العظمى من واجباتها أن تحسب موارد الأمة الاقتصادية وقوة رجالها وتقدرهما وترقيهما لكي تعول الجنود المقاتلة وتكفل بقاءها . وتفعل ذلك أيضاً بالموارد الأدبية لأن تربية قوة ارادة الربح والجلد وانعاشهما وحمايتهما لها من الأهمية ما لا تمتلك الصور الأخرى للقوة المادية المجسمة . وعليها أن تنظم توزيع القوة بين أفرع الخدمة المتعددة . وبين هذه الأفرع والصناعة . وليس ذلك كل ما عليها لأن القوة المقاتلة ان هي الاحدى آلات الاستراتيجية العظمى . ويجب عليها أن تحسب حساب قوة الضغط المالى ، والضغط الدبلوماسي ، والضغط التجارى وتستعملها . وكذلك ، ما لا يقل عن هذه القوى ، وهو الضغط الأدبي لاضعاف ارادة العدو . فان القضية الطيبة هي في ذاتها سيف ودرع . وزيادة على ذلك فينبى أن الذى يحد أفق الاستراتيجية هو الحرب ، فان الاستراتيجية العظمى تلقى نظرها الى ما وراء

الحرب وهو الصالح الذى يعقبه . والذى يجب عليها ليس فقط اشراك الآلات المتنوعة بل تنظيم استخدامها على وجه تجنب معه الاضرار بحالة السلم المستقبلية وبقائه مكفولا فى رخاء . فلا عجب اذا كان القسم الأعظم من مملكة الاستراتيجية العظمى "بلادا مجهولة" خلافا للاستراتيجية .

الاستراتيجية البحث — بعد أن مهدنا السبيل وأزلنا كل غموض صار فى امكاننا أن نبني فكرتنا عن الاستراتيجية على أساسها الأصيل الحقيقى — وهى أنها "فن القائد" . ونجاحها يتوقف أولا وفوق كل شئ على صحة حساب الغاية المطلوبة والوسائل الموجودة والتوفيق بينهما ويجب أن تكون الغاية متناسبة مع مجموع الوسائل ، وأن تكون الوسائل المستخدمة لاحراز كل غاية متوسطة من الغايات التى تمهد لاحراز الغاية النهائية ، متناسبة مع ما لهذه الغاية المتوسطة من القيمة وما تحتاج اليه ، سواء كانت احراز غرض أو انجاز تمهيد . فإن التجاوز (أى الزيادة) قد يكون مضرا نفس الضرر الذى يحدثه النقص . والتعديل الحقيقى بين الغاية والوسيلة يؤدى الى الاقتصاد فى القوة بأصح معنى لهذا الاصطلاح العسكرى الذى كثيرا ما أصابه التشويه . ولكن نظرا لطبيعة الحرب وما يحيط بها من الغموض وهو غموض يزداد جساما بعدم دراستها دراسة علمية ، فإن التعديل الحقيقى فوق مقدور الأشخاص حتى ذوى العبقرية العسكرية . أما النجاح فيحصل بالاقتراب من الحقيقة ما أمكن .

ووجود هذه العلاقة على هذه الصورة سببه أن معلوماتنا عن علم الحرب ، العلم الذى يكاد يكون فى الوقت الحاضر من الأشياء التى لم يتناولها الاكتشاف ، مهما اتسعت فانه علم يتوقف تطبيقه على الفن . والفن ليس فى مقدوره أن يقرب بين الغاية والوسائل فحسب ، بل انه برفعه قيمة الوسائل يمكن من ازدياد الغاية واتساعها . وهذا يربك الحساب ويعقده لأنه ليس فى مقدور البشر حساب مقدرة العبقرية البشرية ، وعجز البلادة ، ولا عجز الارادة حسابا قرين الدقة .

العناصر والظروف — ومع ذلك فان الحساب فى الاستراتيجية أكثر بساطة منه فى التكتيك وفى الامكان أن يكون أقرب للحقيقة عما فى التكتيك . لان فى الحروب ، العامل الرئيسى الذى لا يمكن حسابه هو الارادة البشرية التى تتمثل فى المقاومة . والمقاومة هى فى دائرة التكتيك . أما الاستراتيجية فليس عليها أن تتغلب على مقاومة الا المقاومة الآتية من جهة الطبيعة . والقصد منها انقاص احتمال حصول المقاومة وهى تسعى لأداء هذا الغرض باستغلال عنصرى ، "الحركة" و "المفاجأة" . أما الحركة فهى فى دائرة الطبيعيات وتتوقف على حساب ظروف الزمان ، والطبوغرافية ، والمقدرة على النقل . وعبرة المقدرة على النقل يقصد بها كل من الوسائل ، والمقدار ، اللذين يستطيع بهما نقل قوة وإعاشتها .

وأما المفاجأة فهي في دائرة النفسيات (علم النفس) وتتوقف على حساب أصعب بكثير مما في دائرة الطبيعيات (الجثمانية) ، يختص بالظروف المتعددة التي تختلف في كل حالة عنها في الأخرى ، التي يحتمل أن تؤثر على ارادة العدو .

ولو أن الاستراتيجية قد ترمى الى استغلال الحركة أكثر مما ترمى الى استغلال المفاجأة او العكس بالعكس فان لكل من هذين العنصرين رد فعل على الآخر . فالحركة تولد المفاجأة . كما أن المفاجأة تعطى الحركة الحافز الذي يدفعها . لأن الحركة التي تزداد سرعتها أو التي تغير اتجاهها تحمل في نفسها درجة في المفاجأة لا بد منها حتى لو كانت غير مخفية . في حين أن المفاجأة تمهد طريق الحركة باعاقبتها التدابير المقابلة التي يتخذها العدو وحركاته المقابلة .

أما فيما يختص بعلاقة الاستراتيجية بالتكتيك أثناء التنفيذ فان الحد الفاصل بينهما كثيرا ما يبقى غامضا ومن الصعب التحديد بالدقة أين تنهى الحركة الاستراتيجية وتبديى الحركة التكتيكية ومع ذلك فان كلا منهما يمتاز عن الآخر نظريا . فالتكتيك يقع في دائرة القتال ويملاها . أما الاستراتيجية فانها لا تقف عند الحد فحسب ، بل ان من أغراضها انقاص القتال الى أقل قدر ممكن .

مرمى الاستراتيجية — هذا القول سيجادل فيه الذين من رأيهم أن ابادة قوة العدو المسلحة هي الغاية الوحيدة السديدة في الحرب . الذين يقولون ان هدف الاستراتيجية الوحيد هو المعركة والذين ملك عليهم مشاعرهم قول ” كلاوزيفتر “ ان « الدم ثمن النصر » . ومع كل فاذا سلم الانسان بذلك وقابل القائمين به في جدلهم ، فان القول لا يترزع ولا يجرح . لانه حتى اذا كانت المعركة الحاسمة هي الهدف الوحيد فان الجميع يعترفون بأن غرض الاستراتيجية . هو تهيئة المعركة في أكثر الظروف ملائمة لها . وكلما كانت الظروف ملائمة قل القتال نسبيا .

وبناء على ذلك فان ابلاغ الاستراتيجية حد الكمال يكون بالحصول على حسم — ابادة قوات العدو والمساحة عن طريق نزع أسلحتها بالتسليم — من غير قتال . وفي التاريخ أمثلة شاهدنا فيها أن الاستراتيجية حينما ساعدتها ظروف ملائمة أحدثت مثل هذه النتيجة .

وفي العادة فان الرأي متروك للحكومة المسئولة عن الاستراتيجية العظمى في الحرب ، في البت فيما اذا كان واجب الاستراتيجية أن تقوم بنصيبها باحراز حسم عسكري أو بغيره . وكما أن القوة العسكرية ليست سوى إحدى وسائل غاية الاستراتيجية العظمى — إحدى الآلات الموجودة بصندوق الجراح — فكذلك المعركة ليست الا وسيلة من وسائل الغاية الاستراتيجية . فاذا كانت الظروف ملائمة كانت هي أسرع تأثيرا عادة . ولكن اذا كانت الظروف ليست ملائمة فمن الحماقة استخدام المعركة . ولنفرض أن أحد الاستراتيجيين فوض في السعي للحصول

على جسم عسكري . فان مسئوليته تقضى بالسعى للحصول عليه في أكثر الظروف ملائمة لكي يحصل على النتيجة التي تكون أكثر مغنا . ومن ثم فان هدفه الحقيقي ليس السعى للحصول على معركة بقدر ما هو السعى للحصول على موقف استراتيجي ملائم لدرجة أنه اذا لم يحدث الجسم هو بذاته فان استمراره بنشوب معركة يضمن حصول الجسم . وبعبارة أخرى فان الزحزة هي هدف الاستراتيجية والذي يعقبها هو إما انحلال العدو وإما تشتيته في معركة . والانحلال قد يتطلب مقدارا من القتال ولكنه لا يكون معركة بالمعنى الصحيح .

عمل الاستراتيجية — كيف تحصل الزحزة الاستراتيجية في دائرة الطبيعيات الجثمانية «اللوجستية» تنتج الزحزة عن حركة : (ا) تقلب أوضاع العدو رأسا على عقب فتضطربه الى « تغيير جبهته » فجأة ، وتزحزح توزيعاته وتنظيم قواته . (ب) تفصل قواته عن بعضها البعض . (ج) تجعل مؤنه في خطر . (د) تهدد الطريق أو الطرق التي يستطيع سلوكها في رجعته حين الحاجة ليستقر مرة أخرى في قاعدته أو في بلاده . فالزحزة قد تحصل بتأثير احدي هذه الحالات ولكنها في الغالب تنتج عن عدة منها . والتمييز بين احداها والأخرى أمر صعب في الحقيقة لأن الحركة الموجهة الى مؤخرة العدو من شأنها أن تحدث تأثير هذه الحالات كلها . أما التأثير الناشئ عن كل حالة منها فانه يختلف ، وقد اختلف في كل عصور التاريخ ، باختلاف هجوم الجيوش وتعقد تنظيمها . ففي الجيوش التي « تعيش من البلاد » وتستمد مؤنها محليا بالسلب أو بالمصادرة يعد خط المواصلات شيئا لا أهمية له . وحتى في مراحل التطور التي هي أرقى مما في هذه الجيوش تكون القوة الصغيرة أقل اعتمادا على خط المواصلات وفي استطاعتها نقل المؤن معها لمدد محدودة . وكلما كبر حجم الجيش وازداد تنظيمه تعقيدا كان تهديد خط مواصلاته ذا أثر أسرع مفعولا وأعظم جسامة .

أما الحالات التي تكون فيها الجيوش غير معتمدة على المواصلات فان الاستراتيجية تجد أمامها عراقيل بنسبة عدم الاعتماد (اعتماد الجيوش على المواصلات) وتلعب النتيجة التكتيكية للمعركة دورا أعظم . ومع ذلك فحتى مع قيام العراقيل أمام الاستراتيجية فان الاستراتيجيين الفنيين كثيرا ما غنموا مزايا حاسمة قبل نشوب المعركة بتهديدهم لخط رجعة العدو ، أو توازن أوضاعه ، أو مؤنه المحلية .

ولكي يكون مثل هذا التهديد مؤثرا يجب استخدامه في نقطة أقرب من جيش العدو ، من حيث الزمان والمكان ، مما في حالة تهديد مواصلاته . ولذا ففي أوائل الحرب كثيرا ما يصعب التمييز بين المناورة الاستراتيجية والمناورة التكتيكية .

أما في دائرة النفسانيات (نسبة الى علم النفس) فان الزحزة هي نتيجة ما انطبع في ذهن القائد من الأثر المادي الذي أحدثته الحالات السالف بيانها . وهذا التأثير يتضاعف مفعوله متى أدرك القائد على حين فجأة أنه في موقف غير مرض . واذا شعر بعمجه عن مقابلة حركات

العدو بما يعاكسها . فالزحزة المعنوية (النفسية) أصل منشأها في الواقع هو شعور القائد بأنه واقع في شرك . وهذا هو السبب في حصولها كثيرا على أثر الحركة المادية (الجثمانية) التي توجه الى مؤخرة العدو . فان الجيش ، كالرجل ، لا يستطيع أن يدفع ضربة عن ظهره على الوجه الصحيح قبل أن ينقلب ويدور الى الوراء ليستعمل أسلحته في الاتجاه الجديد . « والانتقال » يفقد الجيش موازنته موقتا كما يفعل بالرجل . والوقت الذي يبقى فيه الجيش مختل التوازن أثناء انقلابه أطول بكثير من الوقت الذي يبقى فيه الرجل كذلك بحكم الضرورة . وينتج من ذلك أن تزداد حساسية العقل لأى تهديد يوجه الى الظهر عن حساسيته لأى تهديد يوجه الى جهة أخرى . وبالعكس فان التحرك نحو الخصم مباشرة يوطد توازنه من الوجهتين المادية والمعنوية . وفي توطيدها تعزز لقوة مقاومته . لأنه اذا كان الخصم جيشا فان الحركة المباشرة تصده الى الوراء نحو جنوده الاحتياطية ، ومؤنه ، وامداداته حتى اذا ضعفت جبهته الأصلية وصارت رقيقة تواجدت وراءها طبقات جديدة . وغاية ما يمكن ايقاعه به هو ضغط لا صدمة .

وعلى ذلك فالحركة التي تجرى حول جبهة العدو وتوجه الى مؤخرته تشمل في ذاتها غاية هي ليست فقط التفادى من لقاء المقاومة في طريقها ، بل التفادى من نتيجتها . وبالمعنى الأكثر تعمقا تتخذ الخط الذي يلاقى أقل درجات المقاومة . ويعادل هذا الخط في دائرة المعنويات (النفسيات) الخط الذي يكون فيه الانتظار أقل من غيره . فهما بمثابة وجهى قطعة واحدة من النقد (المسكوكات) . وادراك ذلك على حقيقته يوسع مداركنا الاستراتيجية . لاننا اذا اقتصرنا على اتخاذ الخط الذى يظهر انه خط أقل درجات المقاومة فان ظهوره كذلك يستجلب نظر العدو أيضا فلا يبقى بعدها أقل خطوط المقاومة . ففى دراستنا للوجه المادى يجب ألا يغيب عنا الوجه المعنوى مطلقا . ولا تكون الاستراتيجية قائمة على الاقتراب غير المباشر حقيقة ومؤدية الى زحزة توازن الخصم الا اذا اشترك الوجهان معا .

فترى من ذلك أن مجرد السير نحو العدو بطريق غير مباشر ، والدنو من مؤخرة أوضاده لا ينتج هو بذاته اقترابا استراتيجيا غير مباشر . فالفن الاستراتيجى لم يبلغ من البساطة هذا الحد . ومثل هذا الاقتراب قد يكون فى مبدئه غير مباشر بالنسبة لجهة العدو . على أن مجرد استقامة سيره نحو مؤخرة العدو قد يمكنه من تغيير أوضاعه وسرعان ما ينقلب الاقتراب الى اقتراب مباشر من جبهته الجديدة .

وخشية من المجازفة بتمكين العدو من تنفيذ تغيير جبهته فان من المعتاد ، اعتيادا تقضى به الضرورة ، ان تسبق الحركة المزحزة حركة أو حركات ، قد تكون أحسن تسمية لها دالة على نوعها هي اسم « تشتيت » بمعناها اللفظى أى « التفرقة » . والقصد من هذا « التشتيت » هو حرمان العدو من حرية حركات . ويجب أن يكون فى الدائرتين المادية والمعنوية (النفسية) .

ففى المبادئ يكون عمله جعل العدو ينشر قواته أو يحولها نحو غاية لا فائدة له منها حتى تصبح شاسعة الانتشار ومتورطة من جهة أخرى بدرجة تجعلها غير قادرة على التدخل فى حركة الانسان التى ينوى بها الحسم . أما فى دائرة المعنويات فيكون السعى للحصول على نفس هذا التأثير ، باستغلال ما يخشاه قائد جيش العدو ، وتضليله أى خدعته . ولقد أدرك ذلك "ستونوول" "جاكسون" حينما ضرب مثله الاستراتيجى المشهور حيث قال : « حير ، وأخدع ، ثم فاجئ » . لأن إيقاع العدو فى الحيرة وخديعته يوجدان « التشتيت » . ثم ان المفاجأة هى السبب الجوهرى فى « الزحزحة » . والذى يتولد عن « تشتيت » فكرة القائد هو تشتيت قواته الذى يقع على أثر تشتيت أفكاره . وضياع حريته فى العمل هو نتيجة ضياع حريته فى التفكير .

ثم ان تقدير الكيفية التى تنفذ بها المعنويات من خلال المبادئ وتسودها ، تقديرا يقوم على التعمق فى التفكير ، له قيمة غير مباشرة لا تقدر . لأنه يحذرنا من السفسطة التى لا طائل تحتها ، وهى محاولة تحليل النظريات الخاصة بالاستراتيجية تحليلا قائما على العمليات الحسابية . فان معالجتها من وجهة الكم كما لو كانت المسألة مجرد مسألة احتشاد قوة متفرقة فى مكان مختار ، لا تقل خطأ عن معالجتها من الوجهة الهندسية كما لو كانت مسألة خطوط وزوايا .